ياسر أحمد علي

شَعَب وحاميتُها

(قرية شَعَب الجليلية والدفاع عنها)

الطبعة الأولى ٢٠٠٧

المنظمة الفلسطينية لحق العودة «ثابت»

سلسلة القرى الفلسطينية (١)

اسم الكتاب: شَعَب وحاميتُها
تأليف: ياسر أحمد علي
تقديم: الدكتور محسن محمد صالح
مراجعة وختام: حسين علي لوباني
تصميم الغلاف: نادر قدورة
الطبعة الأولى ٢٠٠٧

الناشر: المنظمة الفلسطينية لحق العودة (ثابت)
Palestinian Organization For The Right of Return (Firm)
بيروت - مخيم مار الياس للاجئين الفلسطينيين

جوال: ٠٠٩٦١ ٣ ٥٣٩٦٩٢
تليفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٠٧٤٨٧
ص.ب. صور ٢٠٦

الموقع الإلكتروني: www.thabit-lb.org
بريد إلكتروني: info@thabit-lb.org
pofror@yahoo.com

الآراء الواردة في الكتب الصادرة عن «ثابت» تعبر عن وجهات
نظر المؤلفين، ولا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر المنظمة

المنظمة الفلسطينية لحق العودة (ثابت)

Palestinian Organization Of The Right Of Return (Firm)

تعريف:

هي منظمة فلسطينية ثقافية إعلامية مستقلة غير حكومية، ناشطة على الساحة الفلسطينية ومقرها لبنان، تعنى بقضية اللاجئين الفلسطينيين وحق عودتهم إلى ديارهم التي طردوا منها إبان النكبة في العام ١٩٤٨، حيث تستهدف في أعمالها الفئات العمرية المختلفة والمستويات الثقافية المتعددة من النخب وصنّاع القرار، عدا عن الشرائح الجماهيرية للاجئين الفلسطينيين في المخيمات والتجمعات والمناطق.

تتطلع (ثابت) إلى الحفاظ على الهوية الفلسطينية والتمسك بالعادات والتقاليد والثقافة السائدة في المجتمع الفلسطيني وتوثيق الذاكرة الفلسطينية وحفظها للأجيال القادمة من خلال إشراك جميع فئات الشعب الفلسطيني مع المهتمين، وصولاً لتحقيق الأهداف بالعودة إلى الديار والممتلكات في فلسطين.

الأهداف:

الحفاظ على الهوية الفلسطينية.

محاربة كافة أشكال التوطين والتهجير للاجئين الفلسطينيين والسعي لتوفير الحقوق المدنية والاجتماعية للاجئين الفلسطينيين.

المساهمة في رفع مستوى الوعي حول قضية اللاجئين وحق العودة في الوسط الفلسطيني والعربي والعالمي.

التمسك بالأنروا كمؤسسة دولية نشأت بفعل النكبة، وهي الشاهد على جريمة الطرد والإبعاد لحين عودتهم إلى ديارهم.

العمل مع الجهات المعنية المتخصصة لتحسين الظروف المعيشية والحياة الإنسانية للاجئين في لبنان مع الحفاظ على المخيم بمفهومه السياسي.

العمل مع صناع القرار والمؤسسات الأهلية المحلية والعربية والدولية لتشكيل لوبي ضاغط يساهم في توضيح قضية اللاجئين وحق عودتهم في وسائل الإعلام والمحافل الإقليمية والدولية.

الهيئة الإدارية

علي هويدي
(الأمين العام)
أحمد أبو جميع
أحمد شحادة
رائد طلوزي
علي مرعي
ياسر علي

- ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُۗ﴾. [الحج: ٤٠]
- ﴿إِنَّمَا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ قَٰتَلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَأَخۡرَجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ وَظَٰهَرُواْ عَلَىٰٓ إِخۡرَاجِكُمۡ أَن تَوَلَّوۡهُمۚ وَمَن يَتَوَلَّهُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾. [الممتحنة: ٩]
- ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ﴾. [البقرة: ١٩١]

الفهرس

الإهداء ١٢
شكر وعرفان ١٣
تقديم بقلم الدكتور محسن صالح ١٤
المنهج ١٥

الباب الأول: التاريخ والحضارة

الفصل الأول: مدينة عكا و قضاؤها ٢٢
مدينة عكا ٢٣
تاريخ عكا ٢٤
إعادة بنائها ٢٥
جغرافية قضاء عكا ٢٥
مناطق عكا الطبيعية ٢٧
الإنتاج ٢٨
التعليم في القضاء ٢٨
نظرة خاطفة على تاريخ عكا ٢٨
سقوط قرى عكا ٢٩

الفصل الثاني: شَعَب ومعالمها ٣٠
مقدمة ٣١
اسم القرية ٣٤
الخرائب والآثار ٣٦
بيوت ومنازل شَعَب ٣٧
المباني غير الآهلة ٣٨

الباب الثاني: الأرض والبشر

الفصل الأول: الجغرافيا ٤٣
موقع القرية ٤٣
إحداثيات القرية ٤٣
الحدود والتضاريس ٤٤

مساحة شَعَب وأراضيها ٤٤
قطع الأرض في شَعَب ٤٤

الفصل الثاني: السكان ٤٨
العوامل المؤثرة في عدد السكان ٤٨
عدد السكان ٤٩
ملاحظات حول جدول التطور السكاني ٥١
عائلات شَعَب ٥٢
العائلات الآن ٥٦
أسر شَعَب ومبانيها ٥٦

الفصل الثالث: اقتصاد البلد ٧٠
المزروعات ٧٠
الثروة الحيوانية ٧٥

الفصل الرابع: الحياة الاجتماعية ٨١
المهن والحرف والصناعات ٨١
مآكل ومشروبات شَعَب ٨٤
التعليم في شَعَب ٨٨
الطبابة والاستشفاء ٨٨
اللباس والزينة ٨٩
الأحزاب السياسية في شَعَب ٩٣
ألقاب شَعَبية ٩٤

الفصل الخامس: شخصيات من شَعَب ٩٦
أبو إسعاف (قائد حامية شَعَب) ٩٧
مصطفى ونجيب الطيار (المتكاملان) ١٠١
سعيد صالح عبد الهادي الأسدي (الفلسطيني) ١٠٤
حادي فلسطين يوسف حسون (أبو العلاء) ١٠٨
الشيخ محمود (ماض مجهول ومستقبل مفقود) ١١٥
أحمد الحلبي (الطبيب المزعوم) ١١٧

الفصل السادس: المناسبات والأعياد ١١٩
العرس في القرية ١١٩
الولادة ١٤٦
الطهور والحلاقة ١٤٨
هدهدة الأطفال ١٥٠
عودة الحجاج ١٥٢
شهر رمضان ١٥٤
الأعياد ١٥٦

الفصل السابع: أشعار قيلت في شَعَب ١٥٩

الباب الثالث: فصول من تاريخ القرية

تقديم ١٦٤

الفصل الأول: طوشات القرية ١٦٦
مذبحة الجامع ١٦٧
طوشة البلد ١٦٧
طوشة الخطيب – فاعور/حسين ١٦٨
طوشة الأسدية (١٩٤٥) ١٦٩

الفصل الثاني: دخول الطريقة الشاذلية اليشرطية ١٧٠

الفصل الثالث: مشاركة القرية في الثورة العربية الكبرى ١٧٢
أحداث الثورة العربية الكبرى ١٧٤
معركة الليّات الأولى ١٧٤
قصف الطيران على شَعَب ١٧٥
معركة الليّات الثانية ١٧٥
نسف القرية ١٧٩
معركة الليّات الكبرى ١٨٠
إعادة بناء شَعَب ١٨١

الفصل الرابع: أحداث نكبة ١٩٤٨ ..... ١٨٣
تأمين السلاح عبر أبو إسعاف ١٨٤

الصورة العامة للوضع ١٨٤
(سقوط) قرى عكا ١٨٥
معارك شَعَب وحاميتها ١٨٥
تفاصيل المعارك الميدانية لحامية شَعَب..... موسى مطلق إبراهيم ١٨٧
..... شهادة الحاج علي الخالد ١٨٨
نجدة هوشة والكساير ١٩٠
احتلال شَعَب ١٩١
قراءة في الرواية الصهيونية لمعارك المنطقة ١٩٥
نساء شَعَب ١٩٧
الترتيب الزمني للأحداث ١٩٩
الحامية خارج فلسطين ٢٠١
بيان بأسلحة حامية شَعَب ٢٠١
جيش الإنقاذ في قضاء عكا ٢٠٥
شهداء شَعَب عام ١٩٤٨ ..... ٢٠٧
مجزرة زبوبا وشهداؤها ٢٠٩
طرق النزوح ٢١١
العودة إلى القرية ٢١٢
مجزرة مجد الكروم ٢١٣

الباب الرابع: الملاحق والشهادات

الفصل الأول: مشاهدات حية من يوم النكبة ٢١٨
شهادة الحاجة نعمات ماهل الخطيب (أم شوقي) ٢١٩
شهادة الحاجة سعاد أمين حسين حميد (أم علي) ٢٢١
شهادة الحاجة حنيفة صالح حسين (أم أكرم) ٢٢٣

الفصل الثاني: مقتطفات عن شَعَب ٢٢٦
مع الاعتذار.. أنا مع التوطين ٢٢٧
شهادات من كتاب نافذ نزال (النزوح الفلسطيني من الجليل) ٢٣٠
شهادات من كتاب روز ماري صايغ (الفلاحون الفلسطينيون: من الاقتلاع إلى الثورة) .. ٢٣٣
يوميات من فلسطين: شَعَب الآن ٢٣٤
كيف يعيش فلسطينيو الجليل في شَعَب ودير الأسد وترشيحا؟ ٢٣٧
قصة «العروس» لغسان كنفاني ٢٣٩

مقتطفات من رواية «باب الشمس» لإلياس خوري ٢٤٦
(سقوط) قرى عكا.. من كتاب النكبة لعارف العارف ٢٥٢
جيش الإنقاذ والمناضلون في الجليل ٢٥٣

الفصل الثالث: رابطة عموم أهالي شَعَب ٢٥٦

المصادر والمراجع ٢٦٣
ملحق الصور والخرائط ٢٦٦
ختامه مسك بقلم حسين علي لوباني (الداموني) ٢٩١
بطاقة الكاتب ٢٩٢

الإهداء

من أبي أحمد محمد علي (أبو هاني)

من أمي سعاد صالح حسين (أم هاني)

إلى أولادي: ملاك وخالد وأحمد، الذين آمل أن أنجح بزراعة حب بلدتي شَعَب وبلدي فلسطين فيهم كما نجح جدهم وجدتهم في ذلك.

شكر خاص

إلى الذين ساهموا مساهمة خاصة في إنجاز هذا الكتاب، وأخصّ هنا:

هاني أحمد علي
أكرم أحمد علي
جلال أحمد علي
ريما سعيد علي

شكر وعرفان

أتوجه بالشكر إلى كل من ساهم في مساعدتي في عملي التأليفي من أهل البلد وغيرهم، وأذكرهم هنا بالترتيب الأبجدي مع حفظ الألقاب.

إبراهيم صالح حسين (أبو حلمي)، إبراهيم درويش، أحمد محمد علي (أبو هاني)، أحمد الحاج علي، أكرم مصطفى الطيار، أنيس صايغ، بهاء حسون، حسين علي لوباني (الدامونى)، داود صالح حسين (أبو سليمان)، ريما سعيد علي، سعاد صالح حسين (أم هاني)، علي بيتم، علي طه الخالد (أبو أنور)، علي هويدي، محسن محمد صالح، محمد صالح حسين (أبو وائل)، محمد الأسعد (أبو علي)، محمود علي علي (أبو أكرم)، محمود دكور (أبو أدهم)، مهى محمود علي، موسى مطلق إبراهيم (الشيخ محمد)، نادر قدورة، يوسف الغضبان (أبو عادل) رابطة عموم أهالي شَعَب، وكل أهل البلد الذين لم يتردد أحد منهم لحظة في إسداء النصح والتسديد والمساعدة بما استطاعوا، حيث وجدت لديهم جميعاً الحماس الكافي للمساهمة والمتابعة في هذا الكتاب.

كما لا أنسى توجيه الشكر إلى زوجتي غادة جمال (من شفاعمرو) على صبرها وتحملها العمل الدؤوب على كتاب عن غير قريتها..

وإلى إخوتي هاني، محمد، أكرم، جلال.. وياسر قدورة وعلية علي.

كما أخص بالشكر المنظمة الفلسطينية لحق العودة (ثابت) التي جعلت حلم طباعة هذا الكتاب ممكناً، حيث تبنت طباعته وشرّفتني بأن جعلته باكورة إنتاجها الثقافي التراثي.

تقديم

بقلم: د.محسن محمد صالح
أستاذ مشارك في الدراسات الفلسطينية
مدير عام مركز الزيتونة للدراسات والاستشارات

لا تحمل الكتابات والدراسات حول قرى فلسطين، التي توالى ظهور عدد منها في السنوات الماضية، قيمة اجتماعية أو عاطفية فقط، ولكنها تندرج أيضاً في إطار الصراع مع العدو الغاصب في إثبات هوية الأرض وقدسيتها ومكانتها، وارتباط أبنائها بها، وأنها كانت تنبض بالحيوية والحياة، وأنها لَم تكن يوماً «أرضاً بلا شعب». وتميط هذه الدراسات اللثام عن حبّ أبناء فلسطين لأرضهم، وعن جوانب الحياة الحضارية المتجذّرة، التي تفاعلت مع الأرض، في أشكالها الثقافية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفنية والعسكرية. وهي تعكس أيضاً مدى الظلم والقهر الذي حاق بشعبٍ اقتُلع من أرضه وحاول الصهاينة أن يغطوا على جريمتهم بطيّ صفحته وطمس تاريخه.

ولا شكّ أن الأستاذ ياسر أحمد علي قد قام بجهدٍ كبيرٍ في إعداد كتابه عن قريته «شَعَب»، وكما أن هذا الكتاب سِفْرٌ يحتفي به أهل القرية وأجيالها، فإنه يضيف المزيد إلى الدراسات التي تثبت حقّ الفلسطينيين في أرضهم وهويتها العربية والإسلامية. والكتاب رغم عدم انشغاله بالشروط الأكاديمية الصارمة، إلا أنه يقدم صورة حيّة نابضة صادقة ومتكاملة لقرية شَعَب وجوانب حياتها المختلفة. ثم إن المؤرخين المهتمين بالدراسات الاجتماعية والثقافية والفولكلورية سيستفيدون منه، كما أن هناك إضاءات تستحقّ الإشارة حول عدد من الشخصيات، وحول جهاد أبناء القرية وحول سقوطها في يد الاحتلال الصهيوني، وهو ما يُفيد بشكلٍ عام في استكمال بعض جوانب التاريخ السياسي والجهادي لشعب فلسطين.

ويدرك المؤرخون المشاكل والمحاذير التي تصاحب الاعتماد على التاريخ الشفوي، والتي أشار إليها المؤلف نفسه، كما يزيد الأمر صعوبة أن يكتب الشخص عن قريته نفسها، مما قد يضطره إلى مراعاة عدد من الحسابات والموازنات الصعبة، وأهمها أن يسعى لأن يكتب كتاباً يجتمع عليه أهل القرية، ودون أن يُغضب أحداً.

لقد تمكّن مؤلف الكتاب بأسلوبه الرشيق السّلس، وبصبره ودأبه واستقصائه، أن يقدّم لنا صورة غنية لحال القرية الفلسطينية، المتمثل في قريته «شَعَب». وإنني أدعو الكتّاب والباحثين إلى كتابة المزيد من الدراسات الجادة حول القُرى الفلسطينية، لتكون زاداً تتوارثه أجيالنا، ولِتظلّ أعين الجميع مصوّبة نحو أرضنا المباركة المقدّسة، حتى يتحقّق النصر وتتحقّق العودة.

المنهج

حاولت في هذا الكتاب الجمع بين التراث والثقافة، والجمع بينهما أمر ليس سهلاً على كاتبه، فلكي تصل الفكرة أو المعلومة إلى القارئ، يجب على الكاتب أن يليّن ألفاظها أحياناً ويفصّحها ويقعّرها أحياناً أخرى، الأمر الذي يوقفه بين حدّين، عليه أن يتوسط بينهما، وخير الأمور الوسط. لذلك وجب التنبيه إلى بعض الملاحظات المنهجية التي اتبعناها في هذا الكتاب..

- كتبتُ هذا الكتاب وأنا مسكون بعدة هواجس، أولها أن شَعَب جزء لا يتجزأ من عكا التي هي أيضاً جزء لا يتجزأ من فلسطين. لذلك فإن الكلام عن عاداتها وتقاليدها وأرضها ولباس أهلها ومواسمها سيكون مكرراً للآخرين، ولكن أهل شَعَب - في المقابل- لم يقرأوا الآخرين، لذلك فإن المعلومات ستكون مكررة أو ناقصة، فحاولت اختصار ما تكرر، وتفصيل ما تميّز.

غير أنني رأيت أن من واجب كتّاب هذا النوع من الكتب أن لا ينفصلوا كلياً عن المحيط، فآثرت أن أكتب مقدمة عن قضاء عكا للإلمام بالبيئة والمحيط. كما أنني فصلت في مواضع، واختصرت في أخرى.

الهاجس الثاني، في التفاصيل التي لا تهم غير أبناء شَعَب. لقد كتبت هذه التفاصيل وأنا مسكون بهاجس ظل يحلق فوق سطور هذا الكتاب، وهو (لأننا حتماً سنعود) مع ما يستتبع ذلك من أفكار وتوضيحات. فلأننا حتماً سنعود، يراعي هذا الكتاب دوافع العودة (الحق والوطن والأرض) ومحفزات العودة (نضال أهل القرية والسابق وانتصاراتهم) وما سيعود الجيل الجديد إليه، لذلك يجب أن يكون هذا الكتاب لمن سيعود أيضاً، ليعرف الذين سيعودون أراضيَهم وبيوتَهم.

- كما نعلم، فإن شَعَب جزء من فلسطين لا يتجزأ، ولن تكون منفصلة ومتميزة كما أوحت بذلك بعض الكتب عن قراها، لذلك قد نُجْمل أحياناً عموميات المنطقة ونفصل ميزات القرية، فلا يستغرب القارئ الاختصار أحياناً والإطناب أحياناً..

- بما أن كل كتاب من كتب القرى اختصّ بناحية معينة، فقد أخذنا من مصادر الكتب الأخرى: تصميم البيوت من (باقيات ما بقينا)، الحراث من (الدامون)، وهكذا.. وليس عندي غضاضة في الاستعانة بكل هذه الكتب.. فكل كتاب زهرة في بستان فلسطين، وأريد للكتاب أن يكون زهرة من هذه الزهرات إن شاء الله.

- نذكر أحياناً اسم الشخص ثم نضع بين قوسين اسماً آخر، وما نقصده بالاسم الواقع بين

قوسين وهو الحَمولة التي يُردّ إليها اسمُه كأن نقول: ياسر أحمد علي (حسين)، لأنه من حمولة حسين، سعيد الصالح، اسمه سعيد صالح عبد الهادي (الأسدي)، وموسى المطلق اسمه موسى مطلق إبراهيم (الشيخ محمد)، وهكذا.

وسبب هذا الخلط هو الإحصاء الذي جرى بعد النكبة، حيث اعتمد في بعض الأماكن اسم الأب وليس العائلة. كما أن من تجاوز عمر النكبة من أهل البلد سوف لن يعرف الأسماء إلا هكذا، ولما كان لا بد من نسبتها إلى جذورها اخترنا هذه الطريقة.

ولهذا قصص كثيرة حدثت مع أهالي فلسطين في إحصاءات لبنان، فتجد أخوين ينتميان إلى عائلتين مختلفتين، بل إن صديقاً لي أراد أن يذهب مع عمته إلى الحج كمَحْرم، فلم يصحّ له أن يكون محرماً لها، بسبب اختلاف الأسماء.

- المرور بالبلد من قبل الرحالة أو الجيوش كان صعباً، لذلك قد لا يجد الكاتب لها دوراً في التاريخ، وذلك بسبب موقعها المتحصن على سفح واد، تنتهي الطريق إليها.. فهي لم تكن ممراً لأي قرية أخرى (كما حدث مع الرحالة ناصر خسرو). ويرد البعض سبب ذلك إلى اعتصام بعض المطاريد في سفوح الأودية التي ما لبثت أن تحولت إلى قرى..

- المعيار الذي اخترت به الشخصيات ليس أهميتها، وليس لأسباب ذاتية، فالأسباب الذاتية تتفاوت باختلاف معيار الأهمية عند كل شخص على حدة، أما الأسباب الموضوعية فهي أنني اخترت الشخصيات المتميزة؛ المتميزة بالخير أو الشر، وليس الشخصيات المحبوبة، أو عمداء العائلات.. فلا يعتبنّ أحد عليّ؛ خاصة أنني لم أكتب رأيي فيها، وإذا كتبت رأياً نسبته إلى صاحبه، كما أني لم أختر أي شخصية من حمولتي.

- صحيح أن الكتاب تم تأليفه بعد النكبة، ولكنه لا يتناول إلا ما قبل النكبة، فيما عدا بعض المرويّات التي اضطررنا إلى تكملتها وعدم التوقف قبلها..

- من أين لي بالبخاري ومسلم وابن حجر العسقلاني؟ أو أي عليم بجرح وتعديل الرجال؟ فالرواية الشفوية أمر صعب جداً، وبقدر ما هي صعبة ذاكرة الرجال، فإن ضبط الرواية بعد سماعها أصعب منها، ولعل كبار البلد حين كانوا صغاراً كانوا يرون كل شيء كبيراً، وكبر الكبير معهم عبر الزمن، الأمر الذي يجعل القديم عظيماً مهما كان سيئاً.

فالبعض يفتخر بالطوشة، وأن بلدنا كانت طوشاتها أقوى من طوشات جميع البلدان المجاورة. وغيرهم ما زال يحتفظ بدفين أحقاد الماضي في وزنه للرجال، فتراه تارة يمجد فلاناً ويقول عن آخر كذوباً فيما يعاكسه غيره في الرأي.

ومن طريف ما واجهته أن أحد الشهود، وكان طفلاً في القرية، كان يكلمني عن جده، والكرم

والضيافة و.. و.. ووصفه بأنه كان طويلاً و«جسيماً»، ولما سألت عن جده بعض من كان قد اكتمل نموه (أي شباب القرية قبل ٤٨)، قال إنّه وأفراد عائلته كانوا صغار البنية، وسبب ذلك يعود إلى «البزرة».. فلم أعلق، لا على هذا ولا على ذاك.

وقد عانيت كثيراً من عامل الخيال عند البعض، لدرجة أنني استثنيت كل شهاداتهم، كالذي يحدثك عن تجارته وشجاعته وكرمه.. وغير ذلك.

فأعتذر مقدماً عما يكون قد ورد في الكتاب من مبالغات أو عدم دقة في الرواية، وآمل أن يلتمس القارئ لي العذر في ذلك..

- اعتذر عن عدم ذكر بعض التفاصيل، خاصة تلك التي تعتمد على الذاكرة، لأن ذاكرة الرواة قد تخونهم أو تخذلهم أو تقتصر على مثال واحد.. كسؤال من كانت القابلة أو الخياطة؟ فسيكتفون بذكر امرأة واحدة، وهي التي يتعاملون معها.

- جرت العادة تاريخياً أن يكتب المؤلف مصادره ومراجعه في هامش أو في ذيل الصفحة، وأن يكتب ملاحظاته أيضاً في المكان نفسه، ولكني آثرت أن يقتصر الهامش على المصادر والمراجع والملاحظات الصغيرة إن وُجدت، أما الملاحظات الطويلة ففضلت أن أكتبها في سياق الكلام، لأن هذا النوع من الكتب، وبعد استمزاج الآراء - كمن يروي قصة أو حكاية ويتنكّد من المقاطعة- يفضل أن يكون في سياق واحد لا تنغص على القارئ هوامش يريد الرجوع إليها، خاصة وأن قراء هذا الكتاب من كل الأجيال، وإن كانوا يهتمون بمصداقية البحث العلمي فهم لا يهتمون بأسلوبه.

- صحيح أنني لم أتردد لحظة واحدة في الخوض في غمار هذا الكتاب، ولكنني كنت أعلم أنني لا أُقْدِم على عمل سهل، ليس العمل صعباً من ناحية الأحداث والمعلومات ذلك أنني كنت أتميز عن غيري من أبناء جيلي بمصادر معلومات غزيرة. ولكن الصعوبة كانت من ناحية اختلاف الآراء.. «ونصف الناس أعداء لمن حكم، هذا إن عدل!».

كما آمل ممن يقرأ الكتاب أن لا يتعصب لعائلة، وقد اتبعت ذلك في منهج الكتاب، بل وحتى أن لا يتعصب لقريته. فتخصيص القرية هنا بسبب جغرافي وليس قيمياً أو تعصباً. وآمل أن ينحاز من يقرأ الكتاب إلى فلسطين قبل كل شيء، ذلك أن تجربة القرية في المقاومة تعتبر رائدة في مجالها، وهي تجربة لفلسطين وليست لقرية بعينها. خاصة أن الطابع الجغرافي للقرية كان من العوامل التي جعلها ملتقىً لكل المقاومين الراغبين في القتال من القرى المجاورة المحتلة..

لذلك آمل أن يكون هذا الكتاب حثاً لباقي أهل البلد لإصدار طبعة تتضمن كل الآراء والأحداث والعائلات.. وقد اختصرت ذلك ببيتين من الشعر:

هـذي الصحافُ كتبتُها بالمقتضبْ ولعـلّ غيـري يُسـتفزّ.. فـلا عتبْ
يكفـي بأنـي قـد فتحـت طريقها للأوفيـاء الحالمـين إلـى شَـعَب

- مـن الصعـب علي وأنا الذي ولدت بعد واحد وعشـرين عاماً مـن النكبة أن أحكم على ما أسـمع، كمن كتب عن بلده التي عاش فيها قبل النكبة (قديثا والدامون وكويكات والكابري). وأن أقوم الآن بعد ٥٩ عاماً من النكبة و٧١ عاماً من الثورة الكبرى، بجمع تراث ليس عندي منه سوى ما قرأناه في الكتب وبعض ما سمعناه من أفواه كبار السن.

- حيرة يقع فيها الكاتب بين التوثيق والموسوعية والقيمة العلمية والبحثية. السؤال الأول للتخلـص مـن هـذا الموضوع هو: لمن أكتب هـذا الكتاب؟ للأحياء الباقين، أم للأقـارب، أم للتاريخ والمستقبل؟

- التأريخ القروي صعب، فبعضهم يؤرخ حسب مواسم الزرع وحصاد البيدر، والبعض حسب ولادة أولاده، ولـكل شـخص تأريخـه الخاص.. وتزيـد صعوبةً مهمة الباحث حين يريد التنسـيق بـين الهجـري والميلادي. وكثيرة هي الطرائف التي واجهتها في أحاديثي مع كبار السـن (كتأريخ حدثين ببعضهما دون غيرهما، فإن لم يعرف تاريخ أحدهما ضاع التاريخ، مثل: سنة حريق البلد وسـنة الجمل وسـنة فضل أبو علي). ومن الصعوبات أيضاً تفاوت الروايات وعدم وجود أي شـيء مكتوب عن الأمر.

كمـا أننـي لم أثبـت هنا كل القصص والحكايـات والنوادر التي يرويها أهـل البلد عن تاريخ البلد، إلا إذا كانت ذات فائدة في السياق. وسبب ذلك تجربة حيّة حصلت معي، حيث أنني سمعت إحـدى القصـص أكثر من مـرة، كان أبطال هذه القصص يتغيرون بتغيّر الـراوي. ولم أراع المنهج العلمي في بعض المواضيع تحسّـباً لردة فعل غير متوقعة، كالفصل الذي جمعت فيه ألقاب أهل البلد ثم حذفت هذه الألقاب، وبعض الفقرات المتعلقة بأصول العائلات التي قد تثير حساسـية لدى البعض.

- آثرت أن أنقل الروايات على أن أصوغها أو أعيد صياغتها، لذلك أردها إلى مصادرها.. ولا أتدخل إلا في الصياغة اللغوية.. أما آراؤهم، للأمانة، أنقلها كما هي (كما في مقابلة أبو إسعاف، وكتابة موسى المطلق، والشهادات المتفرقة).

- أردت أن يكون هذا الكتاب جهداً جماعياً لعدد من الكتّاب، وقد اسـتعنت بالأسـتاذ موسـى مطلق (رحمه الله) الذي كتب -قبل وفاته بأشهر- عن معارك احتلال شَعَب واستردادها ونشاط

حاميتها، وبالأخ أحمد الحاج علي الذي أجرى مقابلة مع الفنان بهاء حسون عن والده الشاعر يوسف حسون (حادي فلسطين)، وقدمها مشكوراً لمشروع هذا الكتاب.

- لا يخطرنّ ببال أحد أن تأليف هكذا كتاب هدفه التعصب لبلدة معينة، فلو كنت أعلم أن هذا الخاطر سيأخذ حيزاً من تفكير أهل البلد لما أقدمت عليه، فكلنا أبناء فلسطين وأبناء القرية الفلسطينية، ولن نختلف عن غيرنا من القرى، لذلك قصدت أن أستعين بجهود إخواني ممن ألفوا كتباً عن القرى الفلسطينية نظراً للتشابه الكبير بين هذه القرى، وأحسب أن من سيقرأ هذا الكتاب وكتاب الدامون للأستاذ حسين علي لوباني سيأخذ فكرة عامة عن أوضاع القرى في قضاء عكا، اللهم إلا ما تتميز به كل قرية عن أخواتها. إن ما هدفت إليه من هذا الكتاب هو تجذير الروابط الإنسانية بالأرض (التي هي أم الحياة، وحضن الممات).

ولو علمت أن كتاب شَعَب لن يأتي بجديد في سبيل خدمة القضية الفلسطينية، لما أقدمت عليه. فلسنا بحاجة إلى تكرار أسماء النبات والحيوان والبيئة والطقس وشكل البيوت وعادات الأفراح والأتراح والأمثال والحزازير والألعاب وغيرها. فهذه المعلومات موجودة في معظم الكتب التراثية وقد كررها الكثير من كتب القرى.

أما ما هو الجديد، فالذي تتميز به القرية في ظل هدف الكتاب، هو التأكيد على أحقية أهل الأرض بأرضهم. والمطلوب إبراز أسماء أصحاب الأراضي والبيوت، والمعالم المهمة في القرية ومحيطها، والآثار التاريخية.

ولعل أهم ما أضافه هذا الكتاب هو المشاركة في الجهاد الفلسطيني عامي ١٩٣٦ و١٩٤٨، ودور حامية البلد الذي لم يكن قليلاً، وأثبتّ من خلاله، كما يقول معظم كبار السن في فلسطين، أننا -كفلسطينيين- لم نخض معركة التحامية مباشرة مع العدو إلا وانتصرنا، ولكننا قاتلنا بمعارك متفرقة ولم نقاتل في الحرب، وأن من كان بيدهم قرار الحرب هم الذين أضاعوا الأمانة.

- لم أعتمد في الكنية قواعد النحو العربي، و(أبو إسعاف) يبقى (أبو) ولو رُفع أو نُصب أو كُسر.

- أخيراً يهمني هنا أن أدعو، وأن آمل من كل من قرأ هذا الكتاب وكان لديه ما يضيفه أن يتصل بي لزيادته في الطبعة المقبلة إن شاء الله، وأن لا يتخذ موقفاً سلبياً منه.

ويمكن الاتصال بنا على رقم الهاتف الخلوي التالي: ٠٠٩٦١-٣-٥١٠٩٠٦

أو المراسلة على العنوان التالي: yassir69@hotmail.com

وآمل أن يتجاوب جميع الراغبين في هذا الأمر.

الباب الأول
التاريخ والحضارة

الفصل الأول
مدينة عكا وقضاؤها

قبل الدخول بالحديث عن قرية شَعَب كان لا بد من دراسة عامة للقضاء والقرى المحيطة به، ذلك أن القرية لا يمكن أن تنسلخ عن بيئة اجتماعية ارتبطت بها منذ فجر التأسيس.

مع العلم أن موقع قرية شَعَب بالنسبة للقضاء لم يكن على قدر من الأهمية التجارية الاقتصادية، أو التاريخية، إذ لم يذكر اسم القرية في كتب التاريخ رغم أنها وجدت في ساحة إحدى أهم الحروب الصليبية حينها. ذلك أن القرية لم تكن على ممرّ طرق بين مدينتين كبيرتين، أو طريقاً عاماً، وليست موقعاً استراتيجياً يحافظ عليه المتحاربون، بل ربما كانت بحكم الساقطة عسكرياً في أي حصار (وهذا يدلل على القدرة والصبر والمعاناة التي لاقاها مقاتلو حامية شَعَب في تحرير القرى المجاورة أو في الدفاع عنها). علما أنها كانت على مسافة ليست بعيدة عن طريق عكا - صفد.

إلا أن موقع القرية المتضح من الأبحاث، يقع بين جبال تحيطها من ثلاث جهات، الأمر الذي يجعل طريقها خاصة بها وتنتهي فيها.. أي أنها لم تكن ممراً لأحد، مما يعني أنها كانت مأوى للثوار أو الفارين أحياناً. وهذا ما جعل ناصر خسرو مثلاً يذكر القرى القريبة جداً من شَعَب (مثل البروة والدامون في الطريق إلى إعبلين) حيث مر بها في طريق رحلته دون أن يضطر إلى المرور في شَعَب.

ومما يجدر ذكره أن أقرب طريق عام إلى شَعَب هي الطريق التي تصل عكا بصفد وتمر في البروة، ومجد الكروم، والبعنة، ونحف، والرامية، وساجور، والرامة، وميرون، وعين الزيتون، إلى

صفد. ويبلغ طول هذه الطريق ٥٢ كلم[١].

وقد لاحظ أحد الفطناء أن هذه الطريق سلطانية (شُقّت في العهد العثماني نسبة إلى السلطان)، وتساءل: إذاً ما الطريق التي كانت مستخدمة قبلها؟ هي -حكماً- إما طريق طويلة جداً للناس العاديين، وإما طريق مختصرة يتنكّبها خبراء الطرق من التجار، وتُفضّلها الجيوش نظراً لقصرها الذي أرشد الدولة العثمانية إلى شقها.

ورأى أنه لا يعقل أن تمر الجيوش، التي يلزمها التخفي أحياناً، على رؤوس الجبال، ولا بد لها أن تمر في أراض ميسرة ومبسطة وسهلة، وهذه الأراضي غالباً ما تكون الأودية، خاصة إذا انبسطت صيفاً بتأثير السيول ومساقط المياه شتاء. وهذا الوادي هو وادي الحلزون المحاذي لشعب (ويسمى وادي شَعَب في المنطقة التي يمر فيها قربها). ولو اتخذنا هذا الافتراض جدياً، فإننا سنُحيل خط سير الجيوش التي جاءت إلى عكا ورحلت عنها باتجاه الداخل الفلسطيني، سنحيلها إلى هذا الطريق، ومنها جيوش صلاح الدين.. ولكن هذا يبقى افتراضاً لا تؤكده المصادر.

وهذا الافتراض أكده لي الأستاذ علي الخالد[٢] الذي قال إن تجار عكا القدامى كانوا ينتقلون عبر شَعَب إلى الداخل الفلسطيني، وأن بعض أهل شَعَب اشتغلوا بالتجارة بين عكا والداخل وصولاً إلى حوران، التي كانوا يجلبون منها القمح.

مدينة عكا

ومن الكتاب الشهير الجامع الوافي لمعظم المصادر «بلادنا فلسطين» نقتطف باقات من تاريخ وإحداثيات عكا بعد الاختصار والتصرف بما اقتضته الضرورة، مع نصيحتنا للقارئ من أجل مزيد من المعلومات أن يرجع إلى ذلك الكتاب القيم، وذلك بين الصفحات (١٥٥-٤٥٠) من الجزء السابع - القسم الثاني، حسب الطبعة الأولى لسنة ١٩٧٤.

تقع مدينة عكا على خط عرض ٣٢°٥٥َ شمالاً، وعلى خط طول ٣٥°٠٤َ شرقاً. وهي مدينة من أقدم مدن العالم. أقامها العرب الفينيقيون الذين استقروا فيها منذ فجر تاريخها المدون.

دعاها بُناتُها (عكو) وهي كلمة كنعانية معناها (رمل حار). و(عكّ) أيضاً قبيلة عربية اختلف في نسبتها. وقد دعيت بأسماء مختلفة في أدوارها التاريخية التي مرت عليها. ودعاها المصريون القدماء (عكا) وذكرت في العهد القديم (عكو - Accho)، وفي العهد الجديد (AKE)، واسمها اليوناني بتولمايس Ptolmais، ونسب الرومان هذا الاسم إلى الإمبراطور كلوديوس.. ودعاها الإفرنج في العصور الوسطى والحروب بعدة أسماء: Accon وAcre وAcri وSaint Jean d•Acre، نسبة إلى فرسان مار يوحنا.

وفي ١٨-٥-١٩٤٨ زالت بالاحتلال الصهيوني عن عكا صبغتها العربية الإسلامية. ولكن اليهود بسبب اقتباسهم الكثير من الحضارة الكنعانية، أعادوا لها الاسم الكنعاني القديم: عكو أو Akko.

تاريخ عكا

ذكرت عكا لأول مرة في التاريخ بين المدن التي افتتحها تحتمس الثالث المصري على انتصار مجدو ١٤٧٩ق.م.، باسم عكا. كما ذكرت في عهود الأشوريين والفينيقيين، وفي الحكم الفارسي كانت مركز الأعمال الحربية لقمبيز عام ٥٢٥ق.م.، وذكرت أيضاً في عهود الاسكندر والبطالسة والسلوقيين. ومن حوادثها في العهد الروماني: زيارة يوليوس قيصر لها عام ٤٧ق.م.، واستيلاء الفرس عليها عام ٤٠ق.م.، واستقبال هيرودوتس للإمبراطور أوكتافيوس فيها، وتم فيها إنشاء أول مدرسة أو مستعمرة رومانية للتدريب على الحروب في المنطقة، كما زارها الحواري بولس ليوم واحد قبل رحلته الأخيرة إلى القدس. وتم في عهد أريان ١١٧-١٣٨ق.م. تعبيد الطريق التي تصل عكا بالجليل عبر صفورية.

في العهد العربي، فتحها جيش عمرو بن العاص ومعه معاوية وأخوه يزيد بن أبي سفيان سنة ١٥هـ. أي ٦٣٦ م.، وأمر معاوية بترميم ما خرب منها، وقاد منها الأسطول الذي ذهب إلى قبرص بعد شتاء سنة ٦٤٨م.، وأمر بإنشاء دار صناعة السفن الحربية فيها..

في الحروب الصليبية، حاصر الفرنج عكا وهم في طريقهم للاستيلاء على بيت المقدس، في أواخر أيار من ١٠٩٩م / ٤٩٢ هـ. ولكنهم رغم سيطرتهم على المنطقة فإن عكا استعصت عليهم حتى عام ١١٠٤م. وشهدت المدينة الكثير من الأحداث وكتب فيها المؤرخون والجغرافيون والرحالة ما تضيق به هذه المساحة.

وقد حررها السلطان صلاح الدين رسمياً في ١٠ تموز ١١٨٧ (أي ما بين معركة حطين وتحرير القدس)، وصلى صلاة الجمعة الأولى في جامعها القديم، وهي أول جمعة أقيمت في الساحل الشامي بعد أن احتله الفرنجة. وقيل إن صلاح الدين أطلق منها أربعة آلاف أسير، وهم من المسلمين.

وقد شهدت عكا معارك كثيرة وشهيرة أثناء الحروب الصليبية، منها معركة نهر النعامين سنة ٥٨٥هـ، وقد بدأ فيها الهجوم على ميمنة الجيش الصلاحي على تل العياضية (وبئره تابع لأراضي مملوكة في قرية شَعَب - المؤلف). ثم معركة النعامين الثانية، التي انتهت باستسلام عكا للمسلمين.

وفي عهد الفرنجة شهدت مملكة عكا عام ٥٩٧هـ. زلزالاً هدم معظم المدن الساحلية.

وشهدت عكا أشرس معارك الكر والفر وأقواها مع القائد الفذ الظاهر بيبرس، الذي لم يترك حكامها يرتاحون من غاراته حتى أنه دخلها أكثر من مرة.

غير أن تحريرها الأخير تم على يد السلطان خليل بن قلاوون الألفي، في أيار من العام ١٢٩١م بعد حصار دام أربعة وأربعين يوماً، وبسقوط عكا سقطت آخر القلاع الصليبية بعد نحو قرنين من الزمن من التواجد في الشرق العربي.

إعادة بنائها

بعد سقوطها الأخير، خربت عكا وانتقل مركز الولاية إلى صفد، وكان مما ذكره ابن بطوطة في رحلاته بعد نصف قرن أنها خراب، وأشار غيره إلى أن عدد سكانها لا يتجاوز الستين يتولون حراستها ويعيشون من طيورها وحريرها. وكان تقدمها العمراني بطيئاً بحيث كانت تضم ثلاثمئة بيت بعد أكثر من قرن على سقوطها، إلى أن انتصر العثمانيون عام ١٥١٦م. على المماليك في معركة مرج دابق.

في عهد العثمانيين عادت الإرساليات الأجنبية إلى عكا ومد الأمير فخر الدين المعني الثاني ولايته إليها ضمن حكم العثمانيين في القرن السابع عشر، ثم استولى عليها ظاهر العمر الزيداني عام ١٧٥٠ حتى مقتله ١٧٨٢. وكان في العام ١٧٧٥ قد تولى أحمد باشا الجزار ولاية صيدا، وأمر بنقل مركز ولايته إلى عكا، وتولاها بعد ظاهر العمر الزيداني بعد أن كان أسيراً فيها في وقت سابق.

ولعل أشهر فترات مدينة عكا وألمعها على المستوى الدولي هي فترة حصار نابليون بونابرت لها، هذا الحصار الذي دام أكثر من شهرين: من ٩ آذار ١٧٩٩م. حتى ٢٠ أيار من السنة نفسها. وقد اشتهرت القصة الموروثة عن نابليون الذي رمى قبعته من فوق الأسوار قائلاً إنه رماها ليقول إن المدينة التي لم يدخلها هو دخلتها قبعته!. كما قيل إنه أطلق من هناك نداء إلى يهود العالم ليتجمعوا في فلسطين من أجل دولتهم المنتظرة..

ثم كانت وفاة أحمد باشا في ١٧ نيسان ١٨٠٤. حيث ورثه سليمان باشا الذي لُقّب بالعادل، وكان من طراز مختلف من الولاة العثمانيين، نهض بعكا مما خلّفه حصار نابليون وركود ما بعد الحرب، فمدّ القنوات وجرّ الماء وبنى المعالم والجنائن وأقام العدل في أرجاء المدينة، حتى توفي عام ١٨١٨م.

وفي عهد خليفته عبد الله باشا ساد الحكم المصري إلى عكا، من عام ١٨٣٢ حتى ١٨٤٠. ومن أهم الحوادث في تلك الفترة الزلزال المدمر الذي شمل المنطقة سنة ١٨٣٧م، وكانت خسائر عكا والجبل وترشيحا ١٤١ قتيلاً، و٥٦٣ بيتاً خرباً.

وعادت عكا إلى العثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى، حين جاءت جيوش الحلفاء، وبدأ تاريخ جديد من الصراع على أرض الديانات والحضارات.

جغرافية قضاء عكا

يحده من الشمال لبنان ومن الغرب البحر الأبيض المتوسط، ومن الشرق صفد وطبرية، ومن الجنوب قضاء الناصرة.

وفي العهد العثماني كان القضاء يضم ٥٨ قرية توزع على ثلاث نواحٍ وهي:

قرى ناحية الساحل: ١٨ قرية. ناحية الشاغور: ١٥ قرية. ناحية شفاعمرو: ٢٥ قرية.

وقبل العام ١٩٤٨ كان قضاء عكا يضم ٥٢ قرية (ما يعني أن الاستعمار البريطاني قد محا

٦ قرى عن الخارطة)، و٨ عشائر، ٩ مستعمرات يهودية.

وفصل كتاب معجم البلدان الفلسطينية في توزيع هذه القرى، واحتسبت شَعَب ضمن ناحية الشاغور[٣].

أما القرى فهي بالترتيب الأبجدي:

أبو سنان، إقرت، أم الفرج، البروة، البصّة، البعنة، البُقَيْعة، الدامون، الرامة، الرويس، الزيب، السميريّة، الشيخ داود، الشيخ دنون، الغابسية، الكابري، المزرعة، المكر، المنشية، المنصورة، المنوات، النهر، بيت جَن، تربيخا، ترشيحا، تمرة، جتّ، جديّدة، جولس، دير الأسد، دير القاسي، دير حنا، سجور، سحماتا، سخنين، شَعَب، عرّابة، عمقا، عين الأسد، فسّوطة، كابول، كسرى، كفر سميع، كفر عنان، كفر ياسيف، كويكات، مجد الكروم، معار، معليا، نحف، يانوح، يركا.

أما العشائر فهي:

الحجيرات، السمنية، السواعد، الصويطات، العرامشة، القليطات، المريسات، وشتيت.

أما القرى التي محيت أثناء الحكم البريطاني فهي:

الصوانة، جعتون، حانوتا، سمح، عين حور، معصوب.

أما المستعمرات اليهودية فهي:

إيلون، حانيتا، رجبا، شافي زيون، عبرون، عين هاميفراس، ما تسوابا، نهاريا، يحيعام.

وفيما يلي أكبر القرى في إحصائية ١-٤-١٩٤٥:

١-ترشيحا والكابري : ٢٤٧ دونماً.

٢-فسوطة ودير القاسي والمنصورة: ٢٣١ دونماً.

٣-شعب : ٢٣١ دونماً.

٤-تمرة : ٢٠٦ دونمات.

٥-سخنين :١٦٩ دونماً.

٦-عرابة : ١٤٠ دونماً.

٧-يركا : ١٤٠ دونماً.

٨-سحماتا :١٣٥ دونماً.

٩-البصة : ١٣٢ دونماً.

١٠-معليا : ١٢٣ دونماً.

أما من حيث عدد السكان في إحصاء ١٩٤٥:

١-ترشيحا : ٣٨٣٠ نسمة.

٢-البصة : ٢٩٥٠ نسمة.

٣-سخنين : ٢٦٠٠ نسمة.
٤-الزيب والمنوات : ١٩١٠ نسمة.
٥-تمرة : ١٨٣٠ نسمة.
٦-عرابة : ١٨٠٠ نسمة.
٧-شعب : ١٧٤٠ نسمة.
٨-الرامة : ١٦٩٠ نسمة.
٩-بيت جن : ١٥٢٠ نسمة.
١٠-البروة : ١٤٦٠ نسمة.

وكان القضاء يضم في مجمل سكانه ٦٨٣٣٠ نسمة يتوزعون كالآتي:

مسلمون : ٤٧٢٩٠ نسمة.
مسيحيون : ١١١٥٠ نسمة.
آخرون (دروز وبهائيون): ٦٩٤٠ نسمة.
يهود : ٢٩٥٠ نسمة أي بنسبة ٤,٣٪ من مجموع السكان.

مناطق عكا الطبيعية

ويشتمل القضاء على منطقتين: الساحل والسهل في غربه، والجبال في شرقه.

ويمتد ساحل بلاد عكا من رأس الناقورة الذي يرتفع ١٠٠ متر عن سطح البحر على الساحل، و٣٩١ متراً على بعد ميلين في الداخل، يمتد لمسافة ٢١ كلم وبخط مستقيم ١٧كلم.

أما السهل فهو الذي يلي الشاطئ ويعرف بسهل عكا، ويمتد من شمالي حيفا وينبسط بين البحر والتلال حتى جنوب لبنان. ومرج عكا هذا شهد الكثير من الحروب الصليبية. ويروي هذا السهل عدد من الأودية والسيول، وهي:

وادي كركرة وهو شتوي يبدأ من تربيخا.. وادي القرن يتألف من واديين في بيت جن والبقيعة، وتقوم هناك قلعة القرن الشهيرة التي استعصت على الجيوش.. وادي الصعاليك وهو واد شتوي.. عيون الكابري التي سحبت مياهها إلى عكا في عهود الباشاوات.. وادي المفشوخ.. وادي مجنونة.. وادي غمية.. نهر النعامين الشهير في التاريخ وتتجمع مياهه من واديي الحلزون وإعبلّين.. نهر المقطع..

وأما الجبال فتقع في شرقي القضاء، وتضم عدداً من المرتفعات كجبل حيدر قرب الرامة، وجبل عروس، وتل الريسي قرب دير القاسي، وتلاع الراهب عند المنصورة، وجبال البقيعة، وجبال نحف، وجبل كمّانا في جنوب الرامة، وجبل جلّون للشمال من شَعَب بينها وبين مجد الكروم. وقرية بيت جن تعتبر أعلى قرى القضاء (٩٥٥م.). وتتخلل المرتفعات سهول البطّوف وعرّابة والرامة والبقيعة ومجد الكروم وسخنين.

الإنتاج

تشتهر قرى القضاء بالمزروعات التالية: الحنطة، الشعير، العدس، الكرسنة، الفول، الحمص، الذرة، السمسم، الزيتون، البطيخ، العنب، التين، اللوز، وفواكه أخرى وخضار.

أما الطيور والحيوانات فكانت: الخيل، البغال، الحمير، الجمال، البقر، الغنم، الماعز، الخنازير (في البصة)، الدجاج، الأوز، الدجاج الرومي.

التعليم في القضاء

ذكر الكتاب السنوي لوزارة المعارف العثمانية لعام ١٣١٩هـ. ١٩٠١م. أن مدرسة واحدة للبنين كانت في كل من القرى الآتية، أي ما مجموعه ١٨ مدرسة: مجد الكروم، الزيب، البصة، الغابسية، يركا، كويكات، عمقا، جديّدة، الدامون، شَعَب، تمرة، معار، سخنين، عرابة، نحف، ديرحنّا، سحماتا، البقيعة، والبروة.

وفي سنة ١٩٣٠-١٩٣١ كان في قرى القضاء ٢٣ مدرسة، وفي عام ١٩٣٧ – ١٩٣٨ بلغ عددها ٣١ مدرسة، منها ٢٧ للبنين. أما مدارس البنات الأربع فكانت في كل من: جولس، كفرياسيف، الرامة، ترشيحا.

وفي عام ١٩٤٢-١٩٤٣ كان عددها ٣٠ مدرسة حيث أغفل الدارسون مدرسة البروة.

نظرة خاطفة على تاريخ عكا

نقتبس مما أوجزه الدباغ في كتابه «بلادنا فلسطين» (ج٧ – ق٢: ص ١٨١) بالتالي:

إن أقدم من سكن بلاد عكا هم الجرجاشيون من العرب الكنعانيين. وذكر بعضهم أنهم أسسوا عكا والكثير من مدنها وقراها، منها: البعنة والزيب والرامة وكابول ويركا، فضلاً عن بلدان وقرى خربت وبقيت آثارها، منها: نعنئيل – خربة يعنين[٤]. وخربة المشيرفة وخربة عبدة وتل ميماس وتل كيسان وتل الكردانة وتل البير الغربي وخربة العمود.

وفي قضاء عكا صنع الكنعانيون الزجاج وصباغ الأرجوان الذي امتد استخراج أصداف الموركس ما بين صيدا وجنوبي جبل الكرمل.

لم يستطع يوشع بن نون القائد العسكري اليهودي حين أغار على البلاد في القرن الثاني عشر ق.م. الاستيلاء على هذا الجزء منها، وبقيت بلاد عكا بعيدة عن اليهود. أما في عهدي النبيين داود وسليمان عليهما السلام، فقد تم بسط السيطرة عليها دون صبغها ديموغرافياً باليهود إلا في وقت متأخر من عهد سليمان.

وعندما سيطر الأشوريون على المنطقة سنة ٧٢٢ق.م. كان يهود عكا ضمن السبي البابلي، وفي عهد السلوقيين في بلاد الشام عادت عكا إلى الإيطوريين العرب. وبقيت عكا ضمن الولاية السورية ولم يقطعها الرومان لهيرودوتس. واستفادت عكا تجارياً من أول طريق معبّد في المنطقة يصل الساحل الشامي بين إنطاكية ورفح، وذلك في عهد نيرون سنة ٥٦م.

وكان للخليفة الأموي معاوية بن أبي سفيان الأثر الكبير في تعزيز مكانة عكا التي اشتهرت في العهد الإسلامي بغابات زيتونها وكرومها وصباغها وقصب السكر، ومصانع السفن الحربية.

وغني عن التفصيل تكرار القول ما جرى في الحروب الصليبية، والفتح العثماني، وهزيمة نابليون على أسوارها. وكيف جار العهد البريطاني الذي امتد ٣٠ سنة (١٩١٨-١٩٤٨).

سقوط قرى عكا[٥]

تم سقوط عكا في يد اليهود في ١٨-٥-١٩٤٨، وبعدها بأيام قليلة سقطت البروة، ثم تابع الأعداء زحفهم إلى شَعَب حيث تمكن سكانها بمساعدة مجاهدي القرى المجاورة كالجديّدة والمكر وكفرياسيف من دحر العدو واسترداد البروة، وتعقبه حتى «تل العياضية» على بعد ٧ كلم من عكا، ولكن الخلافات العربية أعطت الفرصة لليهود ليردوا هجومهم ويتمكنوا من احتلال البروة، وشعب التي هدموا منازلها، ثم الدامون وأخيراً سقطت تمرة. وما لبثت أن سقطت القرى الأخرى كأم الفرج، الكابري، الزيب، البصة، عمقا، ترشيحا (ولنا عودة تفصيلية إلى هذه المعارك).

وعندما سقطت الشجرة والناصرة، استرد العرب عدداً من القرى في ١٧ تموز، وبقيت بأيديهم حتى الهجوم اليهودي الكبير على الجليل في شهر تشرين الثاني، وتم استيلاؤهم النهائي عليها[٦].. وكانت النكبة.

* * *

(١) قسطنطين خمار: موسوعة فلسطين الجغرافية، ص١٧٦، عن مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية في شباط ١٩٦٩.

(٢) مقابلة في منزله في صبرا في ٢٠-٣-٢٠٠٥.

(٣)محمد محمد حسن شرّاب: معجم البلدان الفلسطينية، الدار الأهلية، ط٢، ١٩٩٦، عمان، الأردن.

(٤) عند مدخل قرية شَعَب، وهي ملكهم، ويسميها أهل شَعَب تلة يعنين حيث يتملك كل منهم قطعة فيها، وهي بمثابة مصيف لأهل القرية

(٥)عارف العارف: كتاب النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود (١٩٤٧-١٩٥٢)، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، الجزء الثاني، صفحات ٤٢٥-٤٢٦-٤٢٧.

(٦) يروي مقاتلو حامية شَعَب أن معارك الكرّ والفرّ على القرية لم تنتهِ إلا في يوم سقوط الجليل ٢٩-١١-١٩٤٨. كما أنهم استمروا يترددون إلى القرية بين الحين والآخر أفراداً بالتسلل من لبنان، راجع الباب الثالث من الكتاب عن حامية شَعَب والملاحق.

الفصل الثاني
شَعَب ومعالمها

مقدمة

تعالوا بنا[1]

كانت شَعَب قرية يسكنها نحو ١٧٠٠ نسمة، وتقع في منطقة عكا، وهي مشهورة بزيتونها. وقد أعطاني ز.ك.، الذي يمارس مهنة التعليم حالياً في لبنان ويدرس التاريخ في أوقات فراغه، وصفاً لقريته يستحق أن يقتطف بأكمله بوصفه سجلاً تاريخياً موثوقاً فيه:

«ولدت في مدينة عكا سنة ١٩٣٦ بعد أن كان والدي قد ترك شَعَب للعمل في مصنع للكبريت. وكان عادة يبيع السمنة والزيت الذي يجلبه معه من القرية. وكان من تقاليد القرية أنه عندما يولد الطفل الأول، وخاصة إذا كان صبياً، أن يأخذه جداه للعيش معهما. كنت أحب القرية وأكره أن أعود إلى المدينة. كانوا يقولون لي على سبيل المداعبة أنهم سوف يعيدونني إلى عكا، فكنت أصرخ وأسبّ وأشتم لأعبر عن غضبي..

في القرية، كنت عادة آخذ الحصان ليشرب، وأستمع إلى الناس وهم يتحدثون لأن منزل جدي كان في وسط القرية، وكان هذا المنزل هو «المهوى» أي المكان الذي يجتمع فيه الناس. وبالقرب منه خان ينزل المسافرون فيه. وأذكر أنهم كانوا يأتون من لبنان وسوريا، وخاصة من برجا (قرية لبنانية في إقليم الخروب)، ومعهم بضائع ليبيعوها في القرى. وكانوا أحياناً ينزلون ضيوفاً في منزل جدي.. وأذكر أن منزل جدي كان أحد أوسع منازل القرية: أقواس عالية ومكان

لتخزين الزيت والفواكه المجففة، وموقد نجتمع حوله في الليل لنستمع إلى الحكايات التي ترويها عمتي وجدي وجدتي، وغرفة واسعة منفصلة للضيوف؛ اسمها «المضافة» يقابلها مكان الحيوانات، من بقر وخيول، ولعلف الحيوانات والتبن. وكان للمنزل مدخل واحد فقط له باب يقفل بقضبان حديدية ضخمة..

وكان خارج المنزل منطقة مرتفعة يجتمعون عليها ليناقشوا الأخبار، وأذكر أن أحد الرجال الكبار كان يقرأ، بصوت عال، الجريدة التي كانت تصل القرية بعد الظهر. وكان هنالك باص يذهب إلى المدينة ثلاث مرات في اليوم، أو كان الناس يذهبون على ظهور الخيل، ويحملون معهم، عادة، إلى عكا وحيفا منتجات القرية من بيض ودجاج وتين وعنب.

كان من عادة أهل القرية أن يحتفلوا معاً بالمناسبات السعيدة، كالأعراس مثلاً حين كان كل الناس يجتمعون ويغنون العتابا والميجانا ويرقصون الدبكة. وكانوا يعملون «السحجة»، وهي الاحتفال الذي يأخذون فيه العريس ويطوفون به القرية ثم يأخذونه إلى البيدر ثم إلى بيته، العريس فوق الحصان والرجال يمشون وراءه وهم يرددون الأغاني. وبعد ذلك يحضرون العروس على ظهر حصان إلى منزل العريس، والنساء من خلفها يرددن الأغاني. وإذا كانت عائلة العريس غنية، تقام الأفراح طيلة أربعين يوماً بعد الخطوبة. وفي اليوم الأربعين، كانوا يذبحون الذبائح ويدعون أهل القرية إلى العشاء.

كان منزل كبير «الحَمولة» المكان الذي يجتمع فيه أفرادها، وخاصة في أوقات الأعياد الرسمية. وكان عليه أن يكون مستعداً لأن يذبح عدة أغنام وأن يدعو كل فرد من أفراد العائلة إلى الأكل. كان جدي لا يقبل أن يغيب أحد من العائلة. وكانوا عادة عندما يجتمعون، خاصة في ليالي الشتاء، يعدون المأكولات الخاصة: «قرصة» مع سمنة وسكر، «زلابية»، «بسيسة»، «معكرونة»، «قراقيش» (ملاتيت ولزقة)، وغير ذلك الكثير. وكانت هذه المأكولات تتألف من أشياء بسيطة: طحين، زيت، سكر. ولكنهم كانوا يزينونها وكأنها أعمال فنية. وكان جدي يقوم بنفسه بتقطيعها بواسطة سكين تشذيب الأشجار التي كان يحملها في حزامه الجلدي، مثلما كان يفعل جميع الفلاحين.

وكانوا يحبون أكلة أخرى هي «المسخن»، المصنوع من الخبز المغطى بالزيت والبصل والدجاج والبهارات المطبوخ في فرن خاص مصنوع من الطين المجفف، يسمى «طابون». وكان «المسخن» يعتبر أحسن هدية يمكن أن يرسلها المرء إلى أهل القرية الذين كانوا يعيشون في المدينة لأنهم لم يكونوا يستطيعون عمله هناك.

كل واحد من القرية كان يزرع الخضروات التي يحتاجها: الفاصولياء والبندورة والبامية تحت أشجار الزيتون أو في المساحات غير المشجرة. لم يكونوا يبيعون الخضروات أبداً، بل كانوا يهدونها إلى الأقارب أو الجيران الذين ليس لهم أرض. كما كانوا يزرعون التين والبطيخ والسمسم ويصنعون «الفريكة»، وكانت جميع هذه الأشياء تذهب هدايا، ولم تكن تباع أبداً..

كان أهالي القرية يذهبون في الوقت نفسه لقطاف الزيتون، وذلك بناء على أمر من المختار.

وكان يجب على جميع الذين يملكون أراضي فيها زيتون أن يذهبوا، وكان كل من لا يذهب يعاقب من قبل المختار أو المجلس الاختياري الذي يتألف من ممثلين عن جميع العائلات، يساعدون في تدبير شؤون القرية. وكان هناك مختاران اثنان، أحدهما من الحارة الغربية والثاني من الحارة الشرقية.

كانت القرية عادة تختار المختار، ويعيّنه القائم مقام رسمياً. وكان مركز المختار يعتبر مركزاً قيادياً، ولكن الذين جربوه وجدوه مكلفاً. أذكر أن أحد أعمامي كان مختاراً وأن ابنه رفض وراثة المركز بناء على نصيحة والده، فقد كان المختار يستضيف الزوار الرسميين، وكان ذلك يشكل عبئاً مالياً ثقيلاً وإن ساعدته حمولته في تغطية المصاريف. كما أن أي غريب يمر في القرية يحل ضيفاً على المختار، أو على أي شخص عنده «مضافة». كانت المضافة غرفة واسعة، والفرشات ممدودة فيها دائماً، وفيها موقد فحم عليه أباريق القهوة التي يجب أن تكون ساخنة باستمرار، وذلك لكي يجد الضيف القهوة جاهزة في أي وقت يصل، فيقول إن هذه المضافة «حية» وأن صاحبها ليس فقيراً إلى درجة أنه ينتظر أن يصل الضيف فيعدّ القهوة. كان يوجد عادة أكثر من مضافة في كل حمولة، وذلك ليس بسبب المشاجرات ولكن بداعي الافتخار، لكي يرى الناس أن بيوتهم مفتوحة دائماً للضيوف.

أكبر المحاصيل في قريتنا كان الزيتون الذي كانت تنتج منه كميات كبيرة. أذكر أنه كانت هنالك ثلاث معاصر للزيتون وأن التفل (النفايات التي تترسب بعد عصر الزيتون – جفت)، كان يسيل في قنوات سوداء عندما تعمل المعاصر، ويصل حتى عكا، والبحر (عبر وادي الحلزون). كان الزيتون يوضع في أكوام عالية في مضافة جدي، وكانوا يأخذونه إلى المعصرة يطحنونه برحى حجرية. كان أهالي القرية جميعاً يشاركون في قطاف الزيتون، وكانوا يضطرون إلى استخدام نساء لمعاونتهم. كانت هؤلاء النساء يأتين عادة من جويّا وبنت جبيل في لبنان. وكنّ يأخذْنَ زيتوناً بدل أجورهن ليبعْنَه أو لعصره زيتاً.

كان السمسم هو المحصول الثاني المهم: يحصد ويوضع على البيدر على شكل دوائر كبيرة حتى يجف، فيضرب حتى تنزل منه الحبوب التي توضع في أكياس وتباع إلى تجار عكا وحيفا. أما المنتجات الأخرى فكانت القمح والذرة.

أما بالنسبة للمدارس، فكان هناك مدرسة القرآن حيث يقوم شيخ متعلم بتعليم أمور الدين. كان الصبيان وحدهم يذهبون إلى المدرسة. وكان أهالي القرية عادة يرفضون تعليم البنات خوفاً من الفضائح. وكانت هناك أيضاً مدرسة رسمية فيها من الصف الأول حتى السابع الابتدائي، يأتيها الصبيان عادة من القرى المجاورة مثل معار والدامون وكابول وتمرة (يحتاج إلى الدقة، فقد كان في بعضها مدارس) ليتعلموا فيها العربية والإنكليزية والعلوم والدين والتاريخ والزراعة. وبعد انتهاء المرحلة الابتدائية، كان على الصبيان أن يذهبوا إلى عكا أو صفد لمتابعة تعليمهم.

كانت إحدى الوظائف المتاحة للقرويين هي العمل مع الحكومة في سلك الشرطة. وقد

عمل في هذه الوظيفة العديد من القرويين، ووصل بعضهم إلى مراكز عالية فعلاً. وكانت أشبه ما تكون بوظيفة وراثية، فعندما كان الوالد شرطياً كان أبناؤه يصيرون شرطيين من بعده.

أذكر الأحاديث التي كانت تدور حول العلاقات بين العرب واليهود. كان والدي كثيراً ما يتحدث عن الزمن الذي كان قبل أن توجد السيارات، عندما كان عنده جمال تنقل منتجات القرية إلى حيفا وصفد وطبريا وحتى إلى حلب أحياناً. كان يعرف بعض اليهود في طبريا وكان يبيعهم البضائع. ويتحدث معهم، وكان اليهود يقولون له «سوف نصير حكام هذه البلاد». وكان جدي يغضب ويشتمهم ويصرخ فيهم: «سوف نضربكم بالعصي والحجارة يا أولاد الميتة».

أذكر كيف أن جدي حمل عصاه خلال حرب ١٩٤٨ ودعا شباب القرية للهجوم على اليهود قائلاً: «خلينا نخلص على أولاد الميّتة هؤلاء»، كان يعتقد أن اليهود لا يستطيعون مواجهة العرب، لأنه ما يزال يفكر بعقلية قتال رجل لرجل، وليس بعقلية العصر الحديث حيث أفضل الأسلحة هي التي تؤمن الانتصار في الحرب. كان معظم أهل القرية يفكرون مثل جدي، ويحاولون بشتى الوسائل الممكنة. كثير منهم باع بقرة أو حصاناً ليشتري بندقية. وكانوا يرسلون البعثات إلى سوريا ولبنان لشراء البنادق، خاصة البنادق الألمانية القديمة التي كانت تكلف ما بين ٤٠ و١٠٠ جنيه فلسطيني (الجنيه كان يعادل جنيهاً استرلينياً) وهو مبلغ كبير بالنسبة للفلاح الفقير..».

إن هذا الوصف يكشف عن مدى حلاوة العشرة في الحياة الفلاحية الفلسطينية، وعن أهمية تلك الاحتفالات التي كانت تفعم كافة المناسبات المهمة بالفرح – وذلك على نقيض الكدح المعاش يومياً وتبدو هذه الاحتفالات من وجهة النظر الاقتصادية مدعاة للتبذير- إذ غالباً ما تقع العائلات تحت وطأة دين ثقيل لتتمكن من تغطية نفقات الولائم التي ترافق زواج الأبناء وتستمر أسبوعاً..

وقد حدثني ز.ك.، الذي كان جده يريد الهجوم على اليهود بعصاه، عندما لحق بعائلته بعد سقوط شَعَب:

«عندما غادرنا القرية، أخذ اليهود جدي وأخرجوه إلى الأردن مع اثنين من أبنائه. وقد مات عمّان لي آخران على الطريق بالقرب من جنين ولكن جدي البالغ من العمر يومئذ نحو ١١٠ سنوات تابع طريقه إلى حلب حيث كان له معارف مكث عندهم بعض الوقت. وبعد ذلك انضم إلينا في (مخيم) بعلبك. وكان طقس بعلبك شديد البرودة بالنسبة لرجل طاعن في السن كجدي فعدنا إلى صور. وهناك قرر أن يعود إلى فلسطين. حاول والدي أن يقنعه أنه كبير السن وأنه لن يستطيع الوصول. كان ذلك سنة ١٩٥٠. ولكنه أصر على الذهاب، دون أن يخبر أحداً، اشترى حماراً واستأجر دليلاً وعاد إلى فلسطين ووصل قريتنا. وعاش هناك عيشة صعبة للغاية لأنهم منعوه من البقاء مما اضطره إلى الاختباء في الحقول أثناء النهار. كانت جدتي في مجد الكروم ولكنها لم تستطع الوصول إليه. وبعد عدة محاولات استطاعت أن تصل إليه فوجدته مريضاً وفاقد البصر. ومات بعد أربع أو خمس سنوات».

هـذه باختصـار قصـة الحياة في شَـعَب كما وردت في كتـاب روز ماري صايـغ.. فهلمّ بنا إلى التفاصيل.

اسم القرية

شَـعَب بالفتـح. قد تكون عربية من «شـعب الشـيء» بمعنـى جمعه. فرقه. أصلحه. أفسـده (ضد). وقد تكون تحريف «Saab» القرية التي كانت تعرف بهذا الاسـم أيام الرومان وتقوم عليها شَـعَب الحاليـة. أو من شَـعْب بسـكون العـين وهو بطن من «همـدان» نزلوا هذه الجهـات فخلدوا اسمهم في هذا الموقع[٢].

ولـم يردْ اسـم القرية فـي معجم البلدان لياقـوت الحموي، ولكنه فصّل في أصل التسـمية بسبب وجود مناطق أخرى في اليمن وغيرها بهذا الاسم.

شِـعْبٌ: بكسـر أوله، وهو الطريق في الجبل، وقال الجوهر بالكسـر والضم الشِعب والشُعب، والجمع الشِعاب.

وقال أبو منصور: ما انفرج بين جبلين فهو شـعب، وقال أبو عبيد السـكوني: شَـعب، بالفتح والتسكين، جبل باليمن، من كان من أهله بالكوفة يقال لهم شَعبيون، ومن كان بالشام يقال لهم الشعبانيون[٣].

أما القاموس المحيط، ففسر الاسم بما يلي:

الشَّـعْبُ: الجمـع، والتفريق، والإصلاح، والإفسـاد، والصـدع، والقبيلة العظيمـة، والجبل، وموصل قبائل الرأس، والبُعد، والبعيد، وبطن من همدان.

الشِّـعب بالكسـر: الطريق في الجبل، ومسيل الماء في بطن أرض، أو ما انفرج بين الجبلين، وسمة للإبل، وهو مشعوب.

والفعل شَـعَب: ظهر، و___ البعيرُ: اهتضم الشـجر من أعلاه، و___ فلاناً: شـغله، و___ رسولاً إليه: أرسله، و___ اللجامُ الفرسَ: كفّه عن جهة قصده وصرفه، و___ إليهم: نزع، وفارق صاحبه.

من هنا نقول إنه إذا لم يكن الاسم رومانياً أو قبيلة من همدان، فأرجح المعاني العربية هي مـا اتصـل بمكان أو جماعة. ولا نرجـح القبيلة العظيمة أو الجبل، فهي الطريق في الجبل، أو ما انفـرج بـين جبلين. وهذا ما يسـتنتج من كلام كبار السـن، إذ ليس في شَـعَب عائلة واحدة توحي باسم البلدة.

ومما ورد في التراث أن الخَلّة هي قطعة أرض سهلية واسعة ومشجرة تقع في منخفض بين جبلين أو تلّتين. والشعب هو سفح جبل ويقع فوق الخلة لكنه أصغر منها.

ولعـل هـذا هو الأرجح، خاصة وأن شَـعَب لم تكـن طريقاً للقرى الأخـرى، فطريقها ينتهي فيهـا، عنـد بيت الحاج عبد حمزة. والمصادر تشـير إلى أن طرق القرى الأخـرى لم تمر بها، وهذا

ما يفسر عدم مرور الرحالة والمؤرخين بها، كما في رحلة ناصر خسرو المشار إليها سابقاً. كما وتحيطها الجبال من الجهات الثلاث.

في الفقرة الأولى من كتاب شَعَب لموسى مطلق إبراهيم يصف القرية فيقول:

«شعب، قرية جليلية، تقع على بعد عشرة أميال إلى الشرق من عكا، في نقطة تنفرج عندها الجبال عن وادي الحلزون انفراجة واسعة ملأتها الأجيال المتعاقبة بغابات الزيتون الخضراء تحف بها من الشمال والجنوب. وهي تتكئ على سفح الجدار الجنوبي لذلك الوادي القادم إليها من الشرق بين جدارين من جبال تتقارب فيما بينها حتى لا تترك متسعاً إلا لمجرى السيل المتوافد من سفوح تلك الجبال..»[٤].

هذا النص يحصر في مضمونه اسم شَعَب بين «نقطة تنفرج عندها الجبال» و«مجرى السيل المتوافد»، ولكن القاسم المشترك بين كل هذه التفسيرات هو الترجيح الأول: ما انفرج بين جبلين.

إلى هذا، أشار الدكتور شكري عراف في كتاب «القرية العربية الفلسطينية» حين قال: «وكان لطوبوغرافية المكان أثر في الأسماء.. ولم ينسَ الساكنون إطلاق صفات بعض المصادر المائية على قراهم كالسيلة وشعب: وهي قرية في الجليل السفلي قرب واد ضيق»[٥].

وقد رجح بعض المؤرخين أن مصدر الاسم هو من اللغة الرومانية، حيث يعتقدون أن شَعَب تقوم على موقع «شاب» «Shab» الرومانية.

ورجح بعضهم أنه لم يكن اسمها شَعَب، «إنما سمّيت كذلك بعد أن فتح المسلمون هذه البلاد، وبعد أن أقام فيها طائفة منهم وهي خراب وعلى أنقاض اليهود أوالنصارى سكان البلدة يومذاك والذين كادت تبيدهم الحروب الفارسية والبيزنطية. وعندما سكنها العرب المسلمون دعوها باسم شَعَب لوقوعها في منخفض وبين جبلين، وكل مكان مثل هذا يسمى عند العرب شَعَب، وتؤيد خراب شَعَب «الوقائع الفلسطينية» ص ١٦٠٩، فذكرت بعض آثارها ثم قالت: بها حجارة منحوتة استعملت مرة ثانية بالبلدة»[٦].

ونرجح أن خراب القرية كان في العام ٥٩٧م بسبب الزلزال الذي ضرب ساحل فلسطين فدمّر معظم المدن والقرى فيها.. حيث كان الكنعانيون العرب قد بنوا عكا والكثير من القرى المحيطة بها.. غير أننا للأسف لم نجد في التاريخ ما يدلنا على إقامة الكنعانيين في شَعَب. اللهم إلا الآثار التي تركوها في «يعنين» و«البزوعة».

«من الكنعانيين الذين أقاموا بشَعَب كما دلت آثارهم حتى عام ١٥٧٣ لم أجد لها أقل خبر مثبوت يستحق الذكر حتى السنة المذكورة حيث تعاونت مع قرى ساحل عكا وغزوا قرى الجبل»[٧].

فماذا حدث عام ١٥٧٣؟

«.. هكذا خرست الأصوات عن سحماتا حتى ٢٦ ربيع الثاني ٩٨١هـ. الموافق ٢٠ آب سنة

١٥٧٣م حيث جمع ابن شهاب والزعيم المقدم منصور ابن فريخ من كبار الإقطاعيين في لبنان حوالي ٣٠٠٠ فارس من أتباعه، وتحالفوا مع مشايخ قرى ساحل عكا وهي: كفر ياسيف وأبو سنان وجولس وشفاعمرو وشعب ومجد الكروم وغيرها، وبلغ عدد القوتين حوالي ٦٠٠٠ فارس، وتقدمت هذه الجموع وغزت ترشيحا وسحماتا والبقيعة وبيت جن والرامة والجرمق وميرون وحرفيش ونهبوها.. منصور بن فريخ هو من راشيا الوادي في لبنان الأوسط، وهو جد الأمير بشير الشهابي الأول. وقد توفي منصور نحو سنة ١٥٩٧..»[٨].

الخرائب والآثار

المعالم المحيطة

من المواقع المجاورة لقرية شَعَب حسب كتاب «بلادنا فلسطين».

خربة البَزُوعة (بزعويه): ويعرفها أهل القرية بالبازوعية، غربي القرية. بها «بقايا جدران، أساسات، معصرة زيتون، صخور منحوتة، مغارة، صهاريج». وقد تكون كلمة «البزوعة» من جذر آرامي «بزاع» بمعنى شَقَّ وثقب. ويُجمع أهل القرية أنها كانت مأهولة، غير أن أمراً ما قديماً منع عنها مقومات الحياة، فهجرها أهلها، وما زالت آثار البيوت فيها وتقسيمات الغرف واضحة المعالم.

خربة يعنين: في الشمال الغربي من شَعَب، وعلى بعد نحو ميلين للشمال من كابول، على حافة سهل عكا، لعل بلدة «نعثيئيل» الكنعانية – العربية كانت تقوم على بقعة هذه الخربة التي تحتوي على «أساسات جدران على تل قسم منه مكون من الأنقاض، مدافن، بئر». ويسميها أهل البلد «تلة يعنين».

هذا ما كتبه الأستاذ مصطفى الدباغ في موسوعته «بلادنا فلسطين» عن خربة يعنين.

ويرد وصف خربة يعنين في موسوعة فلسطين الجغرافية كالتالي[٩]:

تقع إلى الشمال الغربي من قرية شَعَب (الواقعة في الجليل الأدنى في قضاء عكا)، عند خط عرض ١٣َ ٣٢ْ وخط طول ١٣َ ٣٥ْ. وكانت تقوم مكانها بلدة (نيل) الكنعانية، وبها أساسات أبنية ومدافن وبئر.

ومما سمعته في إحدى الشهادات[١٠] أنه كان لأهل القرية أراض في خربة يعنين، وبسبب وجود البلد على سفح جبل، ويقابلها جبل آخر ولا تعلو عن سطح البحر أكثر من مائة متر، فإن الصيف فيها كان صعباً، ما يدفع أهل القرية إلى «التصييف» في خربة يعنين، وهم يسمونها تلة يعنين. وكانوا يقيمون فيها أكواخاً من القصب، أشبه بالعرزال المعروف في أيامنا.

قلعة الشيخ: وتقع في الجبل المقابل لقرية شَعَب ويفصل بينها وبين القرية وادي الحلزون (راجع ملحق الصور)، وهي عبارة عن غرف كهفية محفورة في الجبل، يظن بعض أهل القرية

أنها أنشئت في العهد الصليبي، وأنها كانت مقراً للجنود الذين كانوا يحمون طرق الجيوش.

كما أشرنا سابقاً، إن أحد المدققين في تاريخ شَعَب أشار إلى أن الطريق السلطاني (المعبّد) لم يشق إلا في العهد العثماني، مما يعني أن طريق الجيوش المتجهة من عكا إلى صفد كان يمرّ في الوادي، وليس على رؤوس الجبال، وهذا الوادي هو وادي الحلزون، ولما كان من الضروري إنشاء مركز حماية دائم لطريق الجيوش، أنشأ القائمون -كما يُظن- على الأمر هذه القلعة.

إلا أن بعض القصص (الأساطير) تحكي حول هذه القلعة حكايات، لا داعي لذكرها، ولكن ما يلفت الانتباه وما لا بد من الإشارة إليه، لأنه قد يكون هو السبب، أن القلعة مبنية على نبع ماء غزير يسقي مساحات واسعة. وتستخدمه الآن السلطات الصهيونية.

بيوت ومنازل شَعَب

سوف يتوقع القارئ أن هذا الفصل سيتضمن أشكال البيوت وأقسامها والأجزاء التفصيلية، ولكن هذا الموضوع تناوله كل كتاب من هذا النوع من الكتب، والمفارقة أن معظم هذه الكتب تتناول قرى الجليل، ذات البيئة والعادات والتقاليد المتطابقة، فما الذي سيتغير بينها؟

أود أولاً أن أسجل التغيير بالمنهج الذي سيتناول هذه الكتب، فلماذا يكرر مؤلفوها بعضهم؟ ولماذا لا يستعينون ببعضهم؟ ولماذا لا يحيلون القارئ إلى مزيد من التفاصيل في الكتب الأخرى؟

أقول هنا، إنني لن أزيد على كتابَي (الدامون/لوباني) و(قديثا/دكور) شيئاً ملحوظاً في تعداد الأقسام وأوصافها، لذلك سأذكرها مختصرة. أما رسوم هذه المنازل، فإن المهندس محمد حسن عبد العال في كتابه (الغابسية – الشيخ داود – الشيخ دنون) قد رسمها رسوماً مقطّعة عمودياً وأفقياً، وممسوحة حسب التقنيات الهندسية، وكذلك قام برسمها الدكتور إبراهيم يحيى الشهابي رسوماً يدوية في كتابه (لوبية – شوكة في خاصرة المشروع الصهيوني). لذلك، ولمزيد من التفاصيل، يمكن للقارئ العودة إلى هذه الكتب.

وفيما يلي سوف أختصر أقسام البيت التي ذكرها لوباني كما يلي:

قاع الدار، المصطبة، السدة، القُصّة (حافة تحت الشباك)، الخشة (كوخ صغير)، المنزول (للضيافة)، العقد (للضيافة عند الموسرين)، العلّيّة (غرفة أعلى من الغرف العادية)، حكورة (حديقة صغيرة)، حظيرة (صيرة للماشية)، الطابون (فرن من التبن والفخار)، المقحار (أداة تحريك الخبز بالطابون)[11].

أما دكور فكان موسوعياً[12]، وقسّم البيوت إلى فترتين زمنيتين، وفصل في أقسام البيوت وطريقتها:

البيوت القديمة، وفيها: أساس البيت، الحيطان، الباب والعتبة والعقدة، الشبابيك، الزوايا، الأعمدة، القناطر، السطوح، الإسطبل، المصطبة.

ثم البيوت الحديثة، ويصل إلى ملحقات البيت الداخلية، ومنها: الإسطبل، التبّان (غرفة لتخزين التبن مدى العام)، تجويف الخابية (مكان الخابية في الحائط)، حامل الجرار، الخطافة (تشبه الصنارة التي يستعملها الجزار لتعليق اللحمة)، الخلية (مخزن للحبوب)، الخم (قن الدجاج)، الداخون (المدخنة)، الرتقة، الرف، السدة، الطاقة، الليوك (تجويف في الحائط لوضع الفراش فيه)، المعراش (خشبة في الإسطبل لمبيت الدجاج)، المملحة (يقطينة طويلة مجففة يحفظ الملح فيها)، الموقدة، الوتد، أدوات النور (بصة، بطارية، الصوان، السراج..).

أما الملحقات الخارجية للدار على أنواعها فهي (مسقوفة، نصف مسقوفة، مكشوفة).

أما ما يخص شَعَب تحديداً، فهو التفاصيل الخاصة وأسماء أصحاب البيوت.

ذكرت بعض المراجع أنه كان في شَعَب ٢٨٤ منزلاً في سنة ١٩٣١ يسكنها ١٢٩٧ نفساً، أي بمعدل ٤,٥٦ في البيت الواحد. وهي نسبة ضئيلة نظراً لمتوسط عدد أفراد الأسرة[١٣].

وإحصاؤنا الخاص حول منازل البلدة التي كان يسكنها أهلها عام ١٩٤٨ فقد بلغ ٢٦٠ منزلاً، عدا عن المباني غير المسكونة كالمساجد والكنائس والمقابر والخان والمعاصر والمقامات وغيرها.

في مقابل هذا العدد من المنازل، بلغ في هذا الإحصاء عدد أسر شَعَب ٣٧١ أسرة، أي بمعدل ١,٤٣ أسرة في البيت الواحد. (راجع في باب السكان ضمن فصل الأرض والبشر أسماء أرباب الأسر في البلدة).

تُبيّن النتيجة أن إحصاء عدد المنازل الخاص بالعام ١٩٣١ مبالغ فيه، وإذا كان صائباً فإن أهل البلد لم يبنوا فيما بعد كل البيوت التي دمرها عدوان ١٩٣٦.

كان يسكن في البيت أكثر من عائلة، وفي الحوش أكثر من بيت، وكانت معظم البيوت متلاصقة السطوح، بحيث يستطيع الشخص أن يسير مسافات ضمن البلد على السطوح (وسبب ذلك كما أفاد بعض كبار السن بدأ لتسهيل هروب الشباب أثناء تجنيد السفربرلك). ويمكن الاطلاع على لائحة بالمنازل بحسب أسماء مالكيها في الفصل الثاني من الباب الثاني بعنوان «أسر شعب ومبانيها»[١٤].

المباني غير الآهلة

أما المباني غير الآهلة بالسكان والعائلات دائمة الإقامة في شَعَب فهي الجوامع، الكنائس، المعاصر، المدرسة، والفرن، الخان، المقامات والزوايا. وهي كالتالي:

الجوامع:

جامع الحارة الغربية، وكان يؤذن فيه ويخدمه أبو سعيد صالح عبد الهادي الأسدي.

وجامع الحارة الشرقية، وكان اسمه الجامع الشمالي. ولم يكن قائماً منذ المذبحة التي حدثت فيه ضد آل كعكوش.

رغم أن بعض المصادر تذكر أن المسجد الأول عُمري (أي مما بني إبان الفتح الإسلامي)، وأن الثاني أقامه الزيادنة، إلا أن ناجي حبيب مخول ذكر أنه «أقام بعض الزيادنة بشعب وبنوا بها جامعاً للبلدة، ثم أقيم بعده جامع آخر من قبل فريق من البلدة لأسباب عائلية»[١٥].

و توكد اللوحة المثبتة عند مدخل المسجد أنه بُني سنة ١١٦٢هـ. أي حوالي سنة ١٨٤٤م. (راجع ملحق الصور)

الكنائس:

كان في البلد كنيستان:

الكنيسة الجنوبية: وهي قريبة من جبانة الحارة الشرقية.

وكنيسة الحارة الشرقية.

ونظراً لقلة عدد المسيحيين في البلد، الذين بلغوا في العام ١٩٤٥ فقط ٣٠ شخصاً.. فقد قل استخدام الكنائس، وهجرت الكنيسة الجنوبية وسكن فيها (حسين وعبدالله اللزقة - الأسدي). وكذلك كنيسة الحارة الشرقية، لم تُقم فيها صلوات المسيحيين رغم وجودهم في البلدة..

البابور:

بابور الزيت هو المعصرة، التي أصبح اسمها البابور منذ استخدام الآلات بدل الحصان أو الحمار في عصر الزيت. فكان في البلدة منه اثنان. الأول قرب البيادر بالقرب من منزل رشيد عبد اللطيف، والثاني بالقرب من جامع الحارة الغربية المسمى جامع البلد.

مدرسة البلد:

أسس العثمانيون مدرسة البلد سنة ١٣٠٥ هـ. أي عام ١٨٨٨م. وكانت المدرسة بادئ ذي بدء في بيت (علي القاروط - حسون)، ثم انتقلت إلى مبنى مستقل عند مدخلها الغربي، وهي على يمين (جنوب) الداخل إلى البلد من جهة عكا. وكان أقرب البيوت إليها بيتا أحمد الخطيب ومصطفى السعود.

فرن البلد:

وتحيط بفرن البلد بيوت آل زيتون وشحيبر قريباً من جامع البلد حيث الساحة التي كانت تشهد التجمعات.

الحنّانة[١٦]:

وهي أشبه بالحاووز (في أيامنا)، وهي المكان الذي كان يملأ أهل البلد جرارهم بالماء منه، وكان يضمنها أشخاص في البلد ويتم توزيع الماء[١٧].

خان البلد:

كان مبنى غير مسكون يقيم فيه زوار البلد والبائعون المتجولون، وبعض أصحاب المهن المرتبطة بالمواسم (كقاطفي الزيتون)، وأكثر مَن سكن فيه كان علي حرب (إسكافي من بنت

جبيل)، وعدد من المبيضين وباعة القماش (من برجا – لبنان) وغيرهم.. وهذا المبنى كان مضافة لآل الخطيب، وبالتحديد لأحمد الخطيب.

المقامات والزوايا:

لم تضم البلد زوايا، بل ضمت مقامات، وهي عبارة عن ضريح (مقبب أو مسور أو مبنية عليه غرفة)، ولم تتميز المقامات بشكل موحد بينها أو بمكان خاص لها، فقد تكون في المسجد أو في إحدى الدور. كما لم تكن لكل المقامات طقوس مخصصة تقام أمامها أو لها.

وسبب كثرة المقامات في فلسطين عموماً، وفي الجليل خصوصاً، يعود إلى الحروب الصليبية، فقد كان كلما استشهد قائد من قادة جيش صلاح الدين الأيوبي في هذه الحروب دفن في مكان مخصص وبني عليه، أو ربما بني عليه لاحقاً. وبما أن هذه المنطقة شهدت معارك قوية وكراً وفراً، فقد شهدت سقوط شهداء كثر، ومن هؤلاء القادة من سميت عائلات باسمها (كعائلة أبو الهيجا، نسبة لأحد كبار قادة جيش صلاح الدين). ويقال إن مقام صالح الدين في قرية شَعَب يعود لأحد أقارب السلطان الناصر صلاح الدين. كما كان لبعض المقامات ميزة عن غيرها، في العادات والتقاليد، كإيقاد الشموع والزيارة وغيرها.

ومقامات البلد هي:

١- مقام سيدي أحمد العليمي (ومكانه في جامع البلد الموجود في الحارة الغربية).

٢- مقام الشيخ أحمد الشعراوي (في حواكير آل النجار، وهي مساحة من الوعر في الحارة الغربية، كانت لآل النجار واشتراها آل منصور منهم).

٣- مقام الشيخ حسن (كان في دار مصطفى عبد الحليم من آل حسين).

٤- مقام أبو شامية (كان قرب بيت شاكر اليوسف، ويقال إن اليهود تبنوه فيما بعد مدّعين أن صاحب المقام أحد حاخاماتهم، في محاولة لتثبيت أقدامهم تاريخياً في المنطقة).

٥- مقام صالح الدين (يوجد بالقرب من دار هدهود على طريق الحنانة).

٦- مقام الشيخ شكر (في الحارة الشرقية).

٧- العبهرة: و هي شجرة كان لها قيمة خاصة في البلد، وكان من عادة أهل البلد أن يعلقوا عليها الشرائط الخضراء بالمناسبات، ومنهم من كان يوقد شمعاً أو ينذر نذراً. وكان البعض ممن لم يُرزقْنَ بأولاد (العاقر) أو ممن لم يأتِ نصيبهم بعد (العانس) يعلقون النذور على العبهرة.

٨- بنات العين (يروى أنهن من جنيات المنطقة، ومكانهنّ عند العين الغربية قرب شجرة العبهرة عند مدخل البلد من جهة عكا).

٩- رجال القلعة (قلعة الشيخ المطلة على وادي الحلزون ويفصل الوادي بين البلد والقلعة).

وكان يغنّى في البلد لرجال القلعة وبنات العين عدة أغنيات، الجدّي منها والساخر، كالأغنية التي على لسان العوانس:

يا بنات العين جيناكو زايرات.. مثل الخيل الغايرات..

كل البنات تجوزت.. إلا إحنا بايرات.
وهناك أغنية:
إحنا رجال القلعة وجينا عالعين؟؟..

* * *

(١) روز مـاري صايـغ: الفلاحون الفلسـطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، مؤسسـة الأبحـاث العربية، بيروت ١٩٨٠، ترجمـة خالـد عايـد، الصفحات ١٧-٢٠. هـذا المقطع الذي يعد نظرة عامة للحياة في شَـعَب، يختصر فيها الشاهد ز.ك. معظم هذا الكتاب، ويعرف من خلالها القارئ أي شَعَب خسرنا، وأي حياة فقدنا.

(٢) مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسـطين، الجزء السـابع، القسـم الثاني، في ديار الجليل - جند الأردن، ص ٣٨٢.

(٣) ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، الجزء الثالث، صفحة ٣٤٧-٣٤٨.

(٤) موسى مطلق إبراهيم (الشيخ محمد): كتاب شَعَب – قراءة جديدة في الإنجيل والقرآن، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

(٥) شـكري عـراف: القرية العربية الفلسـطينية: مبنى واسـتعمالات أراض، الطبعة الثانيـة ١٩٨٦، مطبعة أوفست حسن أبو دلّو، بيت صفافا ٥١ القدس، ص١٤١.

(٦) ناجي حبيب مخول: عكا وقراها، الطبعة الأولى (د.ت)، مكتب الأسوار – عكا، الجزء الثاني، ص٢٧.

(٧) ناجي حبيب مخول: عكا وقراها، الطبعة الأولى (د.ت)، مكتب الأسوار – عكا، الجزء الثاني، ص٢٧.

(٨) ناجي حبيب مخول: عكا وقراها، الطبعة الأولى (د.ت)، مكتب الأسوار – عكا، الجزء الثاني، ص١٣٨.

(٩) قسـطنطين خمّار: موسـوعة فلسـطين الجغرافيـة، مركز الأبحـاث، منظمة التحرير الفلسـطينية في شباط ١٩٦٩. ص ١٧٢.

(١٠) مقابلة مع داود حسين (أبو سليمان)، في منزله بمخيم برج البراجنة – بيروت، آذار ٢٠٠٢.

(١١) حسـين علـي لوبانـي: الدامون – قرية فلسـطينية في البال، الطبعة الأولـى، دار العربي، بيروت ١٩٩٩، ص ٦٤-٦٨.

(١٢) محمود دكور: قديثا صفد - بركان الجبل، الطبعة الأولى ٢٠٠١، اللجنة الفلسطينية للثقافة والتراث، ص١٢٢-١٣٩.

(١٣) راجع الفصل الخاص عن السكان.

(١٤) راجع ملحق خريطة البلد.

(١٥) ناجي حبيب مخول: عكا وقراها، الطبعة الأولى (د.ت)، مكتب الأسوار – عكا، الجزء الثاني، ص٢٧.

(١٦) راجع ملحق الصور

(١٧) راجع القسم الخاص بالحرف والمهن.

الباب الثاني
الأرض والبشر

الفصل الأول
الجغرافيا

موقع القرية

تقع قرية شَـعَب في الجنوب الشـرقي من عكا وعلى بُعد نحو ٢٦كلم عنها كما ورد في بعض المراجـع[١]. تعلـو ١٠٠ متر عن سـطح البحـر، وميعار أقرب قريـة لها. مسـاحتها ٢٣١دونماً. وهي بذلك ثالثة قرى القضاء في مساحتها.

تقع قرية شَـعَب على مجرى وادي الحلزون الشـرقي، حيث يبدأ بالاتسـاع عند اقترابه من سهل عكا. كانت قرية في ولاية شاغور عرّابة التابعة لمملكة صفد المملوكية[٢].

إحداثيات القرية

(PGR١٧٣-٢٥٤)

تقع شَعَب على إحداثيات فلسطين بخطي ٢٥٤ شمالاً و١٧٣ شرقاً.

وجاء في كتاب «بلدانية فلسـطين المحتلة»: شَـعَب، قرية عربية. سـكانها (١٠٧٠) نسـمة عام ١٩٦١. في مقاطعة عكا في المقاطعة الشمالية، على بعد ١٠ كلم عن مقطع أحيهود[٣] على طريق عكا-دير حنا. في جوارها أطلال قرية المغار العربية[٤]. (١/٤ ٢٥٥ – ٣/٤ ١٧٢)[٥].

الحدود والتضاريس

من يراجع الخرائط في الملحق سيجد أن شَعَب تقع على سفح جبل، وتحيط بها التلال من الجنوب والغرب والشرق، ويحاذيها وادٍ من الشمال يليه جبل.

والداخل إلى القرية سيلتقي قبل القرية بتلة يعنين، التي بين السيامية (قبل مدخل البلد على شمال الداخل إليها)، والجلمة (على يمين الداخل).

ثم يدخل إليها قرب العين والعبهرة. وإلى الجنوب من طريق يؤدي إلى ضهر العين، وهي فوق مدرسة شَعَب الجديدة، يلي ضهر العين، تلة أخرى اسمها كرم المُقْرَةْ، الذي يمتد من ضهر العين إلى التركيب، أشهر وأعلى تلال القرية، وقد قامت عليه معارك كر وفر في عام النكبة سماها أهل القرية معركة ميعار[٦]، وهو يقع فوق القرية مباشرة على علو ١٥٠ متراً تقريباً، وتقع خلفه قرية ميعار. وقريباً من البيوت تقع تلة صغيرة يقال لها راس سيدي حسن الحسين.

ويلي التركيب، في الجنوب الشرقي تلال القلاع التي تحيط بالبلد بجزء من الجنوب وبكامل شرق البلد، وتصل حتى جبل الزّكّان في الشمال الشرقي لـ شَعَب.

وفي الشمال يلي جبل الزّكّان، خلّة العوابنة، ولكن دبّة هدهود أقرب إلى بيوت القرية من خلة العوابنة، والدبّة عبارة عن مكبّ للردم وما شابه ذلك. وتليها البيادر الشرقية وأحراج الزيتون في البياض وعكاشة وجورة غنطوس، رجوعاً نحو الغرب تقوم جبانة الحارة الغربية، ثم بيادر البلد، وصولاً إلى مدخلها الغربي والوحيد، عند العين باتجاه عكا.

يذكر أن الجهة الشمالية كلها يحدها وادي الحلزون، الذي يسمى أيضاً وادي شَعَب[٧]، الذي يفصل بين شَعَب وجبل القلعة، الذي تقوم عليه قلعة الشيخ.

ومن وادي الحلزون هذا تنشأ القاعدة الشمالية للسلسلة الشمالية (الشاغور)، الذي يفصل بين الجليلين الأعلى والأدنى ويشكل عازلاً مائياً بين الحوضين لنهري المقطع والنعامين. يذكر إبراهيم الدرّ في تفصيله عن روافد نهر النعامين أن وادي الحلزون يشكل أحد روافده، وأن الحلزون «تتجمع مياهه من جبل حيدر ورأس هزوة وسهلي الرامة والبطوف»[٨].

المساحة والأراضي الزراعية

تبلغ مساحة أراضي شَعَب ١٧٩٩١ دونماً منها ١٢١ للطرق والوديان، ولا يملك اليهود فيها أي شيء. غرس الزيتون في (٢٠٤٠) دونماً. ويحيط بأراضي شَعَب، أراضي مجد الكروم والبعنة وسخنين وميعار وكابول والدامون والبروة.

قطع الأرض في شَعَب[٩]

من المعروف أن أراضي شَعَب واسعة نسبياً. وتنقسم أراضيها إلى قسمين، تكاد تكون تلة يعنين هي الفاصل بينهما، والتقسيم كان حسب نوع مزروعاتها وليس تضاريسها ولا مكانها، وإن

كان مكانها محكوم بنوع زراعتها إلى حد ما..

القسم الأول: سهل البلد

وهو «سْليخ» أي من دون شجر، وهو يقع في المناطق البعيدة عن بيوت البلد؛ أي في سهل البلد. ويزرع في الصيفي والشتوي (القمح والشعير والسمسم والذرة والبطيخ..).

وقطع الأرض فيه هي:

- القطعة: واسمها قطعة القتيل، وهي قريبة جداً من عكا، ويحكى أن هذه الأرض لم تكن لشَعَب، إلا أن أحداً لم يعترف للنظام بملكيته لها يوم وجد فيها قتيل، فنسبت زوراً إلى شَعَب، مع أنها بعيدة عنها.
- راس عروس: وهي تلة صغيرة على حدود «البروة» استحكم فيها اليهود أثناء معركة البروة.
- المراميغ.
- المغيّر: وهي أرض مجاورة لقرية «البروة» التي تستخدم مياهها المعروفة ببئر المغيّر.
- خلّة جودي (وعر).
- البرانِس (جنوب الوادي).
- الترابيع (جنوب الوادي أيضاً).
- الجلاجل.
- المُري .
- خلّة عزام (وعر).
- شبِّرْتَة.
- خلّة بكّار (وعر).
- الصيامية (وعر).
- هَتْفتْميم (جنوب الوادي).
- الحدود (جنوب الوادي).
- الغَبّاط (جنوب الوادي).
- الجلمة (وعرة).
- الوْساط.
- يعنين: وهي تلة مزروعة بالتين والصبار وفيها بئر ماء، وتفصل بين أراضي السهل وأراضي الزيتون.

القسم الثاني: الزيتون

وهي الأرض التي تزرع شجراً، وليس بالضرورة أن يكون الشجر زيتوناً فقط، وغالباً ما تكون قريبة من بيوت البلد. وأكثر زرعها الزيتون والتين والصبار. وتبدأ من حيث انتهى السهل، بدءاً من جنوب الطريق العام (درب السلطاني):

- الوِساط.
- الخلالات.
- أبو رباح.
- البازوعية (سفح جبل).
- راس الزتون.
- خلّة درويش.
- جبال الكواع.
- كرم قدورة.
- وعرة الزاوية.
- أرض العين (فيها عين الماء، وأكثر زرعها شجر التين).
- السّرايِد.

أما شمال الطريق العام (درب السلطاني)، فأكثر الأراضي هي من الكروم:

- كرم حمود.
- كرم شحيبر.
- مارِس المشهد.
- تحت العين (تحت الحنانة).
- الميدان.
- الزيَرْ.
- الرُّغَبْ.
- الرُّجمِة.
- كرم حمدِه (أو حمدي).
- البلاطات
- خلّة أبو رمّان.
- المَغَاريق.

أراضي الزيتون:

- زتون أفعى (هكذا تلفظ، وقد تكون قفعة)

- زتون كعكوش.
- عُبيب.
- خلّة العوابنة.
- جبل الزكّان (زراعته عنب وتفاح ورمان..).
- القِلاع.
- التركيب (فوق البلد مباشرة من جهة ميعار).

* * *

(١) غير أن نافذ نزال وروز ماري صايغ يقولان أنها ١٧ كلم يجمع أهل القرية أن المسافة فقط ١٦ كلم، وسألت من زارها مؤخراً فقال إنه راقب عداد السيارة من عكا إلى شَعَب وقال إنها ١٨ كلم، غير أنه -في تقديري- أن المقاييس الحالية اختلفت أو لأنه قاس المسافة من وسط عكا إلى وسط شَعَب.

(٢) شكري عراف: المواقع الجغرافية في فلسطين – الأسماء العربية والتسميات العبرية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى ٢٠٠٤.

(٣) الاسم الصهيوني لأطلال قرية البروة.

(٤) المقصود هنا قرية ميعار، ولكن المصادر الصهيونية نقلتها عنا هكذا وبقي كذلك اسمها، وأخذناه منهم.

(٥) أنيس صايغ: بلدانية فلسطين المحتلة (١٩٤٨-١٩٦٧)، ضمن سلسلة كتب فلسطينية – ٩، مركز الأبحاث – منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٩٦٨.

(٦) راجع القسم الثاني من الكتاب.

(٧) إبراهيم فريد الدرّ: شفاعمرو - فسطاط صلاح الدين، مؤسسة الأبحاث العربية – بيروت، الطبعة الأولى ١٩٨٨، صفحة ٤٢.

(٨) المصدر السابق صفحة ٥٤.

(٩) إعداد الحاج أحمد محمد علي (أبو هاني).

الفصل الثاني
السكان

العوامل المؤثرة في عدد السكان

يفصّل زهير غنايم في العوامل المؤثرة في أعداد سكان ولاية عكا[1]، وسنهتمّ بما قاله غنايم على حالة قرية شَعَب هنا:

أولاً: الزيادة الطبيعية، وقد اعتمدت الإحصاءات في شبه إجماع أن عدد أفراد الأسرة خمسة، وقال بعضهم ستة، وأثبتت بعض الإحصاءات أنها ثمانية.

ثانياً: الأمراض والأوبئة، كطاعون عكا سنة ١٨١١م الذي قضى فيه ١٢٠ شخصاً من المدينة، وانتشاره بقوة سنة ١٨١٣م، وطاعون عكا سنة ١٨٣٠م، وحمى صفد عام ١٨٩٧م، والحمى الصفراوية في قرية البصة، وفي الناصرة سنة ١٨٩١م. والجدري بعكا سنة ١٨٧٧م وتفشّيه فيها سنة ١٩١٣م. والكوليرا التي تفشّت بين أهالي عكا والجنود المصريين، وتفشي الكوليرا في طبريا سنة ١٩٠٢م، ووفاة ٦٤ شخصاً في خمسة أيام.

ثالثاً: الهزات الأرضية، وأشهرها زلزال ١٨٣٧م الذي ضرب لواء عكا وقراه فقتل وجرح ٦٠٠٠ شخص. ودمر بعض القرى تدميراً كلياً مثل الجِشّ وعين الزيتون وطبريا والشجرة والرينة.

رابعاً: التجنيد الإجباري، وهو الذي كانت تفرضه الدولة العثمانية على الناس، وكان يُعفى المُعيل الوحيد للأسرة أو من يدفع ١٠٠٠٠ قرش تقريباً. وفرض أول تجنيد سنة ١٨٦٢م،

وتأثير الخدمة يتميز عن غيره من المؤثرات الأخرى أنه يتناول الذكور حصراً بين المسلمين، وكان المسلمون هم الطائفة الوحيدة التي ظهرت فيها زيادة عدد الإناث على الذكور في إحصائية أوردتها سالنامة ولاية سوريا عام ١٨٨٥م.

خامساً: الهجرة، بعد اكتشاف العالم الجديد، وصعوبة الحياة والرزق في بلاد الشام خاصة في فترة المجاعة، غير أن هجرة المسيحيين من فلسطين كانت أكبر بكثير من هجرة المسلمين إلى العالم الجديد. ويذكر كبار السن أن بعض الشعَبيين هاجر هجرة داخلية إلى المدن، وبعضهم هاجر إلى المغرب مثل: الحاج علي، الذي هاجر وهو فتى، وعاد ابنه عبد العزيز إلى شَعَب وأقام فيها، وبعد النكبة نال بعض أبنائه الجنسية المغربية. وهناك من هاجر إلى الولايات المتحدة، مثل محمد وعلي معطي حسين اللذين قيل إن بعض أبنائهما كانوا في عداد قوات البحرية الأمريكية (المارينز) التي حضرت إلى لبنان أثناء ثورة ١٩٥٨، وجرى التعرف عليهم والتعامل معهم، قبل أن يعودوا إلى الغرب مع القوات الأمريكية.

عدد السكان

ذكر الدكتور شكري عراف، أن عدد سكان شَعَب كان ٤٠ نسمة عام ١٥٩٦م[٢].

كان في شَعَب في أواخر العهد العثماني ١٢٤٠ نسمة. وفي عام ١٩٢٢م بلغ عدد قاطنيها ١٢٠٦ نفوس (النقص الحرب الأولى والسفربرلك، الهجرة للغرب)، وفي عام ١٩٣١م ١٢٩٧ نسمة – ٦٦٤ ذ. و٦٣٣ ث.- يوزعون كما يلي:

	ذكور	إناث	المجموع
مسلمون	٦٥٣	٦٢٤	١٢٧٧
مسيحيون	١٠	٩	١٩
يهود	١		١
المجموع	٦٦٤	٦٣٣	١٢٩٧

وفي عام ١٩٤٥ ارتفع العدد إلى ١٧٤٠: ١٧١٠ من المسلمين، و٣٠ من المسيحيين، ولهم جميعاً ٢٨٤ بيتاً[٣]. هاجر معظمهم إلى لبنان أثناء النكبة، وهاجر هجرة داخلية ضمن فلسطين حوالي ٥٧٤ مواطناً عادت غالبيتهم إلى القرية[٤]. عاد معظمهم بعد انتهاء الحكم العسكري عليها، أي بعد عام ١٩٦٧، واستأجروا منازل فيها من الدولة[٥].

أسس العثمانيون مدرسة في شَعَب في عام ١٣٠٥هـ. (أي عام ١٨٨٨)، كما في «بلادنا فلسطين»[٦]. وفي ١٩٤٢ –١٩٤٣ المدرسي كان أعلى صف فيها هو السادس الابتدائي.

مضيفـاً: وشـعب موقع أثري يحتوي على صهاريج، مدافـن بئر منقورة في الصخر، حجارة منحوتة ومستعملة مرة ثانية، في القرية جامع، وهي اليوم تحت حكم الأعداء وبلغ عدد سكانها ١٠٧٠ نسمة في عام ١٩٦١م [٧].

١٨٨٦م. كان عدد السكان ١٤٣٠ نسمة[٨].

أمـا كتـاب القريـة العربيـة الفلسـطينية فيشـير فـي إحصائيـة اسـتقاها مـن المصـادر الصهيونية:

١٩٣١م. كان عدد السكان ١٢٩٧ نسمة.

١٩٤٥م. كان عدد السكان ١٧٤٠ نسمة.

١٩٥٢م. كان عدد السكان ١٢٠٦ نسمة (إحصاء يفتقر للدقة بسبب التشتت).

١٩٨٢م. كان عدد السكان ٢٥٠٠ نسمة[٩].

١٩٩٨م. كان عدد السكان ٤٠٠٠ نسمة[١٠].

ذكرت بعض المراجع – كما أسلفنا - أنه كان في شَعَب ٢٨٤ منزلاً في سنة ١٩٣١ يسكنها ١٢٩٧ نفساً، أي بمعدل ٤,٥٦ في البيت الواحد. وهي نسبة ضئيلة نظراً لمتوسط عدد أفراد الأسرة وأن أكثر من عائلة تسكن في البيت الواحد. لذلك ففي الحساب المنطقي نستنتج أن هذه الإحصائية فـي حدهـا الأدنـى هي لعدد العائلات في يوم عمل، لم يكن النـاس في بيوتهم أو حتى في البلدة نفسها. خاصة وأن تلك الفترة شهدت نزوحاً لأهل البلدة منها إلى المدن القريبة بحثاً عن لقمة العيش، أو ركضاً وراء مهنة أو وظيفة حكومية أو حتى في الجيش الإنجليزي.

غيـر أن أكثـر الأيـام كثافة بالسـكان هي أيـام ما قبل النكبـة، حين عاد النـاس من نزوحهم إلى بيوتهم الأصلية (كانت شَـعَب من آخر البلدان سـقوطاً في المنطقة)، وشهدت البلدة ازدحاماً شـديداً. بـل لقد بدأت البلدة تشـهد الكثافة قبل سـنوات من النكبة، عند بـدء الاضطرابات مع اليهود.

هناك رأي آخر يقول، إن البلدة كان مغضوباً عليها أثناء الثورة الكبرى ضد الإنجليز والتي انتهـت عـام ١٩٣٩م. وقد عاد الذين نزحوا عنها بعد انتهاء الثورة، غير أننا لا نرجح هذا الرأي إذ إن الإحصاء تم في العام ١٩٣١ أي ما بين ثورة البراق وثورة القسام.

وكمـا ذكرنا، كان يسـكن في المنزل أكثر من عائلة، وفي الحـوش أكثر من بيت، وكانت معظم البيـوت متلاصقـة السـطوح، بحيـث يسـتطيع الشـخص أن يسـير مسـافات ضمـن البلد على السـطوح (وسـبب ذلك كما أفاد بعض كبار السن بدأ لتسهيل هروب الشباب أثناء عمليات تجنيد السفربرلك).

أما إحصاؤنا الخاص حول منازل البلد التي يسكنها أهلها عام ١٩٤٨ فقد بلغ ٢٦٠ منزلاً، دون احتساب المباني غير المسكونة كالمساجد والكنائس والمقابر والخان والمعاصر والمقامات وغيرها.

في مقابل هذا العدد من المنازل، بلغ في هذا الإحصاء عدد أسر شَعَب ٣٧١ أسرة، أي بمعدل ١,٤٣ أسرة في البيت الواحد. ومعدل عدد أفراد الأسرة في لواء عكا هو خمسة، وهو الرقم الذي اعتمده إحصاء شوماخر ١٨٨٦، وعبد الكريم رافق اقتداء بسالنامة ولاية سوريا، وكذلك القساطلي الذي ساح في فلسطين في العامين ١٨٧٤-١٨٧٥ ووصفها بدقة، كما اعتمدها دريك Drake أحد أعضاء «صندوق استكشاف فلسطين»[١١]، فإذا اعتمدنا هذا الرقم يصبح عدد سكان شَعَب في عام ١٩٤٨ حوالي ١٨٥٥ نسمة.

النتيجة، أن إحصاء عدد المنازل الخاص بالعام ١٩٣١ مبالغ فيه، وإذا كان صائباً فإن أهل البلد لم يبنوا فيما بعد كل البيوت التي دمرها عدوان ١٩٣٦.

ملاحظات على جدول التطور السكاني

قد يقبل القارئ -على مضض- الإحصاءات من ١٩٢٢ إلى ١٩٤٥، ويأسف - بغصة - على عدم وجود إحصاءات تصلح لمن كان من أهل شَعَب من ١٩٤٦ حتى الآن.

وإزاء الإحصاءات المتوفرة لدينا لا بد من الإشارة إلى أنها تتأثر بعوامل خارجية لا علاقة لها بالزيادة السكانية أو نقصانها، بل تتعداها إلى التغييرات الديمغرافية التي ارتكبها العدو في سبيل تضييع حقوق الصامدين في الداخل بأراضيهم، واعتبارها أملاك غائبين ووضع اليد عليها.

وأشير إلى أن إحصاء ١٩٤٨ (١٨٤٠ نسمة)، هو تقدير اتبعناه من إحصاء عدد العائلات مع تقدير الحد الأدنى المتبع في الدراسات، وهو خمسة أفراد في الأسرة الواحدة (أكثر من دراسة)، ولم نتبع الأرقام الأخرى التي اتبعت من قبل الأقلية وهو ستة أفراد، وبعضهم اختار ثمانية أفراد للأسرة الواحدة.

أما الرقم ٥٧٤ نسمة، فهو من تبقى في فلسطين من أهل شَعَب، مع الإشارة إلى أنهم لم يبقوا في شَعَب، ولم يعودوا إليها إلا لاحقاً، وسكن معظمهم في البعنة ومجد الكروم وترشيحا ودير القاسي. من هنا يفترض بدء التمييز في الإحصاء، حيث تم إسكان غير الشعَبيين في محاولة لمنع أهل البلد من العودة إليها، وإحداث فتنة بين السكان الأصليين المطرودين والسكان الجدد المزروعين في البلد.

ففي يوم السبت ٣٠-٣-١٩٥١، عمدت شرطة الاحتلال وبناء على أوامر سياسية عليا إلى نقل

مجموعات من أبناء أكراد البقّارة وأكراد الغنّامة في سهل الحولة وقرى الحمّة وخربة السمرا، إلى قرية شَعَب المنكوبة، ليتم ملؤها بالسكان والادعاء فيما بعد أن أهل هذه البلدة ما زالوا فيها. وذلك ضمن سياسة ديمغرافية صهيونية، أدت في النهاية إلى فوضى عارمة هدفت إلى نزع مفهوم التعلق بالأرض من ذهن الجيل المتبقي في فلسطين.

لذلك فإن الإحصاءات ما بعد ١٩٥١ لا تعني شيئاً بالنسبة لسكان شَعَب الأصليين. ونقصد هنا بالأصليين، هم أولئك الذين استقروا فيها قبل النكبة، وقد أوردنا أرقام ما بعد النكبة لإكمال صورة التطور السكاني الذي غلب عليه العبث الديمغرافي الصهيوني فيما بعد.

وقد اعتبرنا أن أطول مدة استقراراً في تاريخ شَعَب هي ما بين إحصاءي ١٩٣١م و١٩٤٥م، والفارق بينهما ١٤ عاماً، نجد أن الزيادة بلغت ٤٤٣ نسمة، رغم أن هذه الفترة شهدت نزوحاً باتجاه المدينة. فإذا اعتمدنا هذا الفارق واحتسبنا نسبة الزيادة السكانية في هذه الفترة نجد أنها تبلغ ٣٤,١٦٪.

وعلى هذا الأساس، فإننا نرجح أن عدد أهالي شَعَب، وليس فقط سكان شَعَب، سيصبح على الشكل التالي:

عام ١٥٩٦م كان عدد سكان شَعَب ٤٠ نسمة.

أواخر العهد العثماني كان عدد السكان ١٢٤٠ نسمة.

عام ١٩٢٢م كان عدد السكان ١٢٠٦ نسمة.

عام ١٩٣١م كان عدد السكان ١٢٩٧ نسمة.

عام ١٩٤٥م كان عدد السكان ١٧٤٠ نسمة.

عام ١٩٤٨م كان عدد السكان ١٨٥٥ نسمة (نسبة عدد الأسر × عدد أفرادها بإحصائنا).

نشير هنا إلى أن عدد أهالي شَعَب المسجلين في الأونروا في لبنان قد بلغ في بداية العام ٢٠٠٣ حوالي ٥٣٠٠ نسمة، إلا أن هناك عوامل أخرى تساهم في زيادة أو نقصان العدد، فهناك من نال جنسيات غير فلسطينية بعد النكبة، فخرجوا مع عائلاتهم من سجلات الأونروا، وهناك من سجل في الأردن وسوريا، وهم قلة.. إلى غير ذلك من أسباب التسرّب المختلفة..

عائلات شَعَب

أ. الحارة الشرقية	ب. الحارة الغربية	ج. حارة النصارى
١. أيوب	٧. فاعور	١٨. عبود
٢. الشيخ محمد	٨. الخطيب	١٩. نقولا
٣. حمزة	٩. حسين	٢٠. مبدّى

٤. دلة (الحرامي)	١٠. زيتون (فروع)	٢١. شحادة الفاعور
٥. حسين شحادة	١١. غضبان	٢٢. هدهود
٦. عباس	١٢. كعكوش	٢٣. الحاج حسن
	١٣. أبو عرب	
	١٤. الميعاري	
	١٥. أبو الهيجا	
	١٦. الخوالد	
	١٧. الحاج علي	

وقد يتفرع عن هذه العائلات أسماء عائلات تغيرت في الإحصاءات، وقد يكون بعض هذه العائلات أفخاذاً لعائلات كبيرة. ويتفرع عن عائلات:

فاعور: أسعد العيسى، ناصر وغانم. وأصل عائلة فاعور من حلب في سوريا، إلا أن هناك قبيلة عربية من الأشراف في المملكة العربية السعودية ما زال شيوخها يحملون الاسم نفسه، قد يتصل نسب عائلة فاعور بهم، خاصة أن قبائل الحجاز تفرقت في البلاد الإسلامية إبّان الفتح الإسلامي.

الخطيب: عنتر، خالد، إسماعيل. ليس لعائلة الخطيب صلة قربى بعائلات الخطيب في القرى الأخرى، فقد كان في كل قرية تقريباً خطيب أو منتسب إلى هذه المهنة، الأمر الذي يجعل وجود عائلة بهذا الاسم وارداً بقوة. أما رأس العائلة (الخطيب) في شَعَب فقد عاش في أوائل القرن التاسع عشر بين ١٨٠٠ و١٨٥٠) رجل كان له تسعة أولاد من الذكور. منهم علي، حسن، حسين، سليمان، سعيد، موسى. ولم تتكون العائلة من سلالتهم فقط، بل أضيف إليهم عائلات عنتر وخالد وإسماعيل من خارج العائلة حيث أقاموا ما يشبه الاتحاد (أكثر من حلف)، وأخذوا جميعاً اسم العائلة.

حسين: وتضم تحت جناحها عدداً من العائلات هي: إبراهيم، عبد الحليم، علي، سمارة، وشاح. وأساس هذه العائلة هو مسلّم (مصري توفي في مصر)، جاء ابنه وشاح إلى البلد في القرن الثامن عشر. أشرنا إلى أن البلد كانت مأوى للفراري (الفارين من الثارات). ويقال إن مسلّم هو الذي جاء إلى البلد، وكان لديه ثلاثة أبناء هم: غنام، قرعيش (ومنه شحيبر، زيتون وعزيز)، ووشاح الذي تفرعت منه عائلات كثيرة، ومن أولاده: حسين، حسن، سمارة، معطي، إبراهيم، علي، أمين، عجايب، خيزران. ومن هؤلاء تفرعت العائلات التي ذكرناها سابقاً.

أما عائلة علي فلا تنتسب إلى علي ابن وشاح، بل إلى علي حفيد حسين (أول أولاد وشاح). فمن حسين جاء حسن، ومن حسن جاء علي؛ جد عائلة علي.

ويرجع سبب قلة أفراد عائلة وشاح إلى سببين، الأول تفرع العائلة بين أبنائه، والثاني أن عدداً من أفرادها هجر القرية إلى قرية بيت عفا في غزة التي ما زال ينسب إليها عدد من أفراد العائلة.

يزبك: هي أصل عائلة الشيخ محمد. ويروى أن عائلة يزبك كانت من أوائل من استوطن المنطقة، فكانت عائلتا يزبك وكعكوش تشكلان معظم سكان القرية. وقد أرجع بعضهم عائلة يزبك إلى اليزبكية، وردّ سبب خلافها مع عائلة كعكوش إلى أن الأخيرة يمنية، في إشارة إلى الخلاف التاريخي بين اليزبكية واليمنية. ومن عائلة الشيخ محمد، مطلق إبراهيم الشيخ محمد (موسى المطلق ورشيد المطلق ويونس المطلق) وقد جاء ذكره في سيرة آل الخازن اللبنانية في فرعها الفلسطيني، وذلك في موقع الإنترنت الخاص بالعائلة، كالتالي «أولاد خازن الموسى كبيرهم نمر أشتهر بذكائه وفطنته وحُسن تقديره للأراضي ومنتوجاتها حتى أن الحكومة العثمانية عينته مُفتشاً للأعشار (مُخَمِّن) في المنطقة الممتدة جنوباً من الخضيرة الى أقصى شمال فلسطين. وكان له مساعد وكاتب من قرية شَعَب اسمه مطلق إبراهيم الشيخ وظلّت تربط عائلتيهما علاقات طيبة».

زيتون: وتضم في جناحها عدداً من العائلات المتفرقة: الأسعد، حميد، الطيار، شحيبر، أبو علي، منصور، عزيز. (أطلق عليهم آل الخطيب لقب «الولايات المتحدة» بعد الطوشة – و«العكف المشلّخ» بحسب رواية أحد أفراد عائلة الأسعد). وإذا صحت الرواية التي ذكرناها، فإن هذه العائلات تلتقي مع عائلات حسين في جدها مسلّم. فهي بالتالي مصرية الأصل. غير أن بعض المصادر عائلة شحيبر إلى أصل تركي، كما ورد في موقع www.palestineremembered.com.

غضبان: هي عائلة واحدة ميعارية الأصل. وقد وجدت في مفكرة نجيب الطيار ملاحظات حول أصل عائلة أخواله من آل الغضبان في شَعَب. فكتب ما يلي:

«خزنة بنت خليل الغضبان بن عبد الله الغضبان بن.. ولدت سنة ١٨٨١. وكان الحاج أمين (توفي ١٩٢٧) وأسعد سعد الدين (توفي ١٩٣٠) كانا يرويان بأن الذي علمهما عبد الله الغضبان.

أولاد الغضبان كانوا أربعة: اثنان سكنا ميعار واثنان سكنا شَعَب، وهما محمد الغضبان وعبد الله الغضبان الذي هاجر إلى السودان ومكث ٢٥ سنة، ورجع وأولاده خليل الغضبان وخمس عبدات، وعاش خليل الغضبان حوالي مائة سنة. خليل الغضبان له سبعة أخوة وهم: أسعد، محمد، محمود، علي، أحمد، حسين، وحسن».

ومن أولاد خليل، تشكلت عائلاتهم في شَعَب: إبراهيم الذي أنجب محمد ومحمود. وأسعد

الذي أنجب حسين وسعيد ويوسف الغضبان.

كعكوش: وهم من أقدم عائلات شَعَب يقال إنهم من اليمن، لم يبق في البلد سوى عائلتين (محمد ومحمود). أما الباقي فقد نزحوا بعد مجزرة جامع الحارة الشرقية.

ميعاري: من ميعار.

أبو الهيجا: من قرية كوكب (وتسمى كوكب أبو الهيجا). وهناك عائلة أبو الهيجا في عدد من القرى الفلسطينية، ومنها عين حوض وعلما. وذلك يعود إلى أن أصل العائلة قديم جداً. وقد يبرر أن القديم يتفرع منه عائلات أو يُنسى، ولكن عائلة أبو الهيجا بقيت كما هي، لأن اسم أبو الهيجا له مكانته، وله مقام في فلسطين يفتخر من ينتسب إليه. وكما ذكرنا فإن حسام الدين أبو الهيجا كان أحد قادة جيوش صلاح الدين المشهورين. الأمر الذي يحفظ اسمه والعائلات التي تنتسب إليه في التاريخ.

الخوالد: ذكر البعض أن أصلهم يعود إلى الجزيرة العربية، وأنهم قبيلة عربية تنتسب إلى سلالة الصحابي خالد بن الوليد.

دلّة: الحرامي وعبد الله. أصل العائلة هو الحرامي، ودلّة هو اسم سيدة من نسائهم انتسب بعضهم إليها لما كانت عليه من قدر واحترام. غير أن أحداً منهم لا يتسمى باسم دلة الآن، بل هم ينقسمون بين اسمَي الحرامي وعبدالله.

الحاج علي: هاجر من شَعَب إلى المغرب حوالي سنة ١٩٠٠م. وعاد ابنه عبد العزيز، الذي سكن في عكا، ولم يكن لديه بيت في شَعَب. غير أنه في الأربعينات كاد يشرع في بناء بيت على أرض حضّرها لذلك، ولكن الأحداث منعته، وعاد إلى البلدة أثناء الحرب، وسكن عدة أشهر عند أخي زوجته صالح محمد إبراهيم.

حسين شحادة: عبد الحليم، يوسف الأحمد (شاكر، أسعد، أحمد، طه)، وحش الخليل، نمر الخليل، عودة.

حمزة: يدعونهم بني حمزة، استقروا منذ زمن بعيد في شَعَب، ولهم أقارب في هوشة والكساير. سكنوا الحارة الشرقية في شَعَب منذ زمن، فكان منهم المخاتير والمشايخ والحُجاج.

الأمين: اشترك أكثر من رأي أنهم من قبائل شرقي نهر الأردن.

أيوب: ومنهم أيضاً عائلة أبو فارس.

عبود النجار: وهي عائلة مسيحية، بقي منها ركاد ونعيم، توفي نعيم في السبعينيات في مخيم الضبية، وذهب أهل شَعَب بالحافلة وقاموا بالتعزية، وانقطعت خلال الحرب اللبنانية علاقة أهل شَعَب بهم.

نقولا: شفيق (تزوج بنت ركاد عبود)، عائلة مسيحية.

مبدى النجار: صالح (ضرير)، نجيب، عائلة مسيحية.

يذكر أن المسيحيين نزحوا تباعاً من القرية إلى قرى شفاعمرو وكفرياسيف، ولم يبقَ في القرية سوى هذه العائلات الثلاث المذكورة.

شحادة الفاعور: أبو أسامة، وأبو الفاعور.

هدهود: نزحوا إلى جنين وحلب.

الصفدي: لم يكن في البلد إلا سعيد الصفدي وعائلته.

العائلات الآن

وفي سجلات الأونروا في العام ٢٠٠٣، يوجد ١٠٩ عائلات من شَعَب، يبلغ مجموع أسرهم ١٢٤١ أسرة وأفرادهم حوالي ٥٣٠٠ شخص. إلا أن الرقم ١٠٩ مبالغ فيه جداً، ذلك لأن الكتابة باللغة الإنجليزية أدخلهم في متاهات إملائية، فاسم عائلة شحيبر مثلاً تكرر ست مرات، كل مرة بحروف مختلفة. هذا عدا عن الأخطاء الإحصائية بأسماء العائلات، والتي أخطأ من أجرى الإحصاء معهم بين اسم العائلة واللقب، بالإضافة إلى أن الشخص كان يُعرف باسم أبيه وليس حمولته، وتسبب ذلك بإشكالات كبيرة واختلفت أسماء العائلات...

أسر شَعَب ومبانيها

قد تجتمع أكثر من خمسة أسر في بيت واحد، وعدد أُسَر شَعَب حوالي ٣٧١ أسرة سكنت في ٢٦٠ منزلاً (اعتمدنا تكثيف الأسماء التي تملك بيوتاً باللون الأسود، وكذلك الأمر بالنسبة للمباني).

العبهرة وبنات العين

عين البلد

١. **حسين الأسعد (زيتون)**
٢. **مصطفى السعود (زيتون)**
٣. **مطلق فاعور**
٤. ضاهر فاعور
٥. **سعيد عبد حسن (الخوالد)**
٦. **أحمد ياسين فاعور**
٧. **فرج فاعور**

٨. سعيد الأمين (حسين شحادة)
٩. توفيق الشيخ خليل
١٠. أبو فخري محمد (الخوالد)
١١. مصطفى أبو ذياب (عبد الرحيم)
١٢. رشيد الحاج علي
١٣. آمنة الحسنا (أرملة عبد الرزاق طه حسين)
١٤. رضا عبد الرزاق حسين (حسين)
١٥. الحاج أمين (حسين)
١٦. محمد الديراوي
١٧. أحمد الديراوي
١٨. محمد الصفي
١٩. محمد مصطفى الحاج علي

مدرسة البلد

٢٠. أحمد الخطيب
٢١. فضل الحمد (الخطيب)
٢٢. فياض الحمد (الخطيب)
٢٣. حسن أبو عرب
٢٤. فاطمة الشيخ خليل
٢٥. الشيخ أحمد فاعور (المختار)
٢٦. منيب أحمد فاعور
٢٧. سليمان عبد المعطي (حسين)
٢٨. محمد سعيد أبو داود (الخوالد)
٢٩. داود محمد سعيد أبو داود (الخوالد)
٣٠. صالح محمد سعيد أبو داود (الخوالد)
٣١. خالد المحمود (الخوالد)
٣٢. محمود عبد الكريم (الخطيب)
٣٣. داود السليمان (منصور)
٣٤. علي الأسعد (زيتون)
٣٥. محمد علي الأسعد (زيتون)
٣٦. مطلق حميد (زيتون)
٣٧. أحمد مطلق حميد
٣٨. محمد مطلق حميد

٣٩. علي مطلق حميد
٤٠. **درويش حسن (حسين)**
٤١. علي درويش حسن (حسين)
٤٢. محمد علي درويش حسن (حسين)
٤٣. **حسن شحيبر (زيتون)**
٤٤. **حسين حميد (زيتون)**
٤٥. **علي الريمة (الخوالد)**
٤٦. **علي شحيبر**
٤٧. **توفيق فاعور**
٤٨. محمد توفيق فاعور
٤٩. أحمد توفيق فاعور
٥٠. **أحمد الحمد (الخطيب)**
٥١. **محمد العسكري (أبو عرب)**
٥٢. **إبراهيم العسكري (أبو عرب)**
٥٣. **محمود كعكوش**
٥٤. **مصطفى فاعور**
٥٥. محمود مصطفى فاعور
٥٦. **محمود مصطفى المنصور (فاعور)**
٥٧. **حسن مصطفى المنصور (فاعور)**
٥٨. **مصطفى المنصور (فاعور)**
٥٩. علي مصطفى المنصور (فاعور)
٦٠. حسين مصطفى المنصور (فاعور)
٦١. أحمد مصطفى المنصور (فاعور)
٦٢. محمد مصطفى المنصور (فاعور)
٦٣. عبد الله مصطفى المنصور (فاعور)
٦٤. **حسين فاعور**
٦٥. محمد حسين فاعور
٦٦. فهد حسين فاعور
٦٧. أحمد حسين فاعور
٦٨. **محمد ياسين فاعور**
٦٩. **علي أبو علي (منصور - زيتون)**
٧٠. محمد علي أبو علي (منصور - زيتون)

٧١. **علي سليمان منصور (زيتون)**
٧٢. **حسين العلي (الخوالد)**
٧٣. محمد حسين العلي (الخوالد)
٧٤. **موسى حميد (زيتون)**
٧٥. **محمد سليمان منصور (زيتون)**
٧٦. سعيد محمد سليمان منصور (زيتون)
٧٧. **أحمد سليمان منصور (زيتون)**
٧٨. **مصطفى الطيار (زيتون)**
٧٩. **محمد حسين السيد علي (حسين)**
٨٠. سعيد محمد السيد علي (حسين)
٨١. **سليمان منصور (زيتون)**
٨٢. حسن سليمان منصور (زيتون)
٨٣. **أسعد الغضبان**
٨٤. حسين أسعد الغضبان
٨٥. **إبراهيم الغضبان**
٨٦. **محي الدين الصفدي**
٨٧. توفيق محي الدين الصفدي
٨٨. **عبد الرحمن أبو عرب**
٨٩. محمد عبد الرحمن أبو عرب
٩٠. **محمد سليم عبد الجليل (أبو الهيجا)**
٩١. **رشيد سليم عبد الجليل (أبو الهيجا)**
٩٢. **يوسف القاسم (أبو الهيجا)**
٩٣. **درويش عبد السلام (أبو الهيجا)**
٩٤. **محمد عبد السلام (أبو الهيجا)**
٩٥. **علي حسين السيد علي (حسين)**
٩٦. **أحمد حسين السيد علي (حسين)**
٩٧. مصطفى أحمد السيد علي (حسين)
٩٨. كمال أحمد السيد علي (حسين)
٩٩. محمد أحمد السيد علي (حسين)
١٠٠. كامل أحمد السيد علي (حسين)

بابور الزيت

١٠١. **رشيد عبد اللطيف (زيتون)**

١٠٢. سليم السيلي (أبو عرب)
١٠٣. حسن ميعاري
١٠٤. سعيد حسن ميعاري
١٠٥. محمود ميعاري
١٠٦. رشيد ميعاري
١٠٧. محمد سعد الدين (الخطيب)
١٠٨. محمد صالح إبراهيم (أبو الهيجا)
١٠٩. إبراهيم الرضوان (أبو الهيجا)
١١٠. علي عبد العزيز (زيتون)
١١١. محمد علي عزيز (زيتون)
١١٢. عبد الحفيظ عبد العزيز (زيتون)
١١٣. حسين عبد الحفيظ (زيتون)
١١٤. محمد حميد (زيتون)
١١٥. فياض حميد (زيتون)
١١٦. عبد اللطيف أسعد (الأسدي)
١١٧. محمد مطلق شحيبر (زيتون)
١١٨. الحاج خليل شحيبر (زيتون)
١١٩. عبد الحليم الطيار (زيتون)
١٢٠. حسن عبد الحليم الطيار (زيتون)
١٢١. محمد عبد الجليل (الخطيب)
١٢٢. سعيد محمد عبد الجليل (الخطيب)
١٢٣. رشيد حميد (زيتون)
١٢٤. سعيد عبد محمد (الخطيب)
١٢٥. سعيد إسماعيل (الخطيب)
١٢٦. أحمد سعيد إسماعيل (الخطيب)
١٢٧. محمود الأسعد (زيتون)
١٢٨. علي السليم (زيتون)
١٢٩. حسين سعيد (زيتون)

فرن البلد

خان البلد

١٣٠. علي يوسف حرب (إسكافي من بنت جبيل شغل في البداية خان البلد وكذلك الكثير من الزوار كالمبيضين، شارك في المقاومة مع الحامية).

١٣١. نمر شحيبر (زيتون)
١٣٢. رشيد نمر شحيبر (زيتون)
١٣٣. سعيد نمر شحيبر (زيتون)
١٣٤. فريد نمر شحيبر (زيتون)
١٣٥. زيدان نمر شحيبر (زيتون)
١٣٦. أمين حميد (زيتون)
١٣٧. حسن سعيد (زيتون)

بيادر البلد

الحنانة

١٣٨. إبراهيم الحاج أسعد (فاعور)
١٣٩. طاهر عبد الرازق (الخوالد)
١٤٠. علي مصطفى الشيخ علي (الأسدي)
١٤١. محمد عبد عايشة (الخوالد)
١٤٢. حسين أبو الهيجا
١٤٣. صبحي أبو الهيجا
١٤٤. لطفي أبو الهيجا
١٤٥. رشيد أبو عرب
١٤٦. أسعد خزنة (الخوالد)
١٤٧. محمد علي الخطيب
١٤٨. حسن أبو حسن (الخطيب)
١٤٩. سعيد طه الخطيب
١٥٠. علي عبد الجليل (الخطيب)
١٥١. فياض حمد الخطيب
١٥٢. الحاج توفيق العلي (الخطيب)
١٥٣. علي الحاج توفيق (الخطيب)
١٥٤. أحمد الحاج توفيق (الخطيب)
١٥٥. محمد الحاج توفيق (الخطيب)
١٥٦. حسين موسى الخطيب
١٥٧. رشيد خالد (الخطيب)
١٥٨. محمد رشيد خالد (الخطيب)
١٥٩. أحمد رشيد خالد (الخطيب)
١٦٠. يونس خالد (الخطيب)

١٦١. حسين طه الخطيب
١٦٢. محمد طه الخطيب
١٦٣. سعيد المحمود (الخطيب)
١٦٤. محمد سعيد المحمود (الخطيب)
١٦٥. رشيد محمد سعيد أبو الشيخ (الخطيب)
١٦٦. راجي شاكر الخطيب
١٦٧. أحمد شاكر الخطيب
١٦٨. كامل الخطيب
١٦٩. أحمد كامل الخطيب

جامع البلد

مقام سيدي أحمد العليمي

١٧٠. مصطفى أحمد عيشة (طافش = حمزة)

مقام الشيخ أحمد الشعراوي

١٧١. سعيد الصفدي
١٧٢. أحمد حسن إبراهيم (حسين)
١٧٣. علي الطاهر (حسين)
١٧٤. محمد إبراهيم حسين
١٧٥. صالح محمد حسين
١٧٦. أحمد حسين الخطيب

بابور الزيت (موتور)

١٧٧. صالح عبد الهادي (أبو سعيد الأسدي)
١٧٨. سعيد صالح عبد الهادي (الأسدي)
١٧٩. ياسين فاعور
١٨٠. علي محمد الديب
١٨١. محمد قدورة
١٨٢. أسعد قدورة
١٨٣. محمد عبد الرازق داود (الخوالد)
١٨٤. عبد اللطيف داود (الخوالد)
١٨٥. صالح عبد اللطيف (الخوالد)
١٨٦. عبد منصور (زيتون)
١٨٧. منصور عبد منصور (زيتون)
١٨٨. محمد عبد منصور (زيتون)

١٨٩. أحمد مصطفى عبد الحليم (حسين)
مقام الشيخ حسن
١٩٠. شافع عبد الحليم (حسين)
١٩١. عوض شافع عبد الحليم (حسين)
١٩٢. صالح عبد الرازق (الخوالد)
١٩٣. محمد عبد الرازق (الخوالد)
١٩٤. أحمد معطي (حسين)
١٩٥. إبراهيم أحمد معطي (حسين)
١٩٦. فضل عبد الرازق (الخوالد)
١٩٧. علي الحاج محمد (حسين)
١٩٨. محمد سعيد عبد الغني (حسين)
١٩٩. فياض حسن (حسين)
٢٠٠. أحمد فياض حسن (حسين)
٢٠١. علي فياض حسن (حسين)
٢٠٢. أحمد حسين أحمد (حسين)
٢٠٣. بشير سمارة (حسين)
٢٠٤. محمد عبد الله سمارة (حسين)
٢٠٥. ركاد عبود (النجار)
٢٠٦. رشيد حسن العلي (الخوالد)
٢٠٧. نعيم عبود (النجار)
٢٠٨. رشيد حسن حسين (حسين)
٢٠٩. صالح حسن العلي (الخوالد)
٢١٠. شفيق نقولا (النجار)
٢١١. فريد نمر شحيبر (زيتون)
٢١٢. أديب مبدّى (النجار)
٢١٣. محمد الشيخ ملك (الشيخ محمد)
٢١٤. عبدالله أحمد عيسى الغانم (فاعور)
٢١٥. سليمان الحاج حسن
٢١٦. أحمد سليمان الحاج حسن
٢١٧. قاسم الحاج حسن
٢١٨. محمود الحاج حسن
٢١٩. نمر محمود الحاج حسن

٢٢٠. علي الحاج حسن
٢٢١. رشيد الحاج حسن
٢٢٢. عبد علي (حسين)
٢٢٣. يوسف عبد علي (حسين)
٢٢٤. عوض الناصر (فاعور)
٢٢٥. أحمد سعيد الحاج داود (الخوالد)
٢٢٦. إبراهيم الحاج حسن
٢٢٧. فياض إبراهيم الحاج حسن
٢٢٨. نايف إبراهيم الحاج حسن
٢٢٩. قاسم الحلاق (الأسدي)
٢٣٠. نايف الحلاق (الأسدي)
٢٣١. حسن الحلاق (الأسدي)
٢٣٢. يوسف فتح الله الأسدي
٢٣٣. نمر السليم الأسدي
٢٣٤. محمد نمر الأسدي
٢٣٥. رشيد نمر الأسدي
٢٣٦. سليم نمر الأسدي
٢٣٧. محمود نمر الأسدي
٢٣٨. أحمد سليم الأسدي
٢٣٩. سعيد أحمد الأسدي
٢٤٠. محمد أحمد الأسدي
٢٤١. الشيخ موسى المحمد (الأسدي)
٢٤٢. فياض موسى المحمد (الأسدي)

جبانة الحارة الغربية

٢٤٣. علي نمر السليم (الأسدي)
٢٤٤. علي موسى المحمد (الأسدي)
٢٤٥. محمد علي موسى المحمد (الأسدي)
٢٤٦. أحمد علي موسى المحمد (الأسدي)
٢٤٧. محمود عينة (الأسدي)
٢٤٨. أحمد محمود السعيد
٢٤٩. حمد الشيخ يوسف (الشيخ محمد)
٢٥٠. فضل الرشيد (الشيخ محمد)

٢٥١. الشيخ مطلق إبراهيم (الشيخ محمد)
٢٥٢. محمد مطلق إبراهيم (الشيخ محمد)
٢٥٣. توفيق مطلق إبراهيم (الشيخ محمد)
٢٥٤. سعيد مطلق إبراهيم (الشيخ محمد)
٢٥٥. رشيد مطلق إبراهيم (الشيخ محمد)
٢٥٦. حسين اللزقة (الأسدي) (في الكنيسة)
٢٥٧. عبدالله اللزقة (الأسدي) (في الكنيسة)

الكنيسة الجنوبية

مقام أبو شامية

جبانة الحارة الشرقية

٢٥٨. رجاء والغزال (الحرامي؛ أخوان وحيدان)
٢٥٩. أحمد اليوسف (شحادة)
٢٦٠. طه اليوسف (شحادة)
٢٦١. دخل الله طه اليوسف (شحادة)
٢٦٢. ومحمد طه اليوسف (شحادة)
٢٦٣. مصطفى عبد الحليم (شحادة)
٢٦٤. شاكر اليوسف (شحادة)
٢٦٥. سعيد الزمار (عبد الرحيم)
٢٦٦. أحمد الزمار (عبد الرحيم)
٢٦٧. صالح موسى العلي (شحادة)
٢٦٨. نجيب موسى العلي (شحادة)
٢٦٩. نمر دلة (الحرامي)
٢٧٠. محمد نمر دلة (الحرامي)
٢٧١. موسى نمر دلة (الحرامي)
٢٧٢. أسعد اليوسف (شحادة)
٢٧٣. محمد أسعد اليوسف (شحادة)
٢٧٤. يوسف حسون (عبد الرحيم = الدلة)
٢٧٥. أحمد الحاج سعيد طافش (حمزة)
٢٧٦. صالح عباس
٢٧٧. حسن عباس
٢٧٨. محمد عبد عباس
٢٧٩. محمد شاكر صنع الله (الأسدي)

٢٨٠. **أحمد عبد الحليم (شحادة)**
٢٨١. **أحمد فاعور شحادة (شحادة الفاعور)**
٢٨٢. **حسن عودة (حسين شحادة)**
٢٨٣. **محمد عودة (حسين شحادة)**
٢٨٤. **حسين عزيز (شحادة)**
٢٨٥. **فياض عزيز (شحادة)**
٢٨٦. **الحاج سعيد طافش (حمزة)**
٢٨٧. حسن الحاج سعيد طافش (حمزة)
٢٨٨. صالح الحاج سعيد طافش (حمزة)
٢٨٩. **طه الحرامي**
٢٩٠. **عبد خليل الحرامي**
٢٩١. خليل عبد خليل (الحرامي)
٢٩٢. وأحمد عبد خليل (الحرامي)
٢٩٣. **توفيق الحرامي**
٢٩٤. **نمر الخليل (حسين شحادة)**
٢٩٥. **أسعد الحبوش (حسين شحادة)**
٢٩٦. حسن أسعد الحبوش (حسين شحادة)
٢٩٧. سعيد أسعد الحبوش (حسين شحادة)
٢٩٨. **موسى العلي (حسين شحادة)**
٢٩٩. **إبراهيم فياض ملك (حسين شحادة)**
٣٠٠. **الشيخ رفيق ملك (الشيخ محمد)**
٣٠١. **عبدالله الموسى (الحاج علي)**
٣٠٢. عوض عبدالله الموسى (الحاج علي)
٣٠٣. موسى عبدالله الموسى (الحاج علي)
٣٠٤. جميل البيروتي (جاء من بيروت وكان حِرفياً في شعب)
٣٠٥. **عارف عبد العزيز (شحادة)**
٣٠٦. **أحمد أسعد الفولي (أيوب)**
٣٠٧. **محمد أسعد الفولي (أيوب)**
٣٠٨. **عبد علي هروش (أيوب)**
٣٠٩. **الشيخ ظاهر إبراهيم (الشيخ محمد)**
٣١٠. أحمد ظاهر إبراهيم (الشيخ محمد)
٣١١. علي ظاهر إبراهيم (الشيخ محمد)
٣١٢. **حسن المحمود السعيد**
٣١٣. **عبد أسعد المحمد (الشيخ محمد)**

٣١٤. أحمد عبد أسعد (الشيخ محمد)

٣١٥. علي نجله (الشيخ محمد)

٣١٦. إبراهيم فياض (الشيخ محمد)

جامع الحارة الشرقية (الجامع الشمالي)

٣١٧. محمد شحادة الفاعور

٣١٨. فاعور محمد شحادة الفاعور

٣١٩. عبد محمد شحادة الفاعور

٣٢٠. شحادة محمد شحادة الفاعور

٣٢١. وحش سعيد الأسعد

٣٢٢. أسعد عبد أسعد (الشيخ محمد)

٣٢٣. محمد عبد أسعد (الشيخ محمد)

٣٢٤. يوسف الشيخ يوسف (الشيخ محمد)

٣٢٥. رشيد رعيدي (الشيخ محمد)

٣٢٦. مصطفى العرابي (طه عليا)

٣٢٧. محمود العرابي (طه عليا)

٣٢٨. حسن مميش (طه عليا)

٣٢٩. أحمد زينة (فاعور) (مات أبوه في ١٩٣٦، وبقي مع أمه زينة)

٣٣٠. محمد هدهود

٣٣١. نايف هدهود

٣٣٢. سعيد هدهود

مقام الشيخ صالح الدين

٣٣٣. مصطفى أسعد العلي (طه عليا)

٣٣٤. سعيد أسعد العلي (طه عليا)

٣٣٥. فياض حمزة

٣٣٦. أمين حمزة (الشيخ، مختار البلد)

٣٣٧. محمد أمين حمزة

٣٣٨. رشيد حمزة

٣٣٩. محمد علي رشيد حمزة

٣٤٠. علي رشيد حمزة

٣٤١. محمد سليمان حمزة

٣٤٢. رشيد سليمان حمزة

٣٤٣. حسين عجايب (حمزة، اسم الأم عجايب)

٣٤٤. أحمد سليمان حمزة

٣٤٥. حسن حمزة
٣٤٦. علي درويش الشيخ خليل
كنيسة الحارة الشرقية
٣٤٧. يوسف الشيخ خليل
٣٤٨. توفيق خليل طه (طه عليا)
٣٤٩. محمد خليل طه (طه عليا)
٣٥٠. خليل محمد خليل طه (طه عليا)
٣٥١. كامل أسعد علي طه
٣٥٢. إبراهيم الحاج علي (الشيخ خليل)
٣٥٣. محمد أحمد الشيخ خليل (زوجته خضرة)
٣٥٤. إبراهيم أيوب
٣٥٥. محمد أيوب
٣٥٦. قاسم محمد أيوب
٣٥٧. شريف محمد أيوب
٣٥٨. علي أسعد أيوب
٣٥٩. حميّد أيوب
٣٦٠. شريف حميد أيوب
٣٦١. الحاج عبد حمزة
٣٦٢. محمد عبد حمزة
٣٦٣. أحمد عبد حمزة
٣٦٤. إبراهيم فارس (أيوب)
٣٦٥. محمد الحاج أسعد (فاعور)
٣٦٦. موسى محمد الحاج أسعد (فاعور)
٣٦٧. علي الحاج أسعد (فاعور)
٣٦٨. سعيد حميد أيوب
٣٦٩. أحمد سعيد حميد أيوب
٣٧٠. محمد حميد أيوب
٣٧١. حسين محمد أيوب

* * *

(١) زهير غنايم: لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى حزيران/يونيو ١٩٩٩، ص١٢٨ -١٤٤.

(٢) شكري عراف: الموقع الجغرافية في فلسطين – الأسماء العربية والتسميات العبرية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى تموز/يوليو ٢٠٠٤.

(٣) راجع إحصاءنا الذي أجريناه عن البيوت والأسر.

(٤) مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٤٦/٤٥، شتاء ربيع ٢٠٠١، صفحة ٩٠، «لاجئون في وطنهم: الحاضرون الغائبون في إسرائيل» للكاتب واكيم واكيم من جمعية الدفاع عن حقوق المهجرين، الجدول صفحة ٩٢، أشار إلى أن عددهم عام ١٩٤٨ كان ٥٧٤ نسمة.

(٥) يسمح القانون الصهيوني لهم بالسكن عبر الاستئجار لمدة ٩٩ سنة دون الشراء، ولا يحق لأي منهم أن يستأجر بيت أهله، لذلك من يذهب الآن إلى البلد سيجد أنهم لا يسكنون بيوتهم الأصلية.

(٦) خالَفَ هذا التاريخ كتاب لواء عكا في عهد التنظيمات الإدارية العثمانية لزهير غنايم فذكر في جدول صفحة ٢٧٢ أنه ١٣٠٤هـ ١٨٨٦م.

(٧) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين – مصدر سابق –ج٧ – ق٢– ص٣٨٢

(٨) الموسوعة الفلسطينية – القسم الخاص - المجلد الثاني – ص٩٧٠. نقلاً عن قوائم شوماخر في ذلك العام حول سكان لواء عكا، وكان يتم التعداد لكل من هم بين ١٦-٦٠سنة، ثم يضرب العدد بخمسة. وذكر التقرير أن عدد المسلمين ٢٦٩، وعدد المسيحيين ١٧، والمجموع ٢٨٦×٥=١٤٣٠.

(٩) شكري عراف: القرية العربية الفلسطينية - مبنى واستعمالات أراض، مطبعة أوفست أبو دلّو، بيت صفافا ٥١ القدس، صفحة ٢٦٧.

(١٠) ريم عبيدو، كيف يعيش فلسطينيو الجليل في شَعَب ودير الأسد وترشيحا، تقرير في ذكرى النكبة، على موقع www.moqawama.net على الإنترنت.

(١١) زهير غنايم: لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى حزيران/يونيو ١٩٩٩، ص١٢٨.

الفصل الثالث
اقتصاد البلد

تناولت الموسوعات وكتب القرى الفلسطينية هذا الموضوع بإسهاب، وحرصاً على عدم إضاعة الوقت والجهد فقد حاولت أن أكون انتقائياً لا موسوعياً فبدأت بجمع أسماء الزرع حسب المواسم، وحصلت على ما يلي:

ذكر لي كبار السنّ ما كانوا يزرعونه في المواسم، فقالوا إن الصيف كان يشهد السمسم (حيث كانوا يزودون بها معامل الطحينة والحلاوة في عكا) - الذرة (للدجاج والخبز حين كانت الحكومة تأخذ القمح من الناس لاستخداماتها) - البطيخ - الفقوس - الكوسى - الحمص - البندورة - اللوبيا - العنب - التفاح - الإجاص - التين - الصبر - البطاطا..

أما الشتوي فكان الزيتون - القمح - الكرسنة - الشعير - البصل - الفول - الثوم.

ولأنه ليس بوسع الراوي تَذكُّر كل الزروع في البلد، فقد اخترت أن أذكّره بها من الكتب الأخرى، ومن هذه الكتب كتاب «الدامون» للأستاذ حسين علي لوباني، فحصلت بذلك على ثروة نباتية في بلدنا.. أما سبب اختياري لكتابه فكان بسبب قربها من بلدنا واشتراك الأراضي والأودية والمناخ بينهما.

أ.المزروعات

عرفَت شَعَب مزروعات متنوعة في أراضيها، وهي:

١- القمح وهو شهير (وقد حرص اليهود على إحضار حصّاداتهم الآلية عند المعارك في تلك

المنطقـة، وقد قسـموا البيادر على مزاجهم وبـدأوا يحصدون القمح ففزع (تنـادى) أهل المنطقة وطردوهم منها، ذلك لأن البلدة لم تكن قد سقطت مثل البلدات المجاورة).

٢- الشعير

٣- الذرة البيضاء وكانت تزرع لعلف المواشي والتخزين.

٤- العدس

٥- الذرة الصفراء (العادية).

٦- الجلبانة (وهي بين العدس والكرسنّة، وتستخدم للبقر).

٧- السمسم (كان يحوّل عبر متعهدين إلى معامل الحلاوة والطحينة - أشارت الراوية إلى أنها نثرت بنفسها بذور آخر موسم لم يتم حصاده في أرض أهلها - وتوضع كميات بذار السمسم في حرج الثياب ويحمل البذّار بوقاً يسـقط من أعلاه الحَبّ ليسـتقر في النهاية في الأرض على خط مستقيم في ثلم يشقه المحراث مسبقاً).

٨- البطيخ ومنه

البيشاوي: ولونه أخضر غامق، وذو قشرة سميكة.

المحيسني: ويميل إلى اللون الأبيض الممشح، بخطوط طولية.

الأميركاني: ولونه أخضر غامق.. وقد وصلت زراعته متأخرة إلى شَعَب.

وكانوا يبيعون الأخيرَين ويخزنون البيشاوي في التبن للضيافة أيام الشتاء.

٩- الخرّوش: وهو اسم الشمّام.

١٠- الفقوس.

١١- الكرسنّة: وكانت تموّن للمواشي.

١٢- القزحة: حبة البركة.

١٣- الباذنجان والبامية.

١٤- البندورة

١٥- الزعفران والنعنع والبقدونس..

١٦- الكزبرة: وكانت تكثر وتنبت لوحدها.

١٧- الحلبة: ولم يولِها أهل البلد اهتماماً واضحاً، كغيرها من نباتات الضيافة.

١٨- الخيار والفجل والبطاطا.

١٩- اللوبياء الرفيعة، الفول الأخضر، الحمص والفاصولياء.

٢٠- القرع وهو نوعان:

الهيلاني: وهو طولي الشكل يطبخ مثل الكوسى.

اللقطين: ويصنع منه مربى اللقطين.

٢١- الكوسى والبصل والثوم والفلفل الحلو والحار..

أما كروم البلدة فكانت تزرع بما يلي:

١- الزيتـون بنوعيـه: المليصي والسـوري أو الصوري. وكان الزيتون في شَـعَب نوعين العادي والرومي.. وتشـتهر الزيتونة الرومية بضخامـة بُوقها (الجذع)، ويروون القصص عن ضخامته.. ولأنه مفرغ كان بعض الناس يختبئ فيه أثناء الخطر أو الاضطرار.. بل كانوا يغتسلون فيه أثناء حراسة الكروم في الصيف (النطارة). وغرس الزيتون فيها على ٢٠٤٠ دونماً. فقد كانت شَعَب رابع بلدة بفلسطين والثانية بالجليل بعد الرامة في إنتاج الزيتون.

٢- العنـب: ومنـه العبيـدي (الأسـود)، والزيني أو بزّ العنزة (الطولي الشـكل)، القرقشـاني (المدعبـل)، وكان أكثـر مـن لديهم كروم عنـب في البلد عائلات (حمزة – الشـيخ محمد – عوض الناصر).

٣- التين: وتشتهر شَعَب بتعدد أنواعه..

البْياضـي والسْـوادي والحْماري والخْضاري (وهذا التصنيف حسـب الألـوان)، أما ما تبقى فهـو الخرطْمانـي، الحماضـي، العجلونـي، البقراطي (وهو مسـتطيل كالإجاص ولـه بزر أحمر ويشوب طعمه شيء من الحموضة)، الموازي (من موز، حبه طويل ضخم ولونه أصفر من الخارج)، الشْتاوي، والتْباني.

وأكثر من زرع منه عائلات (سَكْرة والشيخ محمد)، وتقول الراوية أن أمها التي ذهبت –حين زارت فلسطين في بداية التسعينيات- إلى تلة يعنين حيث كانت قد زرعت فسائل التين الصغيرة، لـم تجـد مـن تينها القديم (منذ ٥٠ سـنة) إلا الصغار وقد أصبحن «صبايـا»، والتعبير يدل على مدى تعلق أهل البلدة بزرعهم وجزالة الأميين في التعبير عنه.

٤- اللـوز: ويكثـر في جبل الـزكّان، غير أن أهل البلدة لم يركّزوا على زراعته، إلا أن شـخصاً واحداً اشتهر به وهو مرعي عبد حسن (الخوالد)، وكان ينسلّ الفتيان إلى أشجاره للفوز بصمغها لتجليد كتبهم المدرسية.

٥- الرمان: وكان منه أنواع عديدة، منه الملّيسي، حلاّوي (حلو)، حماضي (حامض يستعمل للدبس)، لفّاني (بين هذا وذاك؛ ويسـتعمل للشـراب، راجع في أغاني الأعراس أغنية «آه يا شـراب رمان» في الزفة).

٦- الصبر أو الصبار.. ويكثر في يعنين، حيث كان كل صاحب أرض مزروعة هناك يسـيجها بالصبار، وكان يكثر أيضاً في الوعر..

أما في داخل أحياء البلدة:

فيكثر شجر الزنزلخت والتوت والتين في حارة الصدر، وفي أول البلد عند دار الشيخ فاعور فاعور هناك شجرة عنبرة كبيرة (وهي ذات نوّار أصفر طيب الرائحة وورقها أخضر).

وفـي داخـل البلد أيضاً هنـاك عرائش عنب، وبعض أهـل البلد زرع الرمان في داره، وأشـهر

منزل كان فيه شجر الرمان هو منزل محمد عبد الجليل..

النباتات البرية المختلفة والبقول:

١- الخبيزة أو الخبازي: ويدخل في عدة أصناف من الأكل..

٢- العلت: وهو بقلة الهندباء التي تؤكل نيئة ومطبوخة.

٣- المُرَار: نبتة تؤكل مع البرغل وتسمى الطبخة «سميد ومُرّار»، وما زال كبار السن يستضيفون بعضهم عليها حتى يومنا هذا..

٤- الخرفيش.

٥- السنّارية: وتؤكل سيقانها..

٦- تفاح الجن.

٧- القضّاب.

٨- الحُورّة وزهرتها بيضاء.

٩- الحندقوق: وكان ينبت بين القمح على البيدر، وعند الحصاد كانوا يتغاضون عنه فيطحنونه مع القمح، ليعطيه رائحة طيبة يتباهون بقمحهم بسببها.

١٠- البصل البصيل.. ومنه الفرك لتجبير الكسور بعد دقه مع الملح، وله أكواز.. أما الباصول فله (زنبوط) وكان يسمى (مُرْتَشّة) أي للبذر.

١١- الجعدة: وكان يأكلها البعض بعد معالجة صعبة، وهو مثل اللوف من حيث صعوبة الأكل والطبخ والهضم..

١٢- اللوف: مثل الجعدة.. له ورق عريض كان البعض يأكله بعد المعالجة..

١٣- السلق البري: ولم يكن في داخل البلدة سلق بلدي.

١٤- اليرنحين: كان يمتلئ به وادي البلد باخضرار دائم، وينور في موسمه باللون الأزرق النيلي..

١٥- القندول: في الوعر وله زهر أصفر، ورائحة ذكية.. وهو ذو شوك قاس قوي.

١٦- البسباس: وكانت تُغلى أزهاره الصفراء مع بيض العيد لصبغه.

١٧- البرقوق: شقائق النعمان أو الدحنون.

١٨- الطيون: وله فوائد يعرفها الطب العربي..

١٩- امْصريني: نبتة تستعمل في المأكولات.

٢٠- الجرنس: النرجس، وهو من أحلى أزهار البر وأذكاها رائحة..

٢١- القرّيص.

٢٢- العكّوب: وهو مثل المُرّار ما زال أهل البلدة يلتقون عليها، وتؤكل جذوره الحلوة مطبوخة، مع لحمة أو بدونها.

٢٣- النّفل على أنواعه: العوينة والصنيبعة وقرن الغزال وإبرة ستي والحميضة والخويتمة والحنظل وفقوس الحمار والحلفا والسِّعدِ والسُّلّيل والبربير والقصب (قرب نهر النعامين)، والجرّيح..

٢٤- السرّيس والخرّوب (من عمق وادي البلد) والملّ.

٢٥- السنديان والبلّوط.

٢٦- دم الغزال.

٢٧- العوصلان.

٢٨- والحلب لوبّ: حلبلوب وله حليب كالتين، ولبنُه يورم اليدين لدى فركه.

٢٩- الخلّة والخردلة (تكبس مثل اللفت).

٣٠- الحسكة: شبيهةُ النخلةِ بعلوّ مترين.

٣١- كفّ العروس.

٣٢- القرصعنّة: وهي نبتة بقلية ذات ورق عريض تؤكل في السلطة مع البصل والزيت.

٣٣- الفراطيش: الفطر، وأشهره زقم العجل، ويؤكل مقلياً مع البيض.

٣٤- الهليون: كانت تجمع طرابينه الطرية، لتفرم وتؤكل مع البيض.

٣٥- الزعتر: (الصعتر)؛ منه البلدي والفارسي، يؤكل مع السلطة أو يجفف مع السمسم، وأكثر ما زرعه أهل البلد في البزوعية – الخربة التي قرب البلد).

٣٦- السماق: أكثر ما يُستخدم في الزعتر لاستعماله فيه بدل ملح الليمون.

٣٧- سليقة.

٣٨- دقّة عرب: كانت تغلى مع الشاي.

٣٩- فيجَن: كان يوضع ورقه مع الزيتون المكبوس لتطييبه.

٤٠- فرفحينة: تؤكل نيئة ومطبوخة.. أو سلطة.

٤١- مَرَمِيّة أو مَرْيمية أو ميرمية: كانت تُغلى أوراقها، ويُشرب مغليُّها، لفوائده العديدة.

٤٢- انْجيل: عشبة برية ميدانية.. تمتد أفقياً ولا تعلو.. تقضمها المواشي.

٤٣- مدّاده: عشبة تقضمها المواشي.. وتمتد أفقياً.. وهي ممتازة للأرانب.

٤٤- بابونج: لا يخلو سطح ترابي في شَعَب منها.. كذلك البيادر.

٤٥- طبق الراعي: أو طاقية الراعي، ويأكله الصغار إذا كان أخضر يانعاً طرياً..

٤٦- الفجّيلة.

٤٧- عين البقرة.

٤٨- الرشاد: وهي نبتة تعتبر من المقبلات.

٤٩- الشحّيمة.

٥٠- خسّ برّي.

٥١- عنب علّيق: كان ثمراً مقصوداً من الصغار، كثير الوجود بين الصبر في يعنين.

٥٢- قرّينة.
٥٣- خامشة: يستعمل مثل زهر البسباس غَلْياً مع البيض ولكن لونه أخضر.
٥٤- ورق اللسان: نبتة تؤكل كالخبيزة والعكّوب واللوف.
٥٥- لُسيّنة ولسان الثور.
٥٦- زقوقيا.
٥٧- الحبق: وهي نبتة ذات رائحة زكية.. (اللي سبق شم الحبق).
٥٨- الورد (الجوري) ولم يكن كثير الوجود، واهتم به في بعض البيوت قبيل النكبة.
٥٩- مردكوش: أو مردقوش؛ نبتة تستعمل لتطييب الطعام وخاصة في الكبة.
٦٠- إجر الحمامة.
٦١- الملّيسة.
٦٢- الشومر: يأكله الناس نيئاً.. وقد يجمعون بذوره في تطييب الطعام أو غلْيه لشرب مائه المفيد طبياً. وله رائحة زكية، تفتح الشهية..

ب. الثروة الحيوانية

الحيوانات الأليفة والدوابّ:

تنقسم الحيوانات الأليفة في شَعَب إلى عدة أقسام، فمنها ما يُركب ومنها ما يؤكل ومنها ما يُستخدم (في الحراثة والحراسة والصيد وغيره..).

الدوابّ (جمع دابّة)، وهي ما يُركب، فمنها:

١- البغال، وهي من الحيوانات المهجّنة، ونتيجة تزاوج الحمار مع الفرس، وهي تجمع بين قوة تحمّل الحمار وقوة جسد الحصان وحجمه، إلا أنه شرس بعض الشيء.

يكثر استخدامه في المهمات الشاقة، مثل جرّ حجر معصرة الزيتون والدوران حولها، وتشغيل ناعورة المياه، في الحنانة، ودرس القمح على البيدر بعد الحصاد. وعنه المثل الشهير «سألوا البغل مين أبوك؟ قال الحصان خالي».

٢- الجمال: كان في البلد القليل منها عند أحمد ياسين فاعور، أحمد سعيد، أحمد حسين، محمد عباس. ولكن لم يكن امتلاك الجمال والنوق للتجارة، حيث كان عند كل واحد من هؤلاء ثلاثة جمال فقط لا أكثر ولا أقل.

٣- الحمير، من أكثر الدواب ألفة مع الإنسان، تمتاز بالصبر، وأكثر استعمالاتها للركوب والتنقل ونقل المحصول والحطب وغيرها.

وفي التراث قصة شهيرة عن الحمار، فحين توفي أحد المزارعين شقّ على ورثته معرفة مخبأ المونة أو مخازن الحصاد، فأشار عليهم حكيمٌ بينهم بإحضار حماره إلى مكان الحصاد وتحميله وتركه يمشي كما كان يفعل في السابق، ففعلوا واستدلوا به على مكان مخازن الحصاد.

٤- الخيل: وقد اشتهرت منها الخيل الأصيلة للركوب والمباهاة والزينة والتفاخر، ومنها الخيل الكُدْش التي تستعمل في عمل الإنسان. وقد استُخدمت الخيل الكُدْش في معصرة دار حسن الحسين (أبو درويش) وهي معصرة الزيتون الوحيدة المتبقية على الخيل في البلد، كما كانت تستخدم في الحنّانة لرفع المياه، وفي درس القمح والشعير والكرسنة وغيرها على البيدر.

وكان في البلد مهنة خاصة لتسريح ورعي الخيل إلى جانب تسريح ورعي الطرش، وكان يقوم به أشخاص معينون[١].

أما **المواشي**، فهي الحيوانات التي يؤكل لحمها وينتفع بجلدها أو صوفها، ومنها:

١- البقر: لم يخلُ بيت في البلدة من البقر، من أفقرها حتى أغناها، فقد كانت منافعها كثيرة، وكان أقل ما يمتلك البيت الواحد بقرتين.

والفائدة منها متعددة، ويستغني بها القروي عن كثير من الحاجيات، فعدا عن استعمالها المهني في الفلاحة، فإن لها استعمالات منزلية شتى، فكانوا ينتجون منها اللحم في حال ذبحها، والحليب ومشتقاته كاللبن واللبنة والجبنة والسمنة والزبدة. وكان يحرصون على جمع البقرة مع ثور لتحمل بعجل صغير، ويُنتج ضرع البقرة عند الولادة اللبأ وهو أحد أدسم مشتقات الحليب وأكثرها تغذية.

ويستخدم زبل المواشي عموماً في تزبيل الطابون (مثل التنور)، وكسماد في تسميد الأرض، وهي طريقة ما زالت تستخدم في الزراعة حتى أيامنا. كما أن القروي في أيام الشتاء القارس يُدخل البقرة إلى حمى الدار، حيث يكون قد جهز لها حظيرة مسقوفة، ويؤثّر وجود الماشية فيها بتخفيف البرد عنها بفارق ملحوظ.

٢- الغنم (الخروف - البياض): كأن الأغنام خلقت للإنسان في المناطق الباردة أو فصل الشتاء، إذ تتميز الأغنام عن البقر بكثرة الدهن فيها، وبالصوف الذي يُجزّ سنوياً ويستخدم بدل القطن في حشو الفرشات والمخدات واللحف، وبعض أجزائه تستخدم في الخياطة والزينة. بالإضافة إلى جلودها بعد الذبح والدباغة.

وقد اشتهر من أهل البلد بكمية الأغنام، وربما لم يقتنِ أحد مثله في البلد أغناماً، هو الحاج عبد حمزة.

٣- الماعز (العنزة - السمار): وكان يستفاد من حليبها الكثير وشعرها الغزير وروثها في الدفء. وقد اقتناه في البلد عبد الله الحفيظ، حسين الحفيظ، نمر أيوب، أسعد الغضبان، وأسعد النايف.

وكانوا يسمونها: النمرة (ذات اللونين الأسود والأبيض) والشقراء، والذنانية (ذات الأذنين العريضتين المنخفضتين)، والفتلا والبرشا والملحا (ذات الصدر الأبيض)، والغبشا (ذات الوجه المنقط بالأحمر والأبيض أو الأبيض والأسود) والصبحا والقطما والغرشا والغندورة والمحزّقة (ذات الضرعين المليئين بالحليب)..[٢].

القطط والكلاب، كانت موجودة في القرية ولا يحرص على تربيتها إلا من عنده قطيع غنم ليحميها من الحيوانات البرية المتوحشة.

الأرانب، كانت كثيرة في البلد، وكان أكثر من يقتنيها ويبيعها سعيد الصفدي ورشيد خالد علي. وكان يتحرج البعض من أكلها، إلا أن الغالبية اتفقت على لذة لحمها، ولم تكن تطبخ كما هو مشهور بالملوخية، بل كانت بالصواني (محمر مع بصل).

أما ذبحها فكان طبيعياً، إلا أن سلخها كان يتم غالباً باليدين وبدون سكين، حيث تمسك الرقبة بيد وتشد إلى أعلى، ويمسك بالجلد عند الرقبة باليد الأخرى، ويقشط قشطاً (يشد إلى أسفل).

الدواجن:

كان اهتمام أهل البلد بالدواجن عادة من عاداتهم، حيث كانت تربيتها من مهمة النساء في الغالب، خاصة بالنسبة للدجاج، فهي مصدر الرزق المنزلي الأهم في القرية، وفي الوقت الذي لم يوجد في البلدة بعض أنواع الدواجن كالبطّ والوزّ والديك الرومي، كان منها:

١- الحمام: وقد كان قليلاً في البلد، نظراً لأن تربيته في البيوت تحتاج إلى عناية وحماية خاصة، لا وقت لدى نساء القرية لها. وقد كثرت تربية الحمام في منزل محمد الحسين ومنزل أحمد سليمان منصور، وغيرهم..

٢- الدجاج: وهو أشهر الحيوانات والدواجن وأكثرها في البلدة، والدجاج تربية منزلية تقوم بها العائلات، ويستفاد من لحم الذكر (في الغالب) وبيض الأنثى، وفي كل بيت ديك واحد على الأقل، وعدد من الدجاجات. ولا تكلف تربية الدجاج سوى أن تُسرّح صباحاً في أفنية المنازل والحظائر والحواكير المحيطة بالمنازل وحيثما وجدت حبوباً أو حشرات التقطتها.

ومن أهمية بيض الدجاج، أن استعمال النقود كان نادراً في التعامل اليومي في البلد، وكان البيض هو النقد المعتمد في الغالب، وكانت وحدة النقد بيضة. فكان البيض كأنه عملة البلدة في بيع المفرق، فكانوا يشترون به من الدكان (الملح، الكبريت، السكر، الرز، الشاي، الخيطان، الإبر وغيرها..). أما صاحب الدكان، فكان يجمع البيض (الذي لم يكن له سوق عنده – فلا أحد في البلد يشتري البيض)، ويذهب به إلى عكا حيث يستبدله ببضاعة أخرى يحضرها معه لبيعها من جديد.

الطيور:

لم يهتمّ أحد من أهل القرية بتربية العصافير أو تحنيط الطيور الكبيرة، رغم أن محيط البلدة كان مليئاً بشتى أنواع الطيور، وكان لبعض هذه الطيور مواسم معروفة تظهر بها، أو تبدو أسرابها في السماء أثناء الرحيل الموسمي. ومنها الطيور الجارحة، والطيور العادية.

ومن الطيور البرية، الشحيتي (أبو الحنّ)، السنونو، الشحرور، الحسون، البلبل، الهزار،

اللغلغة، الترجمان، الدرجة، الدويري، الزرعي، السّمّن، البوم، الغراب، الباز، الباشق، الصقر والعقاب، النسر، اليمامة، الهدهد، القاق، الورور، الزريقي (أبو زريق)، الرقطي، الصّفري، الشويكي، المريعي (الفرّي)، أبو مصص، أبو حمار (العضّاض)، البجع (أبو سعد)، القطا، الحنيني، الزرزور، الشوحة (ومن الأمثال: تموت الشّوحة ونفسها بأكل الصوصان)، اللامي، الكركسة، السوّدي، أبو الويّ، أم الفسّ، الترغلّي، الحمّرة، أبو ذبّان، الدويكي، الشُكَّب، الكنار، اللبد، السحّاح، السمرمر، الدَلَمة.

النحل:

كان محمد إبراهيم حسين وعائلته أول من بدأ بتربية النحل والعسل واشترت أهل البلد منهم وربّت. ولكن أكثر من اشتهر فيما بعد بتربية النحل وجَنْي العسل هم عائلة الطيّار الذين اتخذوها مهنة لهم حتى اليوم.

وكان النحل يُربّى في القفير، وينتج العسل والشهد، وكان لكل منحلة طعم بحسب الأرض التي يمتصّ النحل رحيق زهورها.

وليس لأهل أي بلدة فضل في وجود غير الأليف من الحيوانات والطيور، ولكنها حكمة الخالق، ولعل من الأفضل أن يُذكروا ضمن خصائص الأرض وليس ضمن اقتصاد البلدة. خاصة أن بعض هذه الحيوانات والطيور كان يؤثر على اقتصاد البلد، سلباً (سرقة دجاج أو الفتك بقطيع) أو إيجاباً (الصيد)، لذلك من المفيد ذكرها هنا.

الصيد:

لم يكن الصيد في البلد، بل في جوارها، حيث جحور الحيوانات وأوكارها. وكان يتمّ بالأفخاخ وليس بالبنادق والرصاص. ومن صيادي البلد أبو أسعد قدورة وأخوه محمد قدورة وأبو فخري (الخوالد) الذي أعدمه اليهود لدى احتلالهم القرية.

ومن الحيوانات البرية في جوار البلدة:

١- الثعلب وابن آوى: وكانت تهاجم الدجاج ليلاً، وكان أهل البلدة يحتاطون منه بالأفخاخ أو بتخبئة الدجاج في مكان آمن.

٢- الذئب: وكان يهاجم قطعان الماشية ولا يردّه عنها سوى كلب الحراسة الكبير الذي كان يعتمد عليه الراعي كثيراً، والذي كان ينبح على الذئب فينتبه الراعي ويلحقانه إلى أن يختفي. ومن المعروف أن أول من يحس على الذئب هو الغنم فيهيج القطيع ويتحرك بقوة لينتبه الكلب والراعي. أما إذا كانت (الغنمة أو العنزة) شاردة، فالعوض على الله!. والحديث الشريف يقول (يد

الله مع الجماعة.. إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية).

وتشتهر في البلد قصّة (جاي يا غلمان جاي)، وهي قصّة عامة، لكن أهل القرية يروونها عن راع كان في الجهة المقابلة من وادي الحلزون، وكان يصرخ على أهل البلد (جاي يا غلمان جاي)، بمعنى أنقذوني من هجوم الذئاب على قطيعي، وكان كذوباً فلم يعد يصدقه أحد، إلى أن وقعت الحادثة الحقيقية، فصرخ بأهل القرية فلم يجبه أحد.

٣- الضبع: وهو حيوان جبان في النهار ولا يظهر إلا في الليل يخاف من البقر والخيل، ويتجرأ على الحمار، ومن المعروف عن الضبع نفسه الدنيّة فغالباً ما يأكل من بقايا وفضلات الفريسة التي تصطادها الأسود والوحوش، وربما يأكل جيفة ملقاة على مزبلة. وإذا لم يجد ما يأكله يسطو على الدجاج، وإذا لم يجد يأكل تين المساطيح المشمّس على الأرض.

وكان أكثر مكان يخشى أهل البلد فيه الضبع أرض اسمها الرقبة، فيقال مِثل ضبع الرقبة، لأنها أكثر المناطق امتلاءً بالضباع.

ويحكى أن الضبع إذا التقت عيناه بعينَيْ شخص يضْبَعه (فيمشي خلفه على غير هدى)، ولكن ليس هناك إثبات علمي لهذا الكلام. ومن أمثال شَعَب الخاصة (فلان مثل ضبع يعنين).

٤- الغريري والنِّيص: وكانوا ينصبون الأفخاخ على أبواب جحورهم، وتؤكل لحومهما، ويباع جلد الغريري الثمين وريش النيص الملون بالأبيض والأسود.

٥- الغزال: في الفترة الأخيرة، أواخر الأعوام قبل النكبة، أصبح نادراً وجود الغزلان، ولكن الاحتلال بعد النكبة أقام محمية طبيعية قرب شَعَب ومنع الصيد في المنطقة مما زاد عدد الغزلان فيها بكثرة.

الحشرات والزواحف والقوارض:

يدل وجود بعض الحشرات وفقدان بعضها في أي أرض على طبيعة الأرض والبيئة (مناخاً وماءً)، وطبيعة استخدامات هذه الأرض والمزروعات التي يزرعونها فيها. بل وتدل أيضاً على الحيوانات الموجودة فيها، إذ ليس لوجود أي حيوان أو حشرة استقلالية تامة، بل هو متعلق بالظروف المحيطة بها. ومن الزواحف التي تواجدت في البلدة ومحيطها:

أبو قرع، والحردون، والبريصع (أبو بريص)، والسحلية، والحرباء، البزاقة، الحنش والحية، القرقعة (السلحفاة).

ومن الحيوانات الصغيرة الموجودة، الفأر والجرذ، والضفدعة، وكلب الماء، والأرانب البرية والقنفذ، والنسناس، والخلد.

أمـا الحشـرات، فبالإضافة إلى الحشـرات التي كانت تعشـش بـين المنازل (وكأنهـا أليفة!!) كالذبـاب والصراصيـر والبرغـش والبق والبرغوث والهسـهس والعنكبوت، كان هنـاك العقرب، أم أربعة وأربعين، أم علي والخنفسـاء، الجندب، الطزيز، الدبور، الفراش، النمل على أنواعه وألوانه، دودة الأرض، الزرقطة، الحباحب، الأرضة، العَلَقة.

* * *

(١) راجع باب الحياة الاجتماعية والمهن.

(٢) حسـين علـي لوبانـي: الدامون – قرية فلسـطينية في البـال، الطبعة الأولى، دار العربـي، بيروت ١٩٩٩، ص١١٤.. ذكر الكاتب أسماء كثيرة لبقية الحيوانات.

الفصل الرابع
الحياة الاجتماعية

المهن والحِرف والصناعات

المهن المعروفة في البلد محدودة الأنواع، وهي تختصر بالتالي:

١- متجـول: الباعـة المتجولون: مهنة عربية قديمة اشـتهرت بها قصة علاء الدين والمصباح السحري، (تجارة أو حِرف مثل: سن الذهب، والحلاقة).

٢- مستقر: المهن والحرف (الدكان والحلاق، والمعصرة، وغيرها..).

٣- خارج البلد: كالوظائف الحكومية والإدارية (أغلبهم لم يكونوا دائمي السـكن في شَـعَب، إلا أن الجميع عاد إلى البلد أثناء أحداث النكبة).

ومن هذه المهن والحِرف:

برّاك: وهو العامل في المعاصر.

بنّاء: أشهرهم كان يوسف الباشا.

تزيـين وبَـرز العرائس: كانت تتولى الأمر نجيبة العبـد (منصور) أم رفعت، وزليخة الحاج أحمد.

توليد: كانت آمنة الحسـنا (شـحيبر)؛ وهي إحدى غرقى وحل زبوبا، وفاطمة المسـلمانية؛ وهي سـيدة لبنانية مسـيحية من قرية (رميش) حضرت إلى البلد مع ابنتها وأسـلمت (وسـميت المسلمانية) وتزوجتا فيها، وهي زوجة عبد محمد (الخطيب).

حلاق: حسين الصفي ونايف الصفي (عُرِفا من بيت الحلاق)، وعبد الرحمن أبو عرب.

حنّانة (ضامنها الحلنجي أو الحننجي): ضمنها طه اليوسف (عبد الحليم شحادة)، سليمان معطي، وعلي الحاج (حسين).[1]

حياكة الحُصر: كان يعتمد أهل البلد على إنتاج قرية الدامون (راجع فصلاً كاملاً في كتاب الدامون عن هذه المهنة)، ويلحق بالحصر القفاف (لنقل الزيتون وبعض الثمار)، والبذاري (لنقل التبن من البيدر).

خدمة المسجد: اختلط على الناس القيام بمهام المسجد والتفريق بينها، واعتبر معظمهم أن المسجد كان فيه صالح عبد الهادي (الأسدي) وهو والد سعيد الوارد ذكره في شخصيات من البلد، وكان يقوم بالخدمة والأذان والإمامة. وهناك أيضاً الشيخ رفيق الشيخ ملك (وهو من أهل البلد ولكنه كان قاضي شرع في عكا ويأتي إلى البلد لكتب الكتابات ويقال له المأذون).

خياطة: فاطمة صفر (أصلهم من صفد)، فاطمة النمر، خضرا الشيخ خليل (شقيقة أبو إسعاف)، نجية حسين (زوجة فرج فاعور)، وزهرة الطيار (وكانت تختص بخياطة العرائس).

دكان: في الحارة الغربية كان هناك دكاكين لكل من: نمر شحيبر، رشيد نمر شحيبر، سيدي عامر (لم يُعرف له اسم آخر وهو من مجدل الصادق متزوج من زكية الصفي من صفد توفي في حلب)، محمد الأسعد (أبو علي عايشة)، أحمد سليمان منصور، فرج فاعور ومحمد مطلق شحيبر (شركة)، ومحمود الأسعد.

أما في الحارة الشرقية فكانت هناك دكاكين محمد شاكر (حسين شحادة)، وأحمد فاعور (شحادة الفاعور).

رعي وتسريح طرش البلد: كان يتولى رعي وتسريح طرش البلد عدة أشخاص وبالأجرة. وقد اهتم برعي البقر والمواشي عدد من الرعاة منهم: محمود حسين ومحمود فياض وأحمد حميد. أما خيل البلد فتولاها أحمد ومحمد الخطيب ومحمود سعد الدين (الخطيب).

سكّاف أو كندرجي: عبد الله الأحمد (فاعور)، أحمد ضاهر إبراهيم (الشيخ محمد)، وعلي حرب (أبو ناظم: لبناني من بنت جبيل جاء مع زوجته إلى البلدة عام ١٩٤٥، ورزق منها بولدين في شَعَب).

سلال: عبد الله أبو طيون، وأسعد خزنة (الحاج داود).

صابون: وكان يصنع من بقايا زيوت المواسم: محمود سعد الدين الخطيب.

طبيب: امتهنها أحمد الحلبي (وهو ليس من أهل البلد؛ راجع ما كتب عنه في فصل شخصيات من القرية).

عزف على المجوز والشبّابة: كانت هواية كل رعاة البلد، إلا أن مهنة الحدّا (الحادي) كان يتقنها من البلد محمد الخليل (طه)، ولم يكن الشاعر يوسف حسون قد ذاع صيته بعد.

عسل وتربية النحل: محمد إبراهيم حسين وعائلته (بدأوا تربية النحل والعسل واشترى أهل البلد منهم النحل وربّوها). وما لبث أن اشتهر به آل الطيار الذين أمسكوا المهنة في عام

١٩٤٢، ومـا زالـوا يعملـون بها إلى يومنا هذا في منطقة الحسـبة في صيـدا. وقد وجدت لدى آل الطيار عدة عقود مع شركات كبرى في لبنان لتدريب موظفيها على هذه المهنة.

غربال: وهو لقمح الطحين، و**الكربال** (يُهزّ به على البيدر)، والحلول (للتبن، عيونه واسعة، ويطلق «الحلول» على الرجل كثير الكذب)، وكل هذه الصناعات كانت يصنعها النَوَر في البلد.

فدادين أو عود الحراث: سعيد الصفدي، عبود النجار وابنه نعيم.

فرّان: كان عند سليمان معطي (حسين) فرن يعمل فيه حسن الفران من حيفا، وفرن أحمد عبد الحليم.

فلاحة وحراثة الأرض: كان كل شخص يفلح الأرض لنفسه، أو يفلح لغيره بالأجرة إذا لم يكن لديه موسم فلاحة أو أرض يضمنها، وممن فلح بالأجرة (على الربع: يؤجر بربع المحصول) صالح عبد اللطيف، داود وأحمد الوشاح، حسين المحمود، نايف هدهود، وعبدالله الحفيظ.

قراءة السِيَر: كانت تتم في المضافات والبيوت.

قصّابون: لم تكن المهنة رسمية في البلد، إذ لم يكن لدى اللحام دكاناً، بل كان يعلق ذبيحته في ساحة البلد، خاصة على جدار مقام أحمد العليمي، وكان يقوم بالمهمة أي رجل في البلد يريد أن يذبـح مـن ماشـيته أو خائف من نفقان بعض ماعزه. وكان أشـهر اللحامـين فيها: علي عزيز، محمد عبد الجليل، علي عبد الرحيم، يونس خالد وعلي موسى الأسدي.

قلع الأسنان: وقد اختص الحلاق عبد الرحمن أبو عرب بقلع الأسنان أيضاً.

مبيّض: جميل البيروتي (جاء من بيروت قديماً وسكن في الحارة الشرقية).

مجبّر الكسـور: نمر ووحـش ولطيفة الخليل (أم نافذ)، مطلق فاعـور، وآمنة عبد الحليم (شحادة).

مخضّر (حارس الزرع): كان كل واحد يحرس أرضه، إلا أن أهل البلد عينوا أربعة مخضّرين يتقاسـمون أوقات النهار وكانوا يتغيرون كل مدة، وأشـهرهم: مطلق فاعور، محمد حميّد، أحمد الحسن، ورشيد حمزة.

مطحنة: تطحن قمح ودرة وتجرش برغل، كانت المطحنة للشيخ أمين حمزة (المختار).

مطهّر: لم يكن في البلد أحد يمتهنها (كانوا يعتمدون على الصفوري، وهي مهنة امتهنها بعض أهالي صفورية حتى يومنا هذا).

معاصـر: الحاج حسـين فاعور، علي توفيق الخطيب، ومعصرة شـراكة بين حسـين عجايب (حمزة) وعبدالله الونّ وأحمد حسين.

ناطور عند المختار: أحمد أبو طيون.

صناعـات أخـرى: لم يكن من الممكن ذكر بعض الصناعـات التي يقوم بها أهل البلد، ذلك أنها لم تكن مهنة يسترزق منها، بل كانت النساء تقوم بها في البيوت مثل:

الكبائـس، والمجففات كالتين والمربيات كالتين واللقطـين، والفواكه والأطعمة على أنواعها، الأشربة، السلال، الطباق، مدّ عكر الزيت على المصاطب لتمليسها، وتستخدمه نساء البلد أيضاً

في تصنيع الصابون المنزلي، التحطيب، الحراث، الراعي، الخبز المنزلي، المكانس، والطرش وطلي الجدران والمصاطب بالطين..

مآكل ومشربات شَعَب

ولا تختلف مأكولات شَعَب عن جيرانها من القرى الأخرى، كالدامون والبروة ومجد الكروم وغيرها، وما سنذكره قد يحسبه البعض تكراراً للكتب الأخرى، ولكننا سنثبته هنا لعل بعض من قرأوا هذا الكتاب لم يطلعوا على غيره.

ومن مأكولات أهالي شَعَب ما كان يُطبخ وتوقد عليه النار (سلقاً، شيّاً، قلياً، أو طبخاً)، ومنها ما كان يخلط بدون نار (كالسلَطة)، ومنها ما كان يؤكل نيئاً من غير طبخ أو خلط.

ومن مأكولات شَعَب، ما كان يومياً، ومنها ما كان موسمياً (مثل رمضان والأعياد)، ومنه ما يخصون به الفلاحين أو الضيوف أو الشخصيات (كالمختار). وأفخم الطعام ما خالط اللحوم والطيور وغيرها من الحيوانات. وتبعاً لحياة الفلاحين فإن معظم الطعام لا يعتمد على ما يشترونه، بل على الموجود، كالقمح والبرغل والعدس والفريك والخضار والمشتقات الحليب والطحين.

ما يغلب عليه اللحم:

١- المسخّن، أو المحمّر، وهو طيور مقطعة في صينية مع البصل والزيت والبهار، وتحمّر في الطابون، وكانت كما ذكرنا سابقاً هديّة من ينزل إلى عكا لزيارة أقاربه. ويكون معه خبز مسخّن في الطابون مع بصل وبهار على وجهه.

٢- سمك، وكانوا يحضرونه من طبرية، ومن أنواعه المقلي والصيادية (سمك مع الرز)، وسمك بالطرطور (الطحينة)، وهناك السردين بالصينية.

٣- دجاج محشي بالأرز المُعدّ مسبقاً بخلطة.

٤- الكبّة: من اللحم المدقوق مع البرغل، وهي على أنواع وأشكال، ومنها النيء والمطبوخ.

٥- قصّ محشي بالأرز واللحم: ويعدّ في الأعراس، ويتندّر بعض شباب القرية أن العريس إذا أفلح في دخلته أكل القصّ، وإذا لم يفلح حُرِم منه، وهو اللحم المكتنز في كتف الخاروف.

٦- صينية لحمة مشوية في الطابون، ومثلها اللحمة مع بيض، أو مع خضار.

٧- المُغربيّة، ويتم إعدادها في قسمين، قسم من العجين (طحين مفتول على برغل)، وقسم مطبوخ مع بصل ودجاج وبهارات، ويُخلط القسمان عند الأكل، مثل اليخنة مع الأرُز.

٨- بطاطا بالصينية، وتُعدّ مع دجاج وبصل.

٩- ديك مكفّن، ويسمى كذلك بسبب طريقة إعداده، حيث يطيّنون الديك بالعجين، ويلفونه بخرقة قماش (كالكفن)، وتكون الخرقة مبلولة لأن الديك عندها يدفن في رماد الطابون.

١٠- الملوخية: ناعمة وخشنة، مع دجاج أو أرانب.

١١- فقاعية، أو شاكرية، واسمها الغالب في شَعَب، لبن إمّه، يطبخ بجانبها الأرُزّ.

١٢- يخنة بطاطا، يخنة بندورة، فاصولياء، بازلاء، ويخنة باذنجان (منزّلة حلبية)، غيرها..

١٣- ثريدة، وهي بالفصحى ثريد، مشهور بغزة، خبز يابس يخلط باللحم والمرق، وكان بعض أهالي شَعَب لا يفرقونه عن شوربة العدس باللحم مع فتة خبز.

١٤- هُفيت: يزيد عن الثريدة بالأرز واللحم، وهو كالتالي: خبز صاج فوقه أرُزّ، يضاف إليه المرق وفوقه قطع اللحم الكبيرة، وكلمة «هفيت» يستعملها من فتك به الجوع، فيقول: هفيت من الجوع. وهذا يدلّ على دسم وتأثير هذا الطعام في إشباع الجائع.

١٥- كروش: أو الفوارغ من أمعاء الذبيحة تحشى بالأرز واللحم المفروم وتخيّط ثم تطبخ.

١٦- المقادم: أو الكراعين، وهي قوائم الذبيحة.

١٧- راس الذبيحة: يسلق، ويسميه أهل الشام «راس نيفا».

١٨- أقراص كبّة محشيّة ببصل ولحمة تطبخ مع اللبن.

١٩- القَوَرْما: لحم مجفف ومُعدّ للطبخ، كان بديلاً عن التجميد في الثلاجات.

ما لا يغلب عليه اللحم:

٢٠- كوسى محشي: يطبخ مع لبن أو مع رب بندورة. ويُحشى بالأرز أو البرغل، مع لحم أو بدونه، حسب القدرة والعادة.

٢١- باذنجان محشي: يحشى مثل الكوسى. ومثلهما القرع.

٢٢- البطيخ الصغير قبل اكتمال نموه، كانوا يطبخونه محشياً بالأرز أو البرغل.

٢٣- ملفوف: ويُلف على حشوة مثل حشوة الكوسى والباذنجان.

٢٤- ورق عنب محشي.

٢٥- قرنبيط: ويطبخ بعدة أنواع: يخنة، مع طحينة، وفي العجّة، وقلي.

٢٦- البرغل المفلفل: يسلق مع الزيت والبصل، ويسمي أهل القرى البرغل المطبوخ سميدة.

٢٧- سميدة ومرّار، ما زالوا يتعازمون عليها في الشتات. برغل مع نبتة المرّار.

٢٨- سميدة وعكّوب، برغل مع نبتة العكوب ذات الشوك الذي ينزع عنه بصعوبة بالغة، وقد يطبخ العكوب وحده أو يطبخ مع البيض.

٢٩- سميدة وبندورة، يسلق البرغل مع البندورة، ومنه ما يسلق مع رب البندورة.

٣٠- سميدة وكوسى.

٣١- سميدة وبقل.

٣٢-سميدة وفول.

٣٣- ملفوف بسميدة.

٣٤- ورق دوالي بسميدة.

٣٥- سميدة وشعرية.

٣٦- كبّة كذّابة، وتسمّى كبّة الغايب جوزها، وتستبدل البطاطا المسلوقة باللحم فيها.

٣٧- لبَنيّة بسميدة.

٣٨- دشايش: طريقتها السهلة: يعدّ البرغل المطبوخ مع الزبدة ويقطع إلى أقراص. أما الطريقة الأصلية فليست مع البرغل بل هي: قمح مجروش ينقع ليفصل عنه النّشا، يُعصر ويضاف إليه بعد عصره بصل وبهار وملح، ويُخبز أقراصاً في الطابون، ويؤكل ناشفاً أو تُغمّس به الخبيصة.

كما لاحظنا، هناك أكثر من أربعة عشر نوعاً من الطعام المطبوخ يستخدم فيه البرغل كمادة أساسية، عدا عن المحاشي التي تستخدم البرغل، ويعود ذلك إلى أنّ الفلاحين الذين يزرعون القمح بكثرة يعتمدون في حياتهم وغذائهم أساساً عليه، وهم يستغلّونه إلى أقصى الحدود، من الزراعة والحصاد إلى البيدر الذي يشهد في كل مرحلة من مراحل تحضيره نوعاً من القمح (بدءاً من القمح والفريك والبرغل وصولاً إلى التبن والشعير).

وإلى جانب القمح والبرغل، يعتمدون أيضاً على العدس:

٣٩- مجدّرة: وهي أكلة للفلاح لأنها تسند البطن (كما يقولون). منها الحمرا والبيضا.

٤٠- مخبوصة: رز وعدس مخبوص.

٤١- رز وعدس: ناشف.

٤٢- شوربة رز مع عدس.

٤٣- شومر بعدس.

٤٤- عدس صحيح.

٤٥- العدس المجروش، وهو شوربة العدس.

وبسبب اعتمادهم على الخضار، يكثرون من الأطعمة المَحْيوسة والسلطات، ويطبخونها مع البرغل غالباً، وسيلاحظ القارئ أن التنويع في البرغل أتى من تنويع الخضار، ومن متفرقات المأكولات:

٤٦- الفريكة: مع اللحم أو بدونه.

٤٧- الفطر، فطاريش، مع بصل أو مع بيض.

٤٨- بيسارة، أو بصارى: وهي ملوخية ناشفة مع فول مجروش.

٤٩- الفرفحيني، محيوسة ونية.

٥٠- السلق، محيوس ومحشي ومع الملوخية الناشفة.

٥١- اللوبية، وتختلف تسميتها بين القرى، ومنهم من يسميها فاصوليا خضراء ويطلق اسم اللوبية على تلك الرفيعة (المسلاة أو المجنونة).

٥٢- البامية.

٥٣- العكّوب، وقد كان له دور في عدد من الطبخات الشَعَبية، مثل سميدة وعكوب، عكوب

بالبيض، عكوب بالعجة، عكوب بطحينة، عكوب بالأرز (مقلوبة)، محيوس.

٥٤- الخبيزة.

٥٥- الهندباء: أو العِلت، قد تطبخ أو تؤكل كمقبلات مع الطعام، أو مع زيتون.

٥٦- رشتاي: بالعدس أو الحليب.

٥٧- الشيش برك، والتسمية تدل على أنها تركية (شيش: سيخ قطع، برك: عجين، كما هو الحال في تفسير: شيش طاووق).

٥٨- مقرة بلبن، والمقرة نبات بري مثل الفجل، وقد يستعمل في الكبائس، انقرضت هذه الطبخة قبيل النكبة.

٥٩- مشوّشة: بصل أخضر محيوس.

٦٠- قطّوسة.

٦١- فول مدمّس.

٦٢- حمص مدمّس.

٦٣- بطاطا مسلوقة ومدمسة (ممعوسة). وقد تطبخ البطاطا مع بيض.

٦٤- منزّلة أو مصقعة.

٦٥- هليون مع البيض.

٦٦- سلطة قرصعنّة.

٦٧- سلطة بندورة.

٦٨- سلطة حامض.

٦٩- لوف مع حميضة وبصل وزيت. ولوف مع طحينة وكانوا يسمونه بَهْبَهيّة.

٧٠- الجِعْدة: وتعتبر مع اللوف من أسوأ المأكولات، حيث يصعب مضغهما ويسببان الرعية في الفم. وقد ندر من يطبخها في البلد قبيل النكبة، ويتم إعدادها بصعوبة: تُقطف ثم تُشكّ بالخيطان وتعلق حتى تنشف، ثم تسلق وتعصر، وتُحاس ويفقص فوقها البيض. وفي البلد مثل يقال للجالس: يا عيني على هالقعدة مثل البيض عالجعدة.

٧١- فول أخضر: محيوس، أو يسلق مع حامض وثوم، أو رز وفول، وسميدة وفول.

٧٢- البقل المحيوس: والبقل يضم المسيكة والخبيزة والقوصان والمرار وغيرها..

٧٣- الزيتون الكبائس المتنوعة.

٧٤- نباتات تؤكل ناشفة كمقبلات، مثل العِلت والبصل الأخضر والفلفل وغيرها.

وفي هذا ننقل بضعة أبيات من مطلع منظومة زجلية قالها حسين لوباني (الداموني) وأثبتها في كتابه عن قريته، يعدّد فيها أصناف الطعام:[٢]

سقى الله يا إمي عارغيف من الكماج ... وع خبز السخن طالع من الطابون
وصونيّة محمّر من صوصان ديك الجاج ... عصافير مقليّة بزيت من الزيتون
ومنسف رز بلحم عا صدر رجراج ... مقلى فراطيش بيض مع هليون
ع قرّة وقرصعنّة ما عليها سياج ... عا صحن دقّة وورق زعتر من الطربون

التعليم في شَعَب

كان التعليم في البداية في الكتّاب الذي كان عبارة عن غرفة صغيرة، ومن الشيوخ الذين علموا في الكتاب في القرية الشيخ حسين علي الخطيب والشيخ سليم زيتون والشيخ سعيد أبو الهيجاء والحاج أمين الحسين والشيخ حسن شحيبر والشيخ طه، وقد اقتصر التعليم على القرآن الكريم والحساب، وكانت أجرة الشيخ عبارة عن مواد غذائية مثل الزيت والقمح والبيض.

كان نظام التعليم يعتمد على المدرسة حيث افتتح العثمانيون المدرسة الأولى سنة ١٣٠٥هـ أي ١٨٨٨م. وقد وصلت صفوفها في شَعَب إلى صف السادس الابتدائي سنة ١٩٤٢ – ١٩٤٣ كما ذكر كتاب «بلادنا فلسطين».. وفي عام ١٣١١هـ - ١٨٩٤ م كان عدد الطلاب ٣٠ طالباً ذكراً فقط[٣].

وقد أقيمت المدرسة الأولى في منزل علي القاروط (الحسون)، ثم انتقلت سنة ١٩٢٩ إلى ضهر العين قرب العبهرة (المدخل الغربي لشَعَب). وفي سنة ١٩٤٤ قررت لجنة القرية الممثِّلة لجميع العائلات بناء مدرسة هناك (قرب عين القرية والعبهرة)، وما زال هذا البناء موجوداً حتى يومنا هذا ويستعمل غرفاً للتدريس في مدرسة شَعَب الجماهيرية «ب».

أما أساتذتها فكانوا: عبد الرحيم دعّاس (١٩٣٢م) – خليل الديماسي (من عكا ١٩٣٣م) – مصطفى سعد (أبو سامي – من جنين ١٩٣٦م) – علي معروف وتوفيق الصادق (من دير القاسي ١٩٣٨م)- محمد كمال محيي الدين الصالح (ترشيحا – ١٩٣٩م) – محمد سعيد الآغا – خليل حمد (الصفصاف) - علي القاضي – أبو بكر أحمد البرقيني (من برقين – نابلس مساعد مدرس ١٩٣٦م)- نجيب الطيّار (علم في عين حوض والدامون ثم في شَعَب وأصبح فيما بعد مترجماً في فريق الأمم المتحدة) – منيب فاعور، كان الأخيران من أكثر أبناء البلد تحصيلاً للعلم، تعلّما في الكلية العربية في القدس، التي لم تكن جامعة، ولكنها كانت أرفع كلية في فلسطين آنذاك، ومنتهى شهاداتها هي المتروكوليشن التي تؤهّل حاملها لدخول الجامعة.. وهذا ما كان يحدث مع مثقفي فلسطين، الذين كانوا يحضّرون للجامعة فيها، ثم يرحلون غالباً في طلب العلم إلى بيروت (كما فعل إبراهيم طوقان) أو القاهرة حيث الجامعات الأجنبية.

الطبابة والاستشفاء[٤]

كان أهل البلد يتطبّبون في عكا، ولم يكن في البلد أكثر من القابلة والمجبّر وقلاّع الأسنان، فكانوا يتداوون عند أطباء عكا من أمثال ناجي بيضون – وأنور الشقيري – ومانويل أوردكيان الأرمني – وأديب الخازن..

وفي حال تدهور الحالة كان ينقل المرضى إلى مستشفى في حيفا حيث الدكتور حمزة، كما حصل مع ضحايا الطوشة الأخيرة عام ١٩٤٥.

اللباس والزينة

(حطة وعقال بعشر قروش.. والنذل لابس طربوش!) من أغاني المقاومة في الثورة الكبرى ١٩٣٦، للشاعر نوح إبراهيم، واستخدمت لتشجيع أهل المدينة على هذا اللباس كي لا يلفت المقاومون الفلاحون بلباسهم جنود الاستعمار.

تقديم[٥]

يختلف في شَعَب، كما في كل القرى، اللباس بين الرجال والنساء والأطفال، ويختلف أيضاً بين كبار القرية وسادتها وأناسها العاديين، ويختلف كذلك لباس الشخص الواحد باختلاف المواسم والمناسبات والأماكن والمهن والحرف.

وفي اختلاف العادات والتقاليد والأزياء بين الشعوب علاقة مباشرة بالبيئة المحيطة تأثراً وتأثيراً، إما انسجاماً معها أو حماية منها. وليس في هذا إلا استثناءات بسيطة لا تكاد تذكر.

وكما يبدو للمراقب فإن التأثير الثقافي سابقاً حكم بتغيير الأزياء في البلدان النامية، إلا أنه اقتصر على أهل المدينة دون القرية والبادية، وذلك بسبب الاحتكاك الحضاري المباشر، واهتمامهم بالفكر الوافد والسياسة العامة، وبالتالي بالتبعية الثقافية التي أشار إليها بطريقة أخرى ابن خلدون في مقدمته، حول تأثر الشعوب الضعيفة المغلوبة بالقوية الغالبة، حتى ولو كانت تقاومها.

أما أهل القرى فإن تأثرهم باللباس والأزياء والعادات الغربية أقل مما هو لدى المدينة، وقد اقتصر سابقاً على أولئك الذين يترددون إلى المدينة، أو الذين حصلوا على وظيفة رسمية أو حصلوا على شهادات عالية.

ويعود سبب عدم تأثرهم بعادات ولباس أهل المدينة (غير المنسجمة مع بيئتها) لعدة أسباب، أهمها:

١- عدم الاتصال المباشر والاحتكاك الحضاري (بوسائل الاتصال المرئي والمسموع).

٢- الفلاحون يتمسكون بالأرض، وبالتالي بالعوامل البيئية والمناخية التي دفعتهم إلى هذا اللباس على مرّ الزمن، مما يزيد تمسكهم بالعادات والتقاليد والأزياء المتناسبة مع هذا الأمر.

أزياؤنا

بناء على ما تقدم، لم يعد خافياً على القارئ مقدار تأثر أجدادنا في القرية بالمناخ والبيئة والأرض. ولم يعد مستغرباً عدم التزامنا بما كانوا عليه بسبب انتقال جيلنا إلى المدينة، طوعاً أو كرهاً، ولتطور وسائل المواصلات والاتصالات.

وبتفحص سريع للأزياء التي كانت سائدة، سيكون بإمكاننا تقسيم اللباس القروي إلى ثلاثة أقسام، من حيث التأثر بالبيئة.

١- القسم العلوي: الذي يتأثر بالمناخ الآتي من فوق، حيث الشمس والهواء، فترى القروي يلبس الحطة لتحميه من الشمس ويثبتها بالعقال لئلا تقتلعها الريح، وفي شكل الحطة وتفصيلها ما يساعد على لفّ وتغطية الرقبة والتنفس في البرد والهواء.

وغالباً ما تكون الحطّة بيضاء في أوقات الراحة عصراً والمناسبات الاجتماعية، لما للبياض من تأثير في نفوس الحاضرين، كما يؤثر بلونها المناخُ فتكثر في الصيف حيث تردّ أشعة الشمس وحرارتها.

وتكون في الشتاء سميكة ومزركشة بالأسود أو الأحمر (الكوفية التراثية المعروفة) في الحقل أو العمل. إلا أن ثوار ١٩٣٦ و١٩٤٨ اعتمروا الحطة السوداء كلباس عسكري موحد، وكانوا يجلبونها من الشام.

٢- أما القسم السفلي فيتأثر بالأرض، فتتغير نوعية الحذاء بمقدار تغير رطوبة الأرض ونوعيتها، فيتراوح بين (الجزمة والسرموجة)، كما يتأثر بذلك أيضاً علو الثياب عن الأرض ولونها.

٣- القسم الأوسط، (كل ما يظهر من الشخص بالنظرة الأفقية، من الوجه حتى الساقين)، فهو الأكثر تأثراً بالعادات الاجتماعية، كالسترة: بالإزار والجاكيت، والتفاخر: بالساعة والسلسلة، والاعتزاز والحمية: بحمل السلاح أو الدَّبَسة والعكاز.

من هنا لا بد من لفت الانتباه إلى أن أي زيّ من الأزياء، لم يكن ليكون على غير ما هو عليه، صحيح أنه ليس بالثبات الذي يمثله تأثر لون الإنسان وشكله بالبيئة (كالأسود والأفطس)، ولكن تأثره يزداد منطقاً ورسوخاً وثباتاً كلما طالت المدة التي لزمته في تأسيس هذه العادات والتقاليد والأزياء.

هذا يقودنا أيضاً إلى الموضوع الذي أشرنا إليه في ما يخص الأرض والزراعة، حيث إن عامل المجاورة والأرض والبيئة المشتركة بين قرى قضاء عكا، سيجعلها متطابقة تقريباً بالمزروعات والإنتاج والكلام وحتى الأزياء.. ولسوف تتكرر هذه الفصول بين الكتب المهتمة بقرى القضاء، وليس لأحد من الكتّاب ذنب في تكررها، بل إن السبب الوحيد لذلك هو البيئة المشتركة بين هذه القرى.

تنقسم أزياء أهل القرية إلى ثلاثة؛ الرجال والنساء والأطفال، ونختصر هذه الأزياء بما يلي:[٦]

أ- أزياء الرجال:

نُجمل فيما يلي ملابس الرجال دون تكلف أو تفصيل مملّ ودون اختصار مخلّ: البرتشز (الجبور البريطاني)، البطل دْرِس (لباس الجيش البريطاني Battle dress)، البنطلون، الدكة، الثوب (القميص)، الجوارب (الكلسات واللكاليك)، الجاكيت، الحزام (القشاط)، الحطّة (الكوفية

والسلك، منها: الحطة الروزة، الحطة الحرير، الحطة البُوال، الحطة القزّ، الحطة الوطنية)، الدامر (جبة فوق القمباز)، السروال (الشروال واللّباس)، الساكو (الكبّوت)، الشال، الشملة، الطاقية (ومنها: طاقية رسم، الطاقية الخيوط، الطاقية المطرزة، طاقية القماش)، الطماقات (تلفّ على الساقين فوق البسطار)، العباءة، العقال (وهو أنواع ومقاييس، العقال المصنوع بالصنارة، عقال مرعز، عقال حرير، عقال قصب، الفيصلية)، القمباز أو القنباز (هو أشهر الألبسة التراثية، ومنه: قمباز الجوخ، قمباز صوف مقلم، قمباز شقة ديما، قمباز الروزة، قمباز الغيباني)، الكفوف، الكَلْبَك (لباس رأس تركي الأصل)، الكَمَر (حزام عريض)، الكنزة (الجورساي)، المشمّع (استعملوه في المطر الشديد).

أما الأحذية، فمنها البُسطار (ومنه الباتون إذا كان له أزرار)، البالوش، الجزمة، القبقاب، الفقروايه أو الصرماية (المشاية أو الحفّاي أو السرموجي)، الصندل، الصبّاط أو الكندرة (الحذاء).

وكان من الزينة وأدوات الاستخدام اليومي: بز السيكارة، البطارية، البارودة، الجربندية (علبة للأغراض الصغيرة أو التبغ)، الجزدان، الجفت (بارودة صيد)، الجوكلانة (عصا مدهونة)، الحبر والريشة، حجر الصوان (للمدخنين)، الحناء، ختم وطابع (للمختار)، الخنجر والشبرية، الخاتم، الدَّبَسة (عصا غليظة للدفاع عن النفس)، الدبّوس، الراديو (كان منه عند مصطفى الطيار والمختار)، الزنادة (لسن السكاكين أو فرك حجر الصوان عند المدخنين)، سن الذهب (امتهنها النَوَر)، ساعة الجيب، ساعة اليد، الشمسية، الشمع (لتثبيت وفتل الشاربين المعكوفين)، العطر، العويسية (سكين صغير)، العكاز (لكبار السن)، علبة الدخان، الغليون، فرشاة الحلاقة، القداحة، قشاط الموسى (يُسنّ عليه موسى الحلاقة)، الكحل (استعمله الرجال كعلاج والنساء كزينة)، لوح الحجر (بدلاً من الدفتر في المدرسة)، الليفة، المحرمة، المحّاية، مرآة صغيرة للجيب، المسبحة، المشط، معجون الحلاقة، المقص الصغير، مكنة حلاقة، مكنة خياطة، ملقط شعر، موسى الحلاقة، النظارات.

ب- أزياء النساء:

كان من لباس النساء في شَعَب: التنورة (للعمل، وحماية الثوب من الاتساخ)، الثوب (الفستان والشنتة والشنتيان)، الجلاّية (من أفضل اللباس)، الجاكيت، الحبرة، الحطّة (لزمتك الحطة، كانت تقولها النساء إذا دخل عليهن غريب قبل أن يلبسن الحطة، ومعناها أن عليه أن يلتزم بشراء حطة لها لما سبّبه من إحراج بالدخول دون إذن)، الدكّة، السروال (اللباس)، الساكو، الشطفة (مثل القمطة ولكنها تعقد فوق الحطة)، الشلحة، الشال، الصدرية (تلبس فوق الثياب كالجاكيت ولكنها تصل إلى الخصر وبدون أكمام)، الصاية (مثل الجاكيت ولكنها أخف)، العصبة، الكلسات، الكنزة، الملاية (الملاءة)، المنتيان (يلبس فوق الثوب كالصدرية الضيقة مع أكمام)، المنديل.

أمـا أحذية النسـاء فلا بد من الإشـارة إلـى أنه كان من العيـب أن تنتعل الفتيات والنسـاء بأرجلهن شيئاً، لأنه كان يعتبر نوعاً من التكبّر، وكان يقال عن التي تنتعل منهن: ممدّسة (تنتعل مداساً)، أو مُكندرة (تنتعل كندرة) وهو نوع من المذمّة لهن.

وكانت التي تغادر البلد أو تأتي إليها، تغير ما برجليها (تنتعل أو تخلع) عند مدخل البلد، حتـى أن الحطّابـات كـنّ يأخذن الكنـدرة معهن حتـى إذا وصلن إلى المناطق الوعرة ذات الشـوك ينتعلنها، وكان التحطيب يتم بعيداً عن البلد عند حدود سحماتا وغيرها من القرى. وكان يتكرر دائمـاً مشـهد الحطّابة التي تحمـل حمل الحطب على رأسـها وتضع كُنْدرتَها فـوق هذا الحمل. ويتندر أهل القرية الآن أن الحطابات كنّ يحملن كنادرهنّ فوق رؤوسهن بدلاً من انتعالها.

ومن أحذية النسـاء في شَـعَب في تلك الأيام: البابوج كعب الفلّين، الصرماية (مشاية زك)، القبقاب، الكندرة.

أمـا الزينـة، وليس هناك أكثر من الزينة عند النسـاء، فهي: الإسـوارة، البَرَق، بُكْلة الشـعر، البودرة والحُمرة، الجدايل (تزين الجدائل ببعض القماش والأشـكال المعدنية الثمينة)، الحباس (دبـوس الشـعر)، حجـاب الخرز (حول العنق)، الحفوف (العقيدة، الشـلغينة وهـو ما يعرف هذه الأيام بالسـكر)، الحناء، الخلخال، الخاتم (ومن أشـكاله خاتم صب، شـختورة، مثلث الحبّات أو الطبعات، خاتم أبو طبعة)، الدبوس الذهبي (يستعمل للسلاسل الذهبية والحليّ)، دبوس الزينة (بروش على الصدر)، دهون القشـب، زيت الشـعر، سنّ الذهب، الصابون (ومنه المعطر الذي يترك أثـراً عطرياً على الجسـم)، العطر (العربي والكولونيا)، الغـوازي (ومنها الجهاديات، قطع ذهبية عثمانيـة تربط بشـريط واحد من القماش، للجدايل أو العصبة علـى الجبين)، القرط (الحلق، ومـن أشـكاله العصفور، حبـة فوق حبة، الطـارات، الرباع والنصـاص، وفزدق العبيـد)، القرنفلة (قطعـة ذهبيـة تعلق فـي الأنف)، القلادة (وكانت شـائعة جداً) قلائد الخـرز، قلائد مميزة (مثل القـرآن الكريم، والماشـاء الله، والماسـكة، واللـوزي، والكردان المصنّـع فنياً ويربط مـن وراء العنق بسلسـلتين، والمُجـارة الذبلوني عبارة عـن ليرتين ونصف من الذهب، المخمّـس وهو خمس ليرات ذهبية)، الكبّاس، الكحل، الكْريم، كفّ الحصيدة، المباريم (تُشترى أزواجاً، وهناك الأساور السحب السـادة أيضاً)، المحرمة (تكون مطرزة، هي للاسـتعمال اليومي)، المرآة، المشـط (يذكر أن الماشـطة كانت تعمل للعرايس موديلات الشعر، ومنها موديل الكعكة رفع الشعر وضبّه وتجميعه على شكل الكعكة، ومنها رفع مقدمة الشـعر في موديل سُـمّي لاحقاً السـد العالي)، مشـط الزينة (يشـك فـي الشـعر كالدبوس)، المقـص، المكحلة والميل، ملقط الشـعر، الوَدَعة (قطعة مـن الصدف تعلق بسلسلة).

على أن أشـهر وأثبت أنواع الزينة عند النسـاء هو الوشـم، حيث كان يقوم به النَوَر الجوالون على القرى، وكانت النساء تكثر من الوشم والتزين بأشكال وموديلات ورسوم مختلفة.

ج- ألبسة الأطفال وزينتهم:

كان يتم تحضير جهاز الطفل قبل ولادته، ويختلف لباس وأحذية الرضيع عن الطفل والغلام، إلا أننا سنذكرهم دون تمييز، ومن ألبسة الأطفال:

السروال (ويكون فضفاضاً وبداخله الحفاض لمن لم يتعلم المشي بعد، وعندما يدخل المدرسة يلبس سروالاً قصيراً على شكل شورت حتى ينهي الابتدائي)، الطاقية (غير طاقية الكبار المعتادة فهذه من الصوف)، القميص، الكلسات، اللفة الخارجية (للرضّع)، المقمطة (الملفّة).

وينتعل الأطفال: الحذاء أو البسطار، الصندل، السرموجي (المشاية).

الأحزاب السياسية في شَعَب

لم تصل الأحزاب السياسية المعروفة إلى شَعَب ولم تنتشر كما كان حالها في المدن الكبيرة، فالقضايا التي كانت تتناولها هذه الأحزاب لم تكن بمستوى رغبة الفلاحين، الذين كانوا يرغبون برؤية البارودة والتدريب، وليس المناورات السياسية والخلافات الداخلية بين تيارات الحسيني والنشاشيبي وغيرهم..

كما أن الثورة ورجالها في حرب ١٩٣٦ لم يكونوا مؤطّرين في تنظيمات سياسية بقدر ما كانت تياراً وطنياً يحملون السلاح تحت لوائه وقادته الميدانيين. ورغم أن أبو إسعاف كان قسامياً؛ إلا أن القساميين انتهى وتشتت إطارهم التنظيمي بعد الثورة.

غير أن منظمة واحدة استطاعت الوصول إلى شَعَب وتأسيس شُعبة فيها، وهي منظمة النجادة التي تأسست في يافا عام ١٩٤٥ وأعلن مؤسسوها منذ بداية نشاطها أن هدفهم الرئيس هو إكساب الشباب العرب المعرفة والتدريب العسكريين تحت غطاء نشاط رياضي. وفعلاً، بدا الطابع العسكري للنجادة في المظاهر الخارجية، مثل الرتب والألقاب العسكرية والرقم الشخصي، ناهيك عن فرض الطاعة العسكرية، وارتداء الزي الرسمي، والتقسيم إلى وحدات كما في المبنى العسكري تماماً.

وكان شعار حزب النجادة «بلاد العرب للعرب». ومن خلال بيانات المنظمة التي وزعت بين فترة وأخرى، يمكن الإشارة إلى أهداف أخرى، مثل الرغبة في خدمة الأمة والبلد بطرق ناجعة بعيداً عن الشعارات الخاوية وتأليه الشخصية، وفي رصّ الصفوف ودعم الشباب..[٧].

تؤكد ملفات منظمة النجادة –كما ذكر الدكتور مصطفى العباسي–[٨] إلى أنها نجحت في التوسع سريعاً في الجليل الأعلى، ففي سنة ١٩٤٧، بلغ عدد فروعها في القضاء ٢٥ فرعاً، وكذلك انخرط مئات القرويين في صفوفها.

ويورد العباسي جدولاً لفروع الحزب في القرى، ذاكراً أن فرع قرية شَعَب كان يضم ٤٥ عضواً.. وقد ذكر لي بعض أهل صفد (آثر عدم ذكر اسمه) أنهم كانوا يأتون إلى قرية شَعَب في مخيمات كشفية، وقد كانوا فتياناً لا يعرفون التفاصيل، ويبدو أن هذا هو تفسير تلك المخيمات.

وقد أكد إبراهيم حسين (أبو حلمي)[٩] أن حزب النجادة كان له شعبية في بداية الأربعينات،

وأنـه (أبـو حلمـي) كان عضـواً في الحزب، وأن مسـؤول الحزب فـي البلد كان فهد الحاج حسـين (فاعور)، ونائبه وأهم كوادره على الإطلاق (الرجل القوي) عوض الشـافع (محمود حسـين)، أما المدرب العسكري لعناصر الحزب فكان فضل العلي (فاعور). ومن الواضح أن أعضاء الحزب كانوا من آل حسـين وفاعور في الغالب، ولم يُسـجل لآل الخطيب والأسـدي حضور في الحزب.. وهذا مما يؤسف له أن السياسة كانت تتحكم فيها الإرادات العائلية والعشائرية..

غيـر أن الحـزب بدأ يخبو في الأعوام التي سـبقت النكبة، وذلك لأنـه اصطفّ مع الأحزاب الأخرى في تشـابه الأنشـطة، ولم يسـتطع تحقيق مـا تميّز به من خطاب عـن الآخرين (كالقوة العسكرية، ودعم دور الشباب،..).

وإبـان النكبـة تلاشـت كل الانتمـاءات السياسـية، واتحـد أهـل شَـعَب للدفاع عـن قريتهم، واستطاعوا أيضاً لمّ عدد من شباب القرى الأخرى للمشاركة في المعارك الدائرة..

ألقاب شَعَبية

جمعنا من الألقاب في شَـعَب ثمانية وثمانين لقباً للذكور وأربعة وعشـرين لقباً للإناث، أي مئة واثني عشر لقباً، آثرنا عدم إثباتها هنا بناء على رغبة الكثيرين من كبار السن، لِما قد تسببه من حزازات..

وكانـت الألقـاب عبارة عن «محطّ كلام» كان يكرره صاحبه، أو أسـماء أطلقتها الأمهات على أولادها خوفاً من الحسد، أو ألقاب متوارثة، أو ألقاب متعلقة بحدث ما أو بشكل صاحبه..[١٠]

ملاحظات على الألقاب

الألقاب كان يطلقها كبار البلد على صغارها فترافقهم طول العمر.

تتنوع أسباب الألقاب، ولعل هناك فرصة لدراسة اجتماعية بواسطتها.

هنـاك بعـض الألقـاب التي يصعـب الاحتفـاظ بها بسـبب إسـفافها. وبعضهـا كان يزعج أصحابها لدرجة نشوب مشاكل وخلافات بسبب هذه الألقاب..

النسبة إلى بلد: عندما تُنسب عائلة إلى بلد ما، فإن هذه العائلة لا يمكن أن تكون في البلد نفسه، فلا يمكن أن تجد الحلبي في حلب والبيروتي في بيروت والميعاري في ميعار واللوباني في لوبيا.. لذلك فإن من ينسب إلى بلد إما أن يكون أصله منها أو أنه كثير التردد عليها، ومن نُسبوا إلى بلد في شَعَب ليسوا من أهل شَعَب الأصليين.

* * *

(١) أخبرني إبراهيم درويش في لقاء تم في آب ٢٠٠٥ في مدينة صيدا، أنه وجد دفتر الحنانة الخاص بوالده محمود درويش المصطفى (الشيخ موسى) عند أقاربه عندما زار فلسطين، وكانت حسابات الحنّانة تحسب بالعتبات، لكل أسرة عتبة.

(٢) حسين علي لوباني، الدامون، ص١٢٦.

(٣) الموسوعة الفلسطينية – القسم الخاص – المجلد الثاني، ص ٩٣٨.

(٤) راجع شخصيات من القرية.

(٥) قصدت أن لا أقرأ أي بحث بهذا الخصوص كي لا تتأثر فكرتي به، رغم أن الموضوع أخذ حقه من الأبحاث في معظم المراجع الفلسطينية كالموسوعة وغيرها.

(٦) تناول الموضوع بدقة وموسوعية محمود دكور في كتابه «قديثا» ص٢٢٩، كما تناوله بتفصيلٍ حكواتي ممتع حسين علي لوباني في كتابه «الدامون» ص١٦٩.

(٧) بيان نويهض: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين (١٩١٧-١٩٤٨).

(٨) الدكتور مصطفى العباسي - صفد في عهد الانتداب البريطاني ١٩١٧-١٩٤٨ دراسة اجتماعية وسياسية – ص٢٥٠.

(٩) شهادة شفهية في آب ٢٠٠٥ في منزله في مخيم برج البراجنة.

(١٠) بناء على نصيحة عدد من كبار البلد، آثرنا –قبيل الطبع- عدم نشر هذه الألقاب، والاحتفاظ بها لدينا، لئلا تتسبب بأذى لأصحابها، على أن نبقي الملاحظات التي أدرجناها..

الفصل الخامس
شخصيات من شَعَب

كثيرة هي الشخصيات التي تستحق أن تُذكر في هذا الفصل، وهو أحد أكثر الفصول إحراجاً، خاصة أمام كبار البلد ممن كان لهم دور مهم في معارك الدفاع عنها أو فيما بعد النكبة.

إلا أننا وضعنا في الاعتبار شرطين أساسيين كمعيار لاختيار الشخصيات: الأول، ينطلق من منهج الكتاب الذي حددنا فترته الزمنية حتى العام ١٩٤٨، ما يعني أنه سيتناول فقط أولئك الذين كان لهم دور حتى تلك الفترة، أو أولئك الذين بدأ تَشكُّل شخصياتهم قبل العام ١٩٤٨، كالشاعر يوسف حسون الذي لفت الانتباه إلى نبوغه وإبداعه قبل النكبة. أما المعيار الثاني، فهو أننا لن نكتب عن الأشخاص الذين ما زالوا على قيد الحياة حتى تاريخ تحرير هذا الكتاب.

وهذا مما حرمنا من الكتابة عن أناس أبدعوا فيما بعد النكبة، وكان لهم كبير قدر وعظيم واحترام. إلا أننا نأمل أن يستطيع أحد أبناء البلد، وخاصة من الداخل أن يتابع الكتابة عن «شعب بعد النكبة»، الأمر الذي يعفيني من تعداد عدد كبير من أفاضل أهل البلد الذين تميزوا بالعلم والتجارة والعمل النضالي والأدب والذاكرة وحسن الخلق و..إلخ.

كما أن الشخصيات المختارة في هذا الفصل يمكن القول أنها نوعية وانتقائية، وليس فيها تفضيل أو معايير سوى التميّز (في الخير أو في الشر). لذلك نعتذر لمن لم نذكرهم في هذا المجال. وقد كان بودي الحديث عن إحدى شخصيات القرية (الحسحوس: المشهور بالاحتيال) إلا أنني واجهت عاصفة معارضة آثرت الانحناء أمامها.

أبو إسعاف القسامي
(قائد حامية شَعَب)

إبراهيم علي الشيخ خليل: (١٣٣٤-...)هـ.(١٩١٥-...)م.[١]

المجاهد إبراهيم علي الشيخ خليل (أبو إسعاف)، ولد عام ١٩١٥م في قرية شَعَب الفلسطينية قرب مدينة عكا، أنهى دراسته الابتدائية في مدرسة شَعَب، وتوفي والده منذ صغره، فانتقل إلى مدينة عكا ليعمل في وزارة الزراعة وما لبث أن طرد منها بسبب ميوله الوطنية، فانتقل إلى حيفا حيث عمل في سكة الحديد.

تعرف خلال وجوده هناك إلى الشيخ عز الدين القسام، إلا أنه لم يُقبل ضمن جماعة القسام لصغر سنه، ولكنه ما لبث أن انضم إلى جماعة القسام بعد أن قام بعدة عمليات بنفسه دون علم جماعة القسام، ويشير إلى ذلك قائلاً (سألوني إن كان هناك أشخاص يعملون بالعمليات فأجبت بالنفي، وسألوني من الذي ينفق عليك فذكرت لهم، بأنني أبيع حلي زوجتي. فقالوا لا تشتري شيئاً من الأسلحة لأننا سنزودك بالقنابل والمسدسات، وفي اليوم التالي جاءتني أم علي حمادة -زوجة المجاهد القسامي حسين علي حمادة الذي كنت أسكن داره- في يدها سلة من بصل، وقالت احرص على ما فيها، ووجدت فيها ثلاث مسدسات وخمس قنابل يدوية وباشرنا العمل ضمن فصيل ناجي أبو زيد، وكانت أكثر مهماتنا ضرب واغتيال البوليس اليهودي الذي كان ينتشر بالأحياء العربية).

وفي ٣١-٤-١٩٣١(هكذا)[٢] اعتقل أبو إسعاف في معتقل بيت جليل بحيفا حيث ذاق شتى

أنـواع العـذاب، ثـم نقل إلى معتقل المالكية علـى الحدود الفلسـطينية اللبنانية حيث مكث عدة أشـهر. بعـد خروجـه من المعتقل التحـق برفاقه القسـاميين الذين التجأوا إلى سـوريا هرباً من المطاردة الإنكليزية، ثم اتجه إلى بغداد وبقي هناك لمدة عام حيث اشترك مع إخوانه الفلسطينيين مع ثورة رشـيد عالي الكيلاني في الدفاع عن بغداد ضد الإنكليز، ثم اتجه إلى سـوريا ومن هناك إلـى تركيـا ثم عاد إلى دمشـق حيث أقـام مع المجاهدين الفلسـطينيين لمدة قصيـرة، عاد بعدها إلـى فلسـطين لمتابعـة الجهاد، إلا أنـه وضع قيـد الإقامة الإجبارية فـي بلدته مع وجـوب إثبات وجوده أسـبوعياً في عكا أمام حاكم اللواء الإنكليزي، وحينما أُعلن التقسـيم أعلن الشعب رفضه لهذا القرار وحمل السـلاح لإسـقاطه، وكان لأبي لإسـعاف دور كبير في هذا المجال، ذلك أنه قام بالاشـتراك مع الهيئة العربية العليا بشـراء الأسـلحة من مصر ونقلها إلى فلسـطين، واستطاع بجهوده المتواصلة أن يشكّل فصيلاً كبيراً مع كامل أسلحته في قرية شَعَب حيث قام بهجوم على القوات اليهودية التي احتلت البروة قرب عكا، واسـتطاع أن يسـتعيد القرية بعد مقتل عدد كبير من الصهاينة[٣].

ومـن المعـارك التـي قادها معركة ميعـار ومعركة الدامـون، ففي معركة ميعار اسـتطاع قتل عدد من اليهود واحتفظ بجثة العقيد سيغيف قائد المعركة، وقام بتسليم الجثة مقابل انسحاب اليهود من منطقة راس الزيتون التي تبلغ مسـاحتها حوالي عشـرة كيلومترات مربعة وتسليمها للمجاهدين الفلسـطينيين[٤]؛ إلا أن الأمور سـارت بعد ذلك على غير ما يريده شـعب فلسـطين ذلـك بعـد انقطـاع الذخيرة والمؤن وما يقابله من الجانب الآخر من دعـم كامل لليهود بكل أنواع الأسـلحة والمؤن أدى إلى سـقوط قسـم كبير من بيد العصابات اليهودية، فانتقل أبو إسـعاف إلى لبنان حيث التحق (على رأس حامية شَـعَب) بقوات اليرموك التي كانت تُشـكل قبل ذلك جيش الإنقاذ، ومنح رتبة ملازم وعُهد إليه بقيادة سـرية شَـعَب ضمن القوات، ثم انتقل إلى سوريا حيث انضـم إلـى فـوج أجنادين وعين فيه قائداً للسـرية الأولى ومسـاعداً لآمر الفـوج. إلا أن الضعف الرسمي العربي أمام التحديات الصهيونية أبعدته عن خطوط القتال، فاتجه للعمل الزراعي في منطقة حوران، ثم سـافر إلى إمارة قطر حيث عمل هناك في دائرة المعارف لمدة اثني عشـر عاماً. خلال وجوده في قطر كان يقوم بواجبه الوطني وحينما قامت منظمة التحرير الفلسطينية عُيّن عضـواً فـي المجلس الوطني الفلسـطيني، وكان له نشـاط فاعل في بعـض العمليات التي نفذها الفدائيون الفلسطينيون بعد عام ١٩٦٥ ضد العدو الصهيوني على أرضنا السليبة.

كمـا كان له نشـاط في بعـض العمليات عام ١٩٨٣ التي اسـتهدفت العـدو الصهيوني الذي احتـل لبنـان عـام ١٩٨٢، ولم يكـن يتقاضى مقابل عمله أجـراً إنما كان دافعه فـي كل هذا قيامه بواجـب الوطـن مـن كل مخلص ومحـبّ لأرضه وتراثه وشـعبه. ولا زال أبو إسـعاف يقوم بواجبه الوطني قدر استطاعته وقناعته.

مقابلة مع أبو إسعاف[٥]

التجربة الجهادية والاعتقال:

كنت أعمل في حقل مملوك ليهودي اسمه «ماكوفيتش»، وفي يوم من الأيام أساء اليهودي لأحد العمال بألفاظ تسيء للإسلام فقمت بضربه وعلى أثرها طُردت من عملي وبعد هذه الحادثة سجنت بتهمة حرق البيادر وكان عمري ١١ عاماً. واعتقلت في سن الرابعة عشرة إثر نسف جسر ما بين عكا والسميرية أثناء المظاهرات وحقق معي الإنجليز في سجن عكا ولم أعترف، وأفرج عني.

التعرّف على الشيخ عز الدين القسام:

بعد خروجي من السجن عملت في سكة الحديد، وكنت أسمع عن الشيخ عز الدين أنه عالم وثائر ويعطي دروساً في مسجد الاستقلال، فذهبت أنا وثلاثة من زملائي إلى المسجد، فوجدناه يلقي درساً عن الجهاد فتشجعنا، وبعدها تطرق إلى موضوع مبطلات الوضوء فتفاجأنا، وبعدها عرفنا أن أحد عيون الشيخ أشار إليه بقدوم أحد العملاء. وأخذت أتردد على مسجد الاستقلال لأصلي وأستمع لخطب الشيخ الجهادية، وبعد الخطبة كان يقوم الناس ليسلموا عليه ويقبلوا يديه.

وفي إحدى المرات صافحته وأحسست أنه ضغط على يدي، ففهمت من ذلك أن أتبعه دون أن أمشي معه إلى أن وصلنا إلى بيته، فدخلت وكان هناك ثلاثة رجال، وعندما شاهدوني همّ بعضهم بالخروج فتبعهم الشيخ، وسمعت أنهم يقولون عني صغير أو أولاد صغار فبكيت وقمت، فأمسك الشيخ عز الدين القسام بيدي وتحدث معي كلاماً طيباً، وقال لأحد جلسائه وهو الشيخ محمود زعرورة أنا لي نظرة في هذا الشاب وجلسنا قليلاً ثم انطلقت. وأصبحت أتردد على جلساته القرآنية.

تاريخ جهادي:

اشتُهر القساميون بعملياتهم الجهادية في شوارع حيفا وأخذتني الغيرة والحماس فاشتريت قنبلة من مالي الخاص ورميتها على مطعم يجلس فيه اليهود والإنجليز وهربت. وفي اليوم الثاني كتبت الصحف: إلقاء قنبلة على مطعم يافا كان فيه عدد من الضباط الإنجليز من بينهم الميجر «ستوب». ورميت قنبلة ثانية وكتبت الصحافة أيضاً مجهول ألقى قنبلة على باص يهودي وأصيب بعضهم بجراح خفيفة وانتشرت إشاعة بإصابة ٤٠ شخصاً وعشرة قتلى.. كما نفذت مع إخواني من ٧ إلى ١١ عملية في مدينة حيفا.

أما أشهر العمليات التي قام بها القساميون:

تفجير عمارة مكوّنة من خمسة طوابق بها ضباط إنجليز.

تفجير عمارة من أربعة طوابق بها ضباط إنجليز.

عملية الدرج أسفرت عن مقتل اثنين من اليهود وأخذ أسلحتهما.

معركـة بيـت جنّ كانت معركة قويـة جرح فيها اثنان من إخواننـا وأصيب العديد من جنود الاحتلال.

معركة (جربا) حيث سـيطرنا على منطقة يوجـد فيها البوليس الإضافي «العملاء». ووفق الآية القرآنية قال تعالى ﴿إنما جَزَاءُ الذينَ يُحاربونَ اللهَ ورسـولَهُ ويَسْـعَون في الأرض الفسادَ أن يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلُهم من خلاف أو يُنفوا من الأرض﴾. فكان القسـام يقول لهم اسـتخدموا النقطة الرابعة من الآية وهي النفي من الأرض، فأي شـخص تثبت عليه تهمة التجسس اكتبوا له رسالة أن يخرج من فلسطين إلى أي دولة، وإن لم يخرج يطلق عليه النار.

رسائل

أقول للمجاهدين في فلسـطين، إن اسـم كتائب الشـهيد عز الدين القسـام له أثر كبير في نفوسـنا، فهـي تعمل ضمن العقيدة الإسـلامية، فأنـا أقدرهم ولهم مني كل الاحتـرام والتقدير، وأدعـو اللـه أن يحفظهم ويحفـظ كل المجاهدين الذين يحملون العقيدة الإسـلامية. كما أوجّه لهـم نصيحـة وأقول لهم إن اليهـود يقاتلوننا بعقيدتهم وعلينا أن نقاتلهم بعقيدتنا الإسـلامية حتى نستطيع أن نقف أمامهم.

أمـا الأسـرى والمعتقلـين، فهم زهراتنـا وهم شـبابنا وهم طلائعنـا، والرائد لا يكـذب أهله، وصبروا صبراً شديداً وحملوا مشاق العدو وحملوا مشاق الصديق.

وفي نهاية حديثي أسأل الله سبحانه وتعالى أن يميتني مجاهداً.

اللهم أحينا سعداء وأمتنا شهداء.

وأضاف (كتاب فلسطين تاريخاً ونضالاً) ما يلي:

يُذكر أن أبو إسعاف كان في المنشية قبل مجيئه إلى شَعَب، كانت أخته خضرا تساند الحامية بالماء والذخيرة، وكانت مثلها نجمة العبد الله (أم يوسف حسون)، والدة الشاعر الشهير وشقيقة الشـهيد محمـد العبـد الله. وكان من جماعة الحاج أمين وجاء إلى شَـعَب بعـد رحلته إلى ليبيا وإحضاره أسلحة للمدن المحاصرة ولما وجدها سقطت توجه بها إلى شَعَب.[٦]

وذكر لي الشيخ زهير الشاويش[٧] أنه كان في حي الميدان الدمشقي يرى عدداً من الشخصيات الفلسـطينية التي كانت تَفِدُ إلى دمشـق للدعم والتنسـيق، ومن هذه الشـخصيات شخص يقال له أبو إسعاف.

توفي أبو إسعاف في العام ٢٠٠٢ في منزله في منطقة البرامكة بدمشق.

مصطفى ونجيب الطيار
(المتكاملان)

لا يمكن الكتابة عن أحد هذين الشخصين دون الكتابة عن الآخر، فهما كانا متكاملين في الموقع والحياة. وكان لهما دور مشهود في مقاومة حامية شَعَب.

مصطفى الطيار

ولد مصطفى الطيار في شَعَب عام ١٩١٠، وتعلم في كتّاب القرية القرآن الكريم، وفي السادسة عشرة من عمره عين شرطيًّ صواري في عدة قرى من الجليل. وكان في الوقت نفسه يعمل في شَعَب في فلاحة الأرض وزراعة القمح والزيتون، ويربي النحل ويبيع العسل.

تزوج مرتين، المرة الأولى كانت في فلسطين، من فاطمة العبد (خوالد)، وأنجبت له سعاد، وانتقل من بيت أبيه إلى منزل كبير في أول القرية (راجع ملحق الصور). وفي المرة الثانية كانت في لبنان من هدية فاعور، وله منها عفاف وبهاء ونهى وعبد الحليم ومهى وخزنة وأكرم وأحمد ومحمد.

كان من أوائل من اقتنوا الراديو في شَعَب، نظراً لاهتمامه بالسياسة والأحداث المتعاقبة التي كانت تنذر بسوء المستقبل.

وفي حديثنا إلى عدد من أفراد حامية شَعَب الباقين على قيد الحياة، أجمعوا على شعبيته وقيادته وشجاعته وذكائه في إدارة الأمور، وقد كان الرجل الثاني في قيادة الحامية بعد أبو إسعاف، بل ويشير البعض إلى كونه القائد الميداني للحامية في المعارك، حيث أن أبو إسعاف كان

القائـد العام (وهو وإن كان مثل أبو إسـعاف، إذ لـم يكن ذا عائلة كبيرة وعزوة في البلد، إلا أنه لم يخرج طويلاً منها، كما حدث مع أبو إسـعاف الذي قضى طفولته وشـبابه غائباً عن شَـعَب، وعاد إليها في أواسط الأربعينات).

وفيما سـاهمت علاقات أبو إسـعاف مع الحاج أمين الحسـيني في تأمين الدعم اللوجسـتي والسياسـي للحامية، سـاهمت خبرة ورتبة مصطفى الطيار العسكرية في توحيد رجال الحامية تحت راية خبير في المعارك، خاصة حين كان في مقدمة المشاركين في معركة البروة. بل إن قيادته هـذه سـاهمت في زيادة شـعبيته بين رجال الحاميـة. ولم يكن بعد خروج الحامية من فلسـطين يشـيد ببطـولات الحامية، ولكنه كان يتحسّـر على موقف العرب وتخـاذل الأصدقاء، وكان يعتبر أنه كان يمكن للحامية أن تصمد أكثر لولا أن هناك أمراً دُبّر بليل.

وحـين حوّلت حامية شَـعَب إلى سـرية صلاح الدين في فوج أجنادين، رفض أن يعطى رتبة حسـب مزاجيـة قـادة الفوج، وانتظر حتى اسـتطاع إحضـار أوراقه التي تثبت أنـه كان ذا رتبة في الشرطة، وعين في الفوج ملازماً، ونائباً لقائد السرية.

ويبدو أنه رأى أن تواجد السرية في سوريا، وسحب أسلحتها منها أفقدها مبرر وجودها، وأن من المنطق أن تعود السـريّة إلى الحدود وليس إلى مناطق بعيدة عن فلسـطين. وقدّم اسـتقالته بعد إشـكالات مع بعض القادة وعلى رأسـهم قائد الفوج. ومما يدل على شـعبيته في الحامية أن معظم أبناء شَعَب في السريّة قد تركوها بعد تركه لها.

وعاد إلى لبنان، وسافر إلى السعودية، حيث عمل في شركة أرامكو، لمدة ست سنوات، ثم عاد إلى لبنان حيث كان قد اشـترى منزلاً على طريق السـكة قرب الحسبة في صيدا، ومنزله وإن كان يعتبـر سياسـياً ضمـن مخيم عين الحلوة، إلا أنـه عقارياً خارجه. وقد عمل فـي منزله في تربية النحل وبيع العسل، إلى أن توفاه الله عام ١٩٧٩.

حافظ على كثير من ذكرياته في شَـعَب، وقد زوّدنا أبناؤه بعدد من الصور الملحقة، وذكر لنا ابنه أكرم أنه كان يحتفظ بمواد ووثائق قيمة منها الخريطة العسكرية لمعارك شَعَب، وقد رُسمت على ورق كتّان، وكان يستعان بها في القصف والقتال، وعليها الخطط العسكرية التي اتبعت في المعارك، إلا أنها فُقدت إبان الاجتياح الصهيوني للبنان عام ١٩٨٢.

نجيب الطيار

من مواليد شَعَب في ١٩٢٠/٢/١١ (كما أورد في مذكراته)، درس في عكا ثم تعلم في الكلية العربية في القدس، التي لم تكن جامعة، ولكنها كانت أرفع كلية في فلسطين آنذاك، ومنتهى شهاداتها هي المتروكوليشن (اعتاد أهل القرية على تسميتها ماتريك) التي تؤهل حاملها لدخول الجامعة.. وهذا ما كان يحدث مع مثقفي فلسطين، الذين كانوا يحضّرون للجامعة فيها، ثم يرحلون في طلب العلم إلى بيروت أو القاهرة حيث الجامعات الأجنبية.

علّم في عدد من القرى في الجليل، منها الدامون وشعب، وبعد النكبة علم في سوريا بعد عناء البحث عن عمل (كتب في مذكراته يومها، يا للسخرية بعد أن كنا نركض وراء القضايا الكبرى في دمشق، ها نحن اليوم نركض خلف الوظيفة). درّس في (يبرود)، وكاد في تلك الفترة أن يتزوج لكنه عدل عن الفكرة نهائياً، حيث سافر إلى ليبيا، وأخيراً حطت به الأمور في تونس حيث كان يكتب في عدد من الصحف التونسية، ويدرّس في بعض كلياتها، إلى أن توفي عام ١٩٨١ هناك.

عمل أثناء الدراسة في تربية النحل في شَعَب، وشارك في حامية شَعَب مشاركة فعالة، حيث تكامل مع أخيه الأكبر مصطفى في العمل في الحامية. ففي الوقت الذي كان فيه مصطفى نائباً لقائد الحامية وقائداً ميدانياً لها، كان نجيب أشبه بالمسؤول السياسي والإعلامي لها، حيث كما يبدو من مذكراته أنه كان يردّ ويوضح الموقف في الجبهة في عدد من الصحف، حتى أثناء زياراته لدمشق حيث كان يكتب في صحفها.

وكان في سفره إلى دمشق يقوم بجمع التبرعات والأسلحة لصالح الحامية، وسيلاحظ القارئ في القسم الثاني من الكتاب، دور نجيب الطيار في حامية شَعَب.

إن أهم ما يتميز به نجيب الطيار هو الدقة في تنظيم شؤون حياته، ففي دفاتره الخاصة تجد مذكراته القيمة وحساباته الدقيقة، مثل مداخيله ومصاريفه اليومية على مدى سنوات، وتلخيصها في صفحة واحدة بطريقة مذهلة، وهي إن دلت على شيء فإنما تدل على دقة هذا الرجل وتنظيمه في شؤونه الخاصة والعامة.

سعيد صالح عبد الهادي الأسدي
(الفلسطيني)

اسمه في شَعَب سعيد الصالح. اسمه عند المختار سعيد الأسدي. اسمه في الهوية سعيد صالح عبد الهادي. اسمه في مواقع النضال الفلسطيني من عام ١٩٣٦ إلى ١٩٨٢ وحتى وفاته في عام ١٩٩٧ أبو صالح.

من كبير أسفي أنني لم أعرف هذا الرجل شخصياً، مع أن كل من كلّمته عن كتاب شَعَب يقول لي من الخسارة أن لا تكون قد قابلت أبو صالح.

بعد كل الذي قرأته عنه والمعلومات التي جمعتها، لم أجد له لقباً يشبهه، ويكون مثله في خانة السهل الممتنع إلا «الفلسطيني»، فكلنا فلسطينيون ولكن أكثر من يستحق اللقب مع «ال» التعريف هو أبو صالح. هو الوحيد الذي سخّر حياته ورهنها للقضية. هو الفلسطيني الحقيقي الذي لم يكلّ ولم يملّ منذ ثورة ١٩٣٦ حتى اجتياح ١٩٨٢ عن حمل السلاح.

كان كنزاً أدبياً رغم أنه ليس أديباً، وكان راوية رائعاً ولم يكتب حرفاً وكان.. وكان..

الشهيد غسان كنفاني كان يزوره دائماً، ولأنه «الفلسطيني».. كثيراً ما كان كنفاني يستخرج منه القصص والحكايات، ولئن كان كنفاني قد خصّه بقصة «العروس» المثبتة في ملاحق الكتاب، فإن عدداً من القصص كما علمت من بعض العارفين بالأمر، قد سمع أطرافها من فم أبو صالح.[٨]

غير أن من أهم ما كُتب عن أبو صالح كان رواية «باب الشمس» التي كتبها إلياس خوري وأصدرها في العام ١٩٩٨، في الذكرى الخمسين للنكبة. وكانت هذه الرواية من أكثر الكتب مبيعاً في ذلك العام.

ورواية «باب الشمس» إن كانت تناولت النكبة عبر قصة بلدة شَعَب وحاميتها، فإن من ألهم إلياس خوري بحبكتها كان ذلك «الفلسطيني» أبو صالح، حيث تبدأ القصة من حيث انتهى أبو صالح، في مستشفى الهمشري في غيبوبة الموت الأخيرة على سرير يجلس قربه الممرض الذي يحكي القصة.. ووجّه إلياس خوري أول شكر للمساهمين في إنجاز العمل، في خاتمة الرواية لسعيد صالح عبد الهادي. كما أن تعريف الكاتب بالقصة وخيطها الروائي السردي كان عن أبو صالح الذي سمته الرواية «يونس»، فتحدث عنه وعن علاقته بزوجته «منيرة» التي سمتها الرواية «نهيلة»، كتب ذلك في الغلاف الخارجي الأخير من الكتاب:

نهيلة الأولى، كانت زوجته الصغيرة التي لم يعرفها، لأنه كان في الجبال مع المجاهدين.

نهيلة الثانية، كانت المرأة الجميلة التي ولدت في مغارة باب الشمس، وهي تدعس على حبات العنب، وتتزوج زوجها.

نهيلة الثالثة كانت أم إبراهيم الذي مات.

نهيلة الرابعة، كانت أم نور، التي التصق بها يونس في المغارة، وصار يدعوها أم النور، كلما أتته والضوء يشع من عينيها.

نهيلة الخامسة، كانت بطلة المأتم، التي خرجت من السجن لتعلن موت زوجها، وتتشحّر أمام الناس.

نهيلة السادسة، هي أم كل هؤلاء الأولاد، الذين يملأون ساحة دير الأسد.

في تلك الليلة ولدت نهيلة السابعة.

نهيلة السابعة تعبت من التعب. امرأة وحيدة وفقيرة.

نذكر هنا أن المخرج المصري يسري نصر الله قد بدأ أواخر العام ٢٠٠٢، بإخراج فيلم سينمائي مأخوذ من رواية «باب الشمس»، وشارك في مهرجان كان ٢٠٠٣ للسينما، ثم عاد وأتم الجزء الثاني من الفيلم وتم عرضه في أكثر من مهرجان دولي ونال عدة جوائز.

أما ما كانت تقوله هي عن هذه الأحداث وعن اختبائه في المغارة التي سماها إلياس خوري «باب الشمس»، فيدلنا عليه ما كتبه إبراهيم نصار في حفل تأبين أبو صالح في أربعينه في قرية «دير الأسد»:

كان يحمل السلاح عندما تعزّ الطلقة ويخترق الحدود.. يوزع السلاح ويزرع طفلاً، وهكذا أنجب معظم أبنائه. هو في المنفى وأم صالح في الوطن، وبينهما الحدود المزروعة بالنار والموت. لن يتردد. كان يراوغ زخات الرصاص وينجح، أرهق حرس الحدود وأتعبهم في كل رحلة يودعه الرصاص من خلف ومن أمام، ويستقبله من خلف ومن أمام.. قدرته مدهشة على التآلف مع الموت والخطر.. المهم أن يصل السلاح وأن يزرع طفلاً.. وتضحك أم صالح من أسئلة الجنود الغبية.!

من أين لك هذا الطفل؟!

من أبو صالح!!

وهل كان هنا؟!

نعم بالتأكيد، وسيعود قريباً. لأننا اتفقنا على إنجاب أطفال ستة، ولم يكتمل العدد بعد (تقول متباهية).

ولكن كيف؟!
يا لكم من حمقى!
ألا تعرفون كيف ينجب الأزواج أطفالهم! بالحب الجميل! ما بين زخة الرصاص الأولى والتي تليها.

ولد سعيد صالح عبد الهادي الأسدي، في قرية شَعَب عام ١٩١٨، وشارك في ثورة عام ١٩٣٦ ضد الاستعمار البريطاني والصهيوني.

وكان في الصفوف الأولى في حامية شَعَب أثناء نكبة ١٩٤٨، وخرج من فلسطين تاركاً زوجته التي رفضت أن تترك والديه المُسنَّين وحدهما في فلسطين، وأقامت معهما هناك. استقرت عائلته بداية الأمر في دير الأسد، ودون علم سلطات الاحتلال كان شبه مقيم هناك، وكان تواجده في فلسطين أكثر من تواجده في لبنان. ذلك أنه لم يكن قد قرر القبول بالتشتت، إلى أن بات صعباً عليه التردد إلى هناك، واستقر نهائياً في لبنان منذ عام ١٩٥٦.

أقام في مخيم عين الحلوة، وهناك عمل وكيلاً لبساتين حمضيات، وكان ممن عمل معه الشهيد ناجي العلي[٩]، كما ذكر محمود كلّم في كتابه «ناجي العلي: كامل التراب الفلسطيني». وكانا رفيقين أيضاً في حركة القوميين العرب التي كان أبو صالح من جيل التأسيس فيها. غير أن ناجي العلي لم يكن ينضبط بمواعيدها الدقيقة، مما أدى إلى فصله ثلاث مرات.

سجن عدة مرات في السجون اللبنانية بسبب مواقفه الوطنية، وكان مع ناجي العلي في زنزانة واحدة في سجن أبلح في شهر آذار من عام ١٩٦١، وما زال الرسم الذي رسمه له ناجي العلي في ذلك السجن يعتبر أول رسم محفوظ له. يومها رسمه على علبة سجاير (راجع ملحق الصور)، حين علقه سجانه على شباك السجن، والرسم عبارة عن بورتريه لوجه أبو صالح، معلقاً على صليب ومحاطاً بالهلال[١٠].

وكان من الرعيل التأسيسي الأول للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأحد قادتها، شارك في معارك أيلول الأسود في الأردن، وأصيب في رجله وأرسل للعلاج في الاتحاد السوفياتي لمدة ثلاثة أشهر.

شارك في الدفاع عن الجنوب اللبناني في اجتياح عام ١٩٧٨، فيما سمي لاحقاً «عملية الليطاني».

في الاجتياح الصهيوني للبنان عام ١٩٨٢، شارك في المقاومة، وكان في الرابعة والخمسين من عمره. واعتقل في معتقل أنصار بعد معاناة من نظره بسبب تنشّق غازات أطلقت عليه أثناء المعارك. وبقي نزيل معتقل أنصار عامين كاملين، خرج بعدها إلى صفوف المقاومة كما كان في البدء.

عاش قرابة الخمسين عاماً بعيداً عن عائلته وأولاده، وزوجته التي رفضت ترك أهله ورفضت الطلاق، وبقيت على عهده وبقي هو كذلك لم يتزوج ثانية.

في كانون الثاني من العام ١٩٩٧م، أصيب بعارض صحي، نقل على أثره إلى مستشفى

الهمشري في صيدا، وبقي فيه حتى وافته المنية في ٢٨-١-١٩٩٧م.

أما أيامه الأخيرة، التي بها بدأت رواية «باب الشمس»، فقد عبرت عنها رسالة مؤسسة الشهيد غسان كنفاني أرسلتها عائلته، وقد تُليتْ في حفل تأبينه بمناسبة مرور أربعين يوماً على وفاته:[١١]

عائلة أبو صالح

تحيات حارة لكم جميعاً في ذكرى الصديق العظيم

كان أبو صالح صديقاً رائعاً وشخصاً عظيماً.

أنا وأطفالي «تريز وليلى» اعتدنا احترامه وتقديره.

كان محارباً شجاعاً وشريفاً من أجل حقوق وحرية شعبه بالعودة إلى فلسطين، وبالرغم من سنه وعمره كانت فيه روح الشباب الجميلة.

أرسل لكم صورتين لأبي صالح في الذكرى الرابعة والعشرين لمؤسسة غسان كنفاني في الثامن من تموز ١٩٩٦.

لقد زرته في المستشفى في الثاني من كانون الثاني ١٩٩٧، وكان مملوءاً بالحيوية والحياة، وتحدث عن الناس، عن الكفاح، عن فلسطين. عن العائلة وعن قاسم أبو ماهر وأصدقاء آخرين والسنوات التي مرت، وهو يمزح ويضحك، وعندما تركته في ذلك اليوم شعرت بالارتياح وتطلعت إلى الأمام لأراه ثانية في زيارتي القادمة إلى صيدا.

في ٢٤-١-١٩٩٧ ذهبت إلى المستشفى في صيدا، وسمح لي أن أرى أبو صالح من خلال شباك غرفة العناية المركزة، لكن لم يحالفني الحظ أن أحدثه مرة ثانية.

كل أهالي عين الحلوة والمخيمات الأخرى أحبت أبو صالح وشيعوه إلى القبر ليودعوه الوداع الأخير.

سيبقى دائماً في عقول وأفكار الناس.

أطفال الروضة في عين الحلوة سيزورون قبره ويضعون الورود عليه.

مع تحياتنا

تريز وليلى

لقد بقي سعيد صالح عبد الهادي (أبو صالح) يجسد صورة الفلسطيني الحقيقية، الذي ولد في فلسطين، وشهد ثورة ١٩٣٦ ونكبة ١٩٤٨، وشارك في معارك الدفاع عن قريته بشراسة، وبقي يتردد إلى فلسطين كلما شدّه الشوق إليها، وشارك في المعارك كلها، وحمل الهم القومي إلى جانب همه الفلسطيني، واعتقل لدى العدو، وبقي حتى آخر يوم من حياته لا يصدق أنه سيموت.

فكيف سيتحمل بعد كل هذا النضال أن يموت بعيداً عن فلسطين. مات أبو صالح لكنّ رايتَه لم تسقط، ستبقى خفاقة حتى تُزرع على ربى فلسطين من جديد.

يوسف حسون (أبو العلاء)
حادي فلسطين وشاعر القضية [١٢]

بقلم: أحمد الحاج علي

في العام ١٩٢٨ كانت قرية شَعَب وفلسطين على موعد مع ميلاد شاعر من كبار شعراء فلسطين أحيا بشعره تراثاً فلسطينياً كاد أن يندثر وصنع ألواناً فنية عديدة أصبحت تراثاً للشعب الفلسطيني فيما بعد؛ إنه الشاعر الفلسطيني الكبير يوسف حسّون (أبو العلاء). عرف أبو العلاء كبقية الفلسطينيين شظف العيش ولكن ذلك لم يثنه عن المثابرة لنهل المعرفة وطلب العلم. فدرس في مدرسة شَعَب، ولكن لم تكن المدرسة سبيله الوحيد لطلب المعرفة، فعقله واستيعابه كانا أكبر بكثير من أن ينحصر في منهاج دراسي محدّد، فكان يلتهم الشاعر يوسف حسّون كل ما يقع بين يديه من كتب وكرّاسات. وممّا يحكى عن طفولته أنه نزل وابن عمته إلى مدينة عكا وباع بقرة تخص أبيه، وكل ذلك ليشتري كتباً يثقف بها نفسه فكانت ثقافته بجهد شخصي جبار منه. ولم يكن غريباً على من كانت الثقافة والمعرفة دأبه وغايته أن يقول الشعر وينظمه نظماً عجيباً ولم يبلغ الثالثة عشرة من عمره بعد.

ومن أولى القصائد التي ذاع صيته من خلالها قصيدة يمدح فيها شيخ الطريقة الشاذلية والتي كانت منتشرة في شَعَب وقتذاك. وكان من شدة تعلقه بالفن والعزف أن يضع الأسلاك بجانب بعضها ويعزف عليها ليحدث نغماً جميلاً.

وكان يوسف حسون في طفولته يواظب على الأعراس التي يحضرها كبار الشعراء،

وخصوصاً تلك التي كان يحضرها الشاعر أبو سعيد الحطيني، أشعر شعراء الزجل في ذلك الوقت. وفي أحد أعراس شَعَب سنة ١٩٤٢، وبينما كان الحضور يتحضّرون لسماع الشاعر أبو سعيد الحطيني صاح الشاعر يوسف حسون من بين الحضور، وكان لا يتجاوز الثالثة عشرة، ببيت عتابا أثار إعجاب الحاضرين:

حبيبي جهد ما يبعد بعيدو (البعد)
نغم لو كل ما عجبني بعيدو (الإعادة)
وضحية إن كان لازملو بعيدو (العيد)
أنا الضحية لأجل عينو والهداب

وما إن سمعه الحطيني حتى انتفض من مكانه وقرّبه إليه وأجلسه إلى جانبه وقال: إن العتابا في فلسطين بألف خير، والتفت إلى يوسف حسون وقال: تابع معي. وصار يأخذه معه إلى الأعراس، ممّا أعطى الشاعر يوسف حسون قوة معنوية كبيرة كان بحاجة إليها، ومن شدة رواجه قال له الشاعر الحطيني مازحاً: ركّبناك على الحمار مدّيت إيدك على الخرج، وأردف قائلاً وبإعجاب: اشهدوا بشاعرية هذا الطفل، وأحسّ يوسف حسون بمكانته بين الشعراء ممّا حدا به أن يستعير (قمباز) جدّه، وذاعت شهرته على مستوى الوطن.

الوجود الصهيوني في فلسطين كان أكثر ما يثير حمية وغيرة هذا الشاعر المرهف الحس، فشارك الشاعر بالقتال مع حامية شَعَب والذود عنها خلال نكبة ١٩٤٨، وكان لخروجه من شَعَب التي أحبها وبنى فيها أجمل أيام طفولته وشبابه شديد الأثر عليه ممّا دفعه لأن ينظم قصيدة من أجمل القصائد التي وصفت النكبة وتأثيرها على أهل فلسطين وهي قصيدة (مرسال فلسطين) التي بين أيدينا..

بعد النكبة درس الموسيقى في الكونسرفاتوار الوطني اللبناني. وأثناء وجوده في بعلبك أصبح أبو العلاء واحداً من أهم المراجع الثقاة في الشعر الشعبي وخاصة العتابا، فكان يزاجل الشعراء اللبنانيين الذين كانت تربطه بهم علاقة قوية، وكان يكتب في بعلبك بمجلة (بنت العرزال) لمؤسسها حسين سلمان[١٣].

نشر يوسف حسون قصائد في مجلة (بنت لبنان) سنة ١٩٤٩، ومجلة (الثأر) الفلسطينية سنة ١٩٥٢. في العام ١٩٥٥ كتب قصيدة (نشيد فلسطين)، وقدم عدة برامج إذاعية عبر إذاعة صوت فلسطين من القاهرة أوائل الستينات منها (فلاحين بلدنا) في ٦٥ حلقة و(أبو عودة). و(فلاحين بلدنا) كانت تدور حول موضوع وطني بطريقة تمثيلية.

ذهب أبو العلاء إلى مصر ونال شهادته من هناك، ولكن عند عودته رفضت الأنروا توظيفه لغياب (الواسطة)، وكان مدير التعليم من عائلة فرح فكتب يوسف حسون قصيدة قال فيها:

جنوا على العلم والتعليم واجترحوا ما قضوا أن يولّى فيهما فرح
ما أنصفوا العلم بل زادوا مصائبه ويح الوكالة بئس الرأي ما اقترحوا

وأخذ القصيدة إلى دياب الفاهوم وهدّدهم بالنشر، وعلى إثرها وظفوه مع شقيق زوجته. وكان أبو العلاء متفانياً في التدريس حتى أنه كان يجلب الطلاب في الليل ويضيء لهم اللوكس، ليعطيهم الدروس ويعلمهم بعضاً من حب فلسطين وعشق المعرفة. وأصبح مديراً لمدرسة القادسية في الرشيدية ثم مدير مدرسة المجدل في تل الزعتر ومن ثم انتقل إلى الدامور.

في العام ١٩٧٦ بدأ أبو علاء يقدم برنامجاً إذاعياً في إذاعة «صوت فلسطين.. صوت الثورة الفلسطينية» هو الأشهر في تاريخ الثورة الفلسطينية (غنّى الحادي) في ١٠٤ حلقات إلى أن وافته المنية. وقد اشتُهر مطلع هذا البرنامج الذي يقول فيه:

غنى الحادي وقال بيوت ... بيوت غناها الحادي
سدوا الدرب منين أفوت ... أفوت وأقدر بعنادي
فوق التل وتحت التل ... وبين الوادي والوادي
مين تسأل عنا بتندل ... بتلقاني وتلقى ولادي

وكذلك اشتهر أبو العلاء بـ «يا حلالي يا مالي» والتي فيها:

جينا على اسم الفدا ... نعطي الجماهير اليقين
بشمالنا غصن الزّتون ... البندقية باليمين

ولم يكن من خلال هذه البرامج فناناً عادياً بل كان حاملاً لهمّ سياسي، وكرّس برامجه لخدمة القضية، وكان يستعرض بعض الأحداث والمواقف شعراً، كما في القصيدة الشهيرة عن غولدا مائير، التي أُشيع أنها كانت تقول إنها تشعر بالنار تشتعل فيها كلما ولد طفل فلسطيني، وتتمنى أن ترفس كل امرأة فلسطينية حامل على بطنها لإسقاط جنينها:

في مرة قالت مائير ... كلمة عنا بتعنيها
كل ما يخلق طفل صغير ... نارو بتشعّل فيها

أنشد «الحسون» الشروقي والعتابا والميجانا ولم تغب الأرض عن كل قصائده. لم ينسَ أبو العلاء المعتقلين والمعتقلات في السجون الإسرائيلية وكان يذكر أسماء بعضهم في أغانيه الشعرية، وكذلك غنى للمقاتلين وتغنّى بالبندقية، خلّد في شعره معركة الكرامة ويوم الأرض ومجزرة دير ياسين وتل الزعتر وجنوب لبنان، لقد كان مؤرخاً صادقاً لعمليات الثورة الفلسطينية، وانتقد كامب ديفيد بأسلوبه الساخر. وكان أبو العلاء يشارك في العديد من المهرجانات العالمية كمهرجان برلين في العام ١٩٧٧ والذي حظي فيه الشاعر باحتفاء قل نظيره، ومهرجان قطر، وقدّم أبو العلاء في مهرجان رام الله (قبل العام ١٩٦٧) أوبريت وطنية. وكان الشاعر لشدة حماسه الوطني يقيم العديد من المهرجانات لصالح الثورة الفلسطينية، ومن تلك المهرجانات مهرجان في الجامعة العربية شارك فيه المطرب اللبناني نصري شمس الدين والمطربة سميرة توفيق.

وغنى شمس الدين له:

يا طير يا طاير على فلسطين — بكّير صبحها ومسيّها
سلم عليها وقلها جايين — جايين نحرّر أراضيها

وغنت سميرة توفيق للشاعر:

حرّرونـي يا رجالي — وافتدونـي بكل غالي

تعامل الشاعر مع العديد من الملحنين منهم: صبحي أبو لغد، عفيف رضوان، زكي ناصيف. ومن الفنانين الذين تعامل معهم: نصري شمس الدين، سميرة توفيق، فايزة أحمد، سعاد هاشم، سمير يزبك، فهد بلاّن، غازي الشرقاوي. كما كان مرجعاً ومراجعاً لغوياً للعديد من الشعراء أبرزهم الشاعر الفلسطيني معين بسيسو.

وفي ١٩٧٩/١٠/٢٤ توقف قلب الشاعر عن الكلام، وفي اليوم التالي خرجت جماهير الشعبين الفلسطيني واللبناني تودّع الشاعر الثائر يوسف حسون (أبو العلاء) في موكب مهيب انطلق من أمام مسجد الجامعة العربية ليوارى الثرى في مقبرة شهداء فلسطين. وقد أعلنت الأنروا والمؤسسات الفلسطينية إضراباً عاماً حداداً على روحه. وممّا يؤسف له أن العديد من مغنّي اليوم ينسبون لأنفسهم العديد من الأبيات التي أبدعتها عبقرية أبو العلاء.

مرسال فلسطين

(قصيدة شروقي)

مرسال يا ممتطي شملال كالسرحان — تسبق نسيم الشمالي حين ترخيها
حثّ المطية وسير برفقة الرحمان — وفي أقرب السبل يا مرسال مشّيها
وخذ هالرسالة وفيها من الدما عنوان — ودمع الحزانى مطرّز عا حواشيها
ومضمونها منتهى النكبات والأحزان — أسرع بها وللملوك العرب ودّيها

الأردن

اقصدْ سليل النبي «الهاشمي» بعمان — وقللو على لسان قاصيها ودانيها
يا صاحب التاج هيك الأمل ما كان — تفنى فلسطين وعيونك تراعيها
يخْوي عليها الدويري وحولها عقبان — وينوشها الذيب والآساد حدّيها
فلسطين مهد المسيح ومعرج العدنان — عَمّال تبكي على حالة أهاليها
الجوع والبرد والتشريد والحرمان — وأمراض عمْ يعجز الدكتور يشفيه

حيفا ويافا وصفد والناصرة وبيسان ... اوعكا وبلدان لا أحصي أساميها
صارت أسيرة وفيها تحكموا العدوان ... ورايات صهيون رفّت في أعاليها
يا حيف يا حيف يا حسرة ويا خسران ... يا للأسافة ويا خيبة أمانيها

مصر

مرسال من بعد هذا الجهر والإعلان ... عرّج على مصر أم الخير وافيها
إذهب «لفاروق» راعي مصر والسودان ... وانعي فلسطين للفاروق وابكيها
وقلوا أيا من بذكرك سارت الركبان ... وأزهر بلادك علوم الدين حاويها
أطفالنا تُذبّحت بالسيخ كالخرفان ... وسالت دماهم على البيداء ترويها
كم مرضعة طفلها قدّام منها عيان ... أردوه للموت لم يرعوا ترجّيها
وكم من حبالى عليها حوّمت غربان ... لا خبر لا ستر؛ بل لا ما يُواريها
وشيوخ تقتّلت عا مذبح الطغيان ... أما الفضائح فإن الله يدريها
يا حامي النيل عنا ما السبب غفلان ... معهود منك مواعيد توفيها
جدّك «محمد علي» بيصيح بالأكفان ... فلسطين حدّك وكيف الخصم يؤذيها

العراق

مرسالنا لا حمى بغداد سير الآن ... نادي على ملكها وراعي نواصيها
وخبّر سموّ الوصي وعرّفو ما كان ... لا بدّ هامو لِهول الخطب يحنيها
إشكي الذي صار بالرملة من النكران ... واللد يا حسرتي واللي محاذيها
و«طيرة»الشهيرة«وترشيحا»غدوا قيعان ... و«لوبِه» الشهيدة رياح الظلم تذريها
واشكي انسحاب«الجليل»وتلكم البلدان ... وحالة بلدنا «شَعَب» واللي جرى فيها
مرسال قل للوصي ولا تكن خجلان ... أجدادك الصيد فعلك ما بيرضيها
ما كان شعب العراق فيما مضى كسلان ... مالو عيونو عن فلسطين مِغْضيها
بغداد بغداد وين رجالك الشجعان؟ ... من غفلة القلب يا مرسال وعّيها
واشكي لفيصل وغازي في حمى رضوان ... واشكي لهارون والمأمون ثانيها

الحجاز

مرسال زور الحجاز وحرّض الفتيان ... وجوز «المدينة» وتجوّل في ضواحيها
ونادي السعودي وقللو يا رفيع الشان ... صارت فلسطين شعلة نار طفّيها
ولّعتها ونمت عنها ليش يا سلطان ... وخليت صهيون بالويلات ترميها
و«صخرة» نبيك تهدد بَنو الشيطان ... بُزَتّ القنابل تهدّم من مبانيها
البترول حق امتيازو سيفك الرنان ... سِلّوا بوجه الأعادي ولا تداريها

ويغنيك مولاك من أموال لمريكان ... واللي نَشَا الناس، يطعمها ويسقيها
وانجالك الغرّ حولك كلهم فرسان ... ابعث بهم والعدى نيران تصليها
وان كان ما جيتنا في الحال بالأعوان ... ما عاد نرضى الكعبة تكون حاميها

اليمن

مرسال خود الرسالة لليمن تبيان ... للشيخ «أحمد» أبو الإيمان إعطيها
وقللو فلسطين صفى شعبها تلفان ... جيعان عريان آلامو يقاسيها
كم من يتامى أصابتها يد الحدثان ... آباءها الموت والإمّات طاويها
لا لبس لا أكل مثل الناس والنعسان ... ما عاد يأمن عويناتو يغفيها
واللي بْعيونو رمد بيصيح والعيان ... بشكي وْجاعو وهات اللي يداويها
يا ملك أحمد سكوتك حيّر الأذهان ... هيا أغثنا وخفف من بلاويها
ستين مليون عندك ذهب بالخزان ... مالك ورثتو عن المرحوم محييها
في جزء منها علينا لا تكن بَخْلان ... المالِ يفنى وأما الحمد باقيها

الشام

مرسال للشام عود وفوت عالديوان ... نادي الرئاسة «شكري» الكان واليها
وقللو أيا ذا الفخامة فعْلكم ما بان ... أين الخطابات هللي كنت تلقيها
في الجو طارت هباء ومالها حسبان ... يا ريت ما كنت يا «شكري» بتحكيها
ويا زعيم بدنا جيوش منظمة من شان ... تنقذ فلسطين وتحرر بواديها
فلسطين من سوريا قطعة وإذا بتنهان ... معنى الإهانة لسوريا وأهاليها

لبنان

مرسالنا نادي «بشارة» في حمى لبنان ... قللو فلسطين خلّصها ونجّيها
يا شيخ جيشك تركها وزاد بالنسيان ... وحدودها ظل محجم عن تخطيها
وان كان عندك عذر بيّن لنا برهان ... يقنع إلى الناس ويبرّر مساعيها
لبنان لبنان نحنا كلنا إخوان ... لا فرق ما بين مسلمها ومسيحيها
نحنا منأسف على «رياض الصلح» من كان ... يلقي بيانات تحيي نفس قاريها
وبعدين ظهر النشيط وبيّن العجزان ... وعرفَتْ فلسطين مبغضها وهاويها
فلسطين أبناءها يا أمة العربان ... لاقوا إهانات شتى ما منخفيها
ما بيسمعوا غير كلمة «هيه يا خُوّان ... يا بايعين الأراضي للْ يشتريها»
يا قوم معروف من باع البلاد وخان ... لا تاخذوا اللي مطيع بذنب عاصيها
سرسق يبيع الأراضي ويقبض الأثمان ... وكتير مثلو ونحنا ننتهم فيها

القادة العرب

يـا قـادة العـرب يـا سـادات يـا أعيـان ... هذي فلسـطين بدهـا جيوش تحميها
أما السياسـة تياسـة وضحك عالأذقان ... لا تتبعوهـا وخافـوا مـن دواهيهـا
ودولـة بريطانيـا أمكـر مـن الثعبـان ... والمـوت فـي نابهـا سـاعة تِلَوّيهـا
اللـوم كلّـو عليكـم يـا ذوي التيجـان ... هـذا اعتقـادي ونفسـي لا أبريهـا
نحنـا طلبنـا وصِحنـا بفـرد لسـان ... حتـى نسـلح فلسـطين ونقويهـا
قلتـم لنـا اطمئنـوا أيهـا السـكان ... نحنـا فلسـطين عنـا جيـوش تكفيها
عدنـا انتظرنـا وبقينـا نرقـب الميـزان ... ونفوسـنا فـي معونتكـم نمنيهـا
وِفْ بالنـا ملوك سـبعة عندنـا يا فلان ... انـكان ثـارت بنـي صهيـون تفنيهـا
مـا جال بأْفكارنا «شـرتوك» أو «ويزمان» ... يربـح علـى ملوكنـا السـبعة ويرديهـا
وان كان ضغط السياسـة حجة الغلبان ... ظلـي دموعـك أيـا فلسـطين صبيهـا
لمـا بيرضـى المسـتر «بيفـن» و«ترومان» ... فـي إم عينِـك فعايلنـا تشـوفيها
مـن بعد ما تهدمت عاروسـنا الحيطان ... ومـن بعدمـا رواحنـا وصلـت تراقيها
ومـن بعدمـا يسـيل دم ولادنـا طوفـان ... وأكبادنـا الجـوع يقتلهـا ويهريهـا
ومـن بعدما يصيـر ثلاث رباعنـا بليان ... بدهـا ملـوك العـرب تنقـذ بواقيهـا
نشـكي ملـوك العـرب للـه والقـرآن ... وللهاشـمي وصاحب الإنجيل نشكيها
نشـكي حيـاة الهـوان وفرقـة الأوطـان ... شـكوى أليمـة ومـين اللـي يراعيهـا
واللي بياكل على جسمو عصي وقضبان ... مـا هـو شـبيه الـذي بالعـد يحصيها

عودة المرسال

راح الرسـول ورجـع قللـي إنِـتْ غلطان ... أرسـلتني للملـوك وقلـت انخيهـا
لاقيتهـم كل منهـم بالذهـب طمعـان ... ونكبة فلسـطين فـي صهيون ناسـيها
وحـب الزعامـة مرضهم ضيّـع الإيمان ... فيهـم وضاعـت عروبتنـا ومباديهـا
تخمين ضاع الضميـر الحي والوجدان ... وتبعـوا الزعامـة ومـا فهمـوا معانيها
جـار الزمـان وعلينـا سـادت العبـدان ... سـودا ليالـي الشـقا اللـه يجازيهـا
يـا ريـت عشـنا بأمـة عمـر أو عثمـان ... أو كان حيـدر أو الصدّيـق بانيهـا

رهان على الشعوب

مرسـال نادي الشـعوب تْجُـول بالميدان ... بلكـي بقيـة نخـا للحـرب تدعيهـا
هـذي ملـوك العرب ما فـي عليها رْكان ... والأجنبـي مسـيطر عليهـا وطاغيهـا
وختـام قولـي تحيـة خالصـة وشـكران ... لا كل مُخْلـص بـلاد العـرب يفديهـا

الشيخ محمود
ماض مجهول ومستقبل مفقود

لم يكن الشيخ محمود شخصاً على قدر من القيمة في القرية بقدر ما كان مشرداً بدون مأوى، ولكن شخصيته التي أشبه ما تكون بشخصيات الروايات العالمية جعلتنا نضعه في هذا الفصل، وفي تناقضات ومواصفات الشيخ محمود ما يكفي لبناء شخصية درامية ملتبسة، تشدّ القارئ إليها، بل وفيها ما يغري كل أديب وكاتب أن يبني في مخيلته أحداث حياة هذا الرجل الغامض الواضح في آنٍ واحد.

لذلك كان عنوان هذا الفصل «شخصيات من شَعَب»، ولم نسمّه «أبطال من شَعَب» أو غيره مثلاً.. والشخصية تحمل كل معانيها بحلوها ومرّها، بخيرها وشرّها، بجلائها وغموضها، بشجاعتها وجبنها، بإقدامها وتخاذلها.. وهذه الشخصية لفتت نظري منذ عشرات السنين، حين كان الأهل يتحدثون عنه بشفافية وحنين.

يستطيع الناظر إلى الشيخ محمود (وهو لم يكن شيخاً) أن يدرك مقدار المعاناة والتجربة والمرارة التي مر بها هذا الرجل المسكين. لم يكن يتكلم عن نفسه، لم يعرف له أهل البلد أصلاً، غير أن المرجح أنه تركي، نسج أهل البلد حوله الحكايات، وهذا شأن الشخصيات الغامضة التي ينسج الناس حولها الأساطير. لم يكن عظيماً لتنسج حوله الأساطير، ولكنه كان يحمل في طيات جسمه المنهك تاريخاً من العذاب، يكفي لأن ينسج المحيطون به أشكال وألوان العذاب والتشرد.

عاش الشيخ محمود في قرية سخنين حوالي عشر سنوات، حيث كان يمشي والحديد

برجليه، لذلك قيل إنه ربما كان أحد السجناء الفارين من وجه سلطة ما، أو اعتقال ما، أو سجن ما.. ويقال إن هذا الحديد في رجليه من أيام الأتراك، أو أنه اعتُقل في إحدى الحروب وفرّ من الاعتقال.. كثيرة هي القصص التي نسجت لمجرد وجود الحديد في رجليه.

جاء إلى شَعَب حوالي العام ١٩٤٤، وتعاون عليه عدد من الشباب وأجبروه على فك القيود من رجليه، حيث كسروها غصباً عنه، ورغم مقاومته وفزعه الشديد من هذه العملية، كأنهم يقتطعون قطعة من لحمه، وما لبث أن ظهر أثر هذا الحديد في خطواته التي بقيت ضيقة - رغم طوله الفارع - ولا تزيد عما كانت عليه قبل فك الحديد.

في شَعَب عاش مع حسين سعيد وزوجته، وهما زوجان لم يكن لديهما أولاد، كان يبيت عندهما، ويدّخر ماله لديهما، وبقي يدّخر عندهما رغم انتقاله للسكن فيما بعد إلى بيت صالح محمد حسين (أبو إبراهيم)، وكان مغرماً بالقهوة المرة والسيجارة، إلا أنه كان يهرب إذا حاول أي شخص أن يعرض عليه الحمّام وقص الأظافر.. الأمر الذي يوحي بأنه لم يكن نظيفاً، إلا أن كل هذه الظواهر كانت – في الغالب - بسبب أحداث سابقة وليست مسألة نظافة أو أي شيء آخر..

وكان الشيخ محمود ينطق في الليل كلاماً غير مفهوم فيما يشبه الكابوس أو المنام المزعج، ويرطن بكلمة مفككة (تَ رَسَ)، وبقيت عناصر العُقَد التي عاشها مبهمة، وكان لسانه ثقيلاً فيه لكنة غير عربية، وكان قليل الكلام، غير أن وجهه كان مليئاً بالعبر.

وكما جاء إلى القرية بلا ماض، غادرها بلا مستقبل، لم يعرف عنه أهل البلد شيئاً، إلا أن البعض أخبر أنه رآه مقتولاً برصاص العدو، الذي ربما لم يفهم عليه ما يريد أو أنه استكثر عليه الحياة بتلك الأرض المباركة.

هذا هو الشيخ محمود، وهذه قصته.. الحقيقية!

أحمد الحلبي
(الطبيب المزعوم)

ليس لدينا الكثير عن هذا الرجل المبهم، جاء إلى شَعَب وسكن في أولها (من جهة الغرب) وفي أحد أعلى بيوتها المشرفة على القرية(!)، في منزل خليل الشيخ خليل في «كرم المقرة».

وقد قيل إنه طبيب، وكان يداوي أهل البلد، ولكنه كثيراً ما كان يتعرض للإحراج عند سؤاله عن ماضيه، وعن علمه، وكان يبدو في كلامه الكذب والشك، وسأله ذات مرة طبيب في البعنة من آل الخازن من أي الكليات الطبية تخرجت؟ فتهرب من الإجابة، وذات مرة أعطى إبرة بنسلين بالوريد لأحد المرضى، وكاد يتسبب بمقتله، وهكذا كان الأمر بالنسبة للعلاج الذي كان يقوم به.

قيل عنه (يا دوب كان ممرض)، سكن في منزل بطرف البلد، بعيداً عن أعين الناس، وبقي مجهولاً بالنسبة للكثيرين منهم، إلى أن حدثت النكبة. ولا يذكر أحد أين كان أثناء معارك حامية شَعَب مع العدو.

بعد سنوات من النكبة، نقل أحد زوار البلد من الشتات، أنه رأى (الدكتور!) أحمد الحلبي في مدينة عكا بعد سقوطها بسنوات، وأنه ضابط في الاستخبارات الصهيونية، كان من اليهود العرب الذين قدموا إلى فلسطين لخدمة المشروع الصهيوني، وكان يتكلم العربية جيداً فتم زرعه في القرية.[١٤]

* * *

(١) محمـد عمـر حمادة، أعلام فلسـطين من (القرن الأول حتى الخامس عشـر هجري، من القرن السـابع حتى العشرين ميلادي)، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥، الجزء الأول، ص٤٧-٤٩.

(٢) يحتاج هذا الأمر إلى تدقيق، هل اعتقل وعمره ١٦عاماً، وقبل انطلاقة ثورة القسام.

(٣) يؤثر الكاتب الحديث بصيغة المفرد، والمنطق أن الحامية التي يترأسها أبو إسعاف هي التي قتلت، وليس أبو إسعاف وحده.

(٤) حيث تحضر أهل شَعَب لقطاف الموسم، ولكن عملية التهجير بدأت ليلتها.

(٥) من موقع صابرون على الإنترنت www.sabiroon.org.

(٦) نجيب الأحمد: فلسطين تاريخاً ونضالاً، دار الجليل للنشر-عمان، الطبعة الأولى، آذار ١٩٨٥، ص ٥١٠.

(٧) في يوم الأربعاء ٢٥-١٢-٢٠٠٢ في منزله في الحازمية في لبنان.

(٨) غسـان كنفانـي: مجموعة القصص القصيرة (عالم ليس لنـا)، الطبعة الرابعة عام ١٩٨٤، صفحة ١٥١.. كتب القصة في بيروت ١٩٦٥ كما يشير في تذييله لها.

(٩) محمود عبد الله كلّم: ناجي العلي كامل التراب الفلسطيني، بيروت، الطبعة الأولى، مكتبة بيسان، ص ٢٤.

(١٠) محمود عبد الله كلّم: ناجي العلي كامل التراب الفلسطيني، بيروت، الطبعة الأولى، مكتبة بيسان، ص ٧٦.

(١١) من كتيب صدر عن فعاليات حفل التأبين ورسائل التعزية ولجنة التأبين التي ضمت نواباً في الكنيست ورؤساء عدد من بلديات الجليل المحتل وشخصيات أخرى. صورة الكتيب موجودة لدينا.

(١٢) من وثائق أرشيف بهاء يوسف حسون في حوار معه في منزله قرب الجامعة العربية – نيسان ٢٠٠٥.

(١٣) جريدة السـفير - الأحد ١٩٨٠/١٠/٢٦ – محمد فرحات – مقال «عن شـاعر العتابا يوسف حسون: قدر أن يقف بعض الكلام قبل وهج الظاهرة».

(١٤) تبقى الرواية على ذمة الراوي..

الفصل السادس
المناسبات والأعياد

العرس في القرية

لا يختلف العرس في قرية شَعَب عن الأعراس في باقي القرى الفلسطينية في قضاء عكا، لذلك فإنه لن يكون مثيراً لمن قرأ عن العرس الفلسطيني في هذا القضاء أن يقرأ عن العرس في شَعَب، ولكن هناك اختلافاً يهمّ أهل القرية أنفسهم له علاقة باختلاف المكان والأشخاص.

وقد آثرت -رغم تشابه الكتب- أن آخذ ما يجري في العرس على لسان كبار السن في البلد، وليس من الكتب، وذلك للحفاظ على خصوصية المكان والزمان والأشخاص، وكذلك لاستنباش وإبراز الفروق في شَعَب، ليشعر «أهل البلد» بخصوصية كتاب بلدهم، وهذا من أهداف الكتاب، وإلا ما كان هناك حاجة للكتابة عن بلد بعينها. وكثيرة هي الكتب التي كتبت عن العرس الفلسطيني، وأعترف أن التالي لن يكون موسوعياً، (ولا أريده كذلك؛ ولو كنت أردته كذلك لجمعت من الكتب ما لا تحويه ذاكرة إنسان). ولكني أردت أن يمشي القارئ في عرس في شَعَب مع من كانوا يشاركون في العرس، لا أن يقرأ عن أعراس لا علاقة له بها. وعندما تقرأ -عزيزي القارئ- الأسماء ستدرك ما أقول.

١- فيما يخص العروس[١]

س- لنتكلم في البداية عن العروس، والعادات التي ترافق زفافها..

ج- قبل العرس تسهر البنت في بيت أهلها، وتحضر رفيقاتها ويغنّين لها أغاني خاصة، مثل: رفيّقتي رفيّقة الدلالِ..

ثم يعزمونها إلى بيت خالها، ويغنون لها أكثر من أغنية، ويحنّونها في بيت خالها بالذات.. وإن لم يكن عندها خال، يمكن أن يستعاض عنه ببيت صديقة لها أو أختها أو خالتها مثلاً.

س- لماذا يختارون منزل الخال وليس العم مثلاً؟

ج- لا أحد أولى من خالها إذا كان موجوداً.. وفي اليوم التالي، تتم الصمدة في بيت خالها أيضاً، حتى المساء..

س- هل من علاقة لتحرّيها (أي عدم سماح قريب لها بزواجها من غيره) باختيار منزل الخال أو العم؟

ج- الذي يتحرّاها هو ابن عمها، وإذا تعارض التحرّي بين ابن العم وابن الخال، فإن ابن العم هو الأحق.

س- يعني خالها يحق له أن يعزمها عنده فقط؟

ج- يعزمها عنده بليلة الحنّة. ويصمدونها كل النهار التالي في منزله. وفي السهرة تكون هي فقط من دون أهلها، ولكنها «سهرة نسوان»، وليس فقط رفيقاتها، فمن تريد من النسوة أن تغني لها يمكنها ذلك، ويسمون هذا الغناء «الترويد»، وليس الأغاني. مثل:

يا رويدتنا يا فلانة يا رويدتنا يا هِي
تضلي بحارتنا يا فلانة تضلي بحارتنا يا هِي

ويعدّون عليها مقاطع عديدة أخرى. ويغنّون أيضاً أغنية (رفيّقتي)، ومنها:

رفيّقتي رفيّقتي الدلالِ
رفيّقتي رفيّقتي الدلالِ
رفيّقتي ولما عزموها
تقول للبدر حيّد عن قبالي

وأغنية (مساة الخير)، ومنها:

مساة (مساء) الخير يا فول المقمع
مساة (مساء) الخير يا فول المقمع
والكحل لايقة والخد
يلمعوالكحل لايقة والخد يلمع

لَفَـــتْ خيلنـــا عَ دار أبـــوك
لفـــت خيلنـــا عَ دار أبـــوك
تســـع أيـــام تـــا أهلـك عطـــوك
تسـع أيـام تـا أهلـك عطـوك
تسـع أيام تـا صبوا القهيـوي (القهوة)
تسـع أيـام تـا صفّـوا الكراسـي
.. (وهكذا)

س- ما العبرة في كلمة «فول المقمع»؟

ج- كان مشـهوراً «صـف الحكـي» كيفما اتفق، ولكن الفول يكون مرتباً نظيفاً بدون «شـروش أو قشـور» بعـد تقميعـه. وهـو نـوع من الغـزل فـي المناطـق الزراعية.(قيمـة جمالية فـي البيئة الزراعية).

س- ومتى يأتي العريس؟

ج- يأتـي أهـل العريس إلـى دار خال العروس ليأخذوها، عندها يغنّـون لأهل العروس، على لحن (الأويها):

ظليـت أدوّر علـى الاِجْـواد تَنَاسـبهم
حتـى رماني الهـوى علـى مصاطبهم
وأنا أْن جابولي عشـرة جمال تحمّلهم
خمسـة قرنفل وخمسـة من قهيوتهم

قومـي معـي يـا بنـت الكـرام قومـي
يـا زعفـرة مْبرمكـة يـا زهـر لمونـي
ولـْميمتـك إطلعـي ولخالتـك كوني
يـا وردة فتّحـت بشـهر كانـونِ

وهذه الأغاني تعتبر تكريماً للعروس حتى تقوم وتذهب معهم، ومنها:

وقومـي معايـي وراكـي سـند
وراكـي حمولـة بتعمّـر بلـد
وراكـي أبو فلان وسُـربْتُه (مجموعته)
ومـا أحلى ديّاتـه (يديه) لعـدّ الذهب

ويخاطبون خال العروس وأهلها بالتالي:

يا بـيّ فلان وعز الرمـح بين إيديك
إحنـا نسـايبك واحنـا التزمنا ليك
وإن ردت غربلنـــا..

ويعزمون العروس إلى دار خالها فتقوم معهم، عندها يغنون لخالها، ومما يقولونه:

آيـيـهـــا قـمـــح قصـــري
وآيـيـهـــا شـــعيـر قايـــس
آيـيهـــا يســـلّمك يـا أبـو فـلان
ييهـــا يـــا عـــزّام العرايـــس

والقمـح فـي بلادنا له عدة أسـماء: قمح قصري، قمـح زرّيعة، قمح نورسـي، وهي عدة انواع بموسم واحد.

وعند خالها تكون ليلة الحنة، فيحنونها ويغنون لها:

دبّـل عيونـو ومـدّ إيـدو يحنّونُـو
خصـره رقيّـق وبالمنديـلِ لفّونـو..
(ويعـدون عليهـا عدة مقاطـع)[٢].

وتنـام العـروس بعـد ليلة الحنّة عند خالها، وعنـد الصباح يحممونهـا ويبرزونها (يزينوها بزينة العروس) ويصمدونها في بيت خالها.

س- ألا يغنون لها أغاني خاصة بالحمام والبَرزة والصَّمدة؟

ج- نعم، في بيت خالها، يغنون لها أغاني الحمام، ومنها:

يـــا محـمّـمِـــة حمِّميهـــا
بشـــويـــش لا تـوجّعيهـــا
ريت العـدل (الوجع) لديّاتك (لِيديْك)
تطلـع حبيبتـي (العـروس) سـليمة

شـعرك سـباني سـباني
علـى الوسـايد رمانـي
لَ سـايلِ امّ الشـعور (لأسألها أين تنام)
وألحقهـا علـى المنـامِ

أما البرزة، فقد كان لها أغان عديدة، منها:

لبسـتك الألـوان وقطّعتـك الـوادي
واصطادهـا يا عريس لـو كنت صيادي

ويعـدون علـى هـذه اللازمة عـدة مقاطع حسـب الألوان الموجـودة (الأصل أن تكون حسـب الألوان التي تلبسها العروس).

وقد درجت في البلد مقاولة (حوار زجلي) بين السمراء والبيضاء عند البَرزة.

س- ذكرت لنا الألوان، فما هي الألوان والعدة المستعملة للعرس، وكيف يتم تحضيرها؟

ج- كانـت تسـتخدم العروس عدة ألـوان، بدلة بيضا وبدلة زهر وبدلـة زرقاء، تبدلهم ما بين ليلـة الحنـة والخروج إلى بيت العريس.. وقد تسـتخدم واحدة أو اثنتين أو ثلاثة، حسـب القدرة المادية.

كان كل أهـل البلـد يشـترون مـن محل واحـد في عكا، كانـوا يقصّون القمـاش والجهاز من محل كامل أحمد سـليمان الخطيب. كان ينزل أهل البلد فيشـترون من عنده كل شيء في بقجة واحدة.(٣)

هذه البقجة خاصة لهذه المناسبة، يحضرها كامل الخطيب في محله، وتضم كل العدة من الحنة حتى البدلة.. وعندما يعودون إلى البلد يبدأ عمل الخياطات.

س- وماذا كانت العروس تحضر من عكا؟

ج- كانت العروس تحضر من عكا البدلة، الطرحة، الإكليل، الحنة، الريحة، الشمع، الكحل، حومرة (أحمر الشفاه)، بودرة، كريم، دبابيس عادي وللشعر، زيت للشعر، أما الصابون فمن أهلها ومـن العريـس، مناديل، حطّـات، قمطات (كانت نسـاء البلـد تلبس القمطة فـوق الحطة وليس تحتها، لم تلبس نساء البلد إيشاربات بل حطات حرير مسنسلة).

أما الثياب الجديدة، فيتم تطريزها في البلد، كالثياب الداخلية مثلاً، توزعها العروس على

رفيقاتها ليقمن بخياطتها وتطريزها، والجيل الذي سبق جيل النكبة كانوا يطرّزون مثل الثياب التي نراها في الحفلات التراثية، أما الجيل الذي خرج من فلسطين فلم يطرز هذا النوع.

أما البدلات الثقيلة (الثياب المهمة) فتُرسل إلى الخياطات، وأشهر خياطات العرايس في البلد كانت زهرة الطيار (توفيت سنة ٢٠٠٢).

ولم يكن في البلد خياطون للرجال، فكان الرجل إذا أراد أن يفصّل بدلة ينزل إلى خياط في عكا. أما الخياطة الرجالية الخفيفة فكانت الزوجات تقوم بها.

س- من يُلبّس العروس للبَرزة؟ أمها أم زوجة خالها؟

ج- لا، كان هناك امرأة متخصصة بذلك، ففي بلدنا كانت هناك أم رفعت منصور (نجيّة العبد)، كانت تبرز كل بنات البلد، ولم تكن في سنة ١٩٤٨ كبيرة السن، بل صبية، ولكنها كانت مرتَّبة ولبقة ومذوقة، وكان ترتيبها يعجب أهل البلد، وقد توفيت في لبنان سنة ١٩٩٨. وكانت تساعدها زليخة الحاج أحمد، توفيت بعد النكبة بقليل.

س- وماذا عن الأغاني أثناء البَرزة؟

ج- كانوا يغنّون على وزن (آويها)، ومما كانوا يغنون:

الطول طول القنا والعنق مايل ميل
والخصر من رقّتُه هدّ القوى والحيل
ويا صايمات الضحى يا مفطرات الليل
ردّوا عليّ غزالي ما بقالي حيل

فتقول أم العريس:

أنا هالغزال غزالي
أنا شريته بمالي
شو عَ بال الناس منُّه
إن كان رخيص ولاّ غالي

قالوا غزالك زْغيّر قلت شو مالُه
صندوق صدره ذهب لو ضاعت قفالُه
والله لآخذُه واصبر على حالُه
وأقيم من مال أبوي وأحطّ على ماله

أما الصبايا من رفيقاتها فيغنّين لها (أويها):

شعرك قصاقيص الذهب ينزان (يوزن) بالميزان
ما بين شعرة وشعرة منبت الريحان
لـَ زين ثقلك ذهب لـَ زين ثقلك مال
لـَ زين ثقلك ذهب تـَ يرْجح القبّان

أظافيرك الحمر بالحنة صبغتيهن
وزنودك البيض ما طلع الشعر فيهن
وخدودك الحمر شبه الورد هاويهن
وعيونك السود عمْ يتماثلوا فيهن

س- من كان يؤلف من أهل البلد هذه الأغاني التي تغنونها؟

ج- لم يكن هناك شخص واحد محدد يؤلف الأغاني، ولكنها تأتي بالاحتكاك والتراكم. فمثلاً، يمكن أن تقول إحدى الحضور (آويها) جديدة، كنا نحفظها ونرددها في الأعراس التالية. ويمكن لو أحضرنا عروساً من بلد ثانية (مثل ميعار أو البروة أو الدامون..)، كان من يأتي من تلك القرى هم أهل العروس وأقاربها ومن يبيّض الوجه من المغنين والدبّيكة، فيأتون بأجمل الأغاني عندهم، وأثناء العرس كنا نقول ما عندنا ويقولون ما عندهم، فنحفظ منهم ويحفظون منا، كذلك الأمر إذا جاء أهل عريس ليأخذوا عروساً من بلدنا.

مثل المقاوَلة التي أخبرتك عنها (بين السمراء والبيضاء)، كانت تقولها طَليبة (وهي من سحماتا، كانت زوجة أحمد محمد طه الخطيب في البلد)، وقد تقاولْتُ معها، فقلت لها:

إحنا السمر إحنا علبة العطّار
وكل شبٍّ تعلق بهوانا طار
وهات اللبن والعسل تنكشف الأسعار
ولحسة من العسل تسوى من اللبن قنطار

فتقول هي:

إحنا البيض إحنا الخوخ بعنوقوا (أعناقه)

..

وتقول أيضاً:

يا ماخذ البيـض خرخش بالذهب خرخش
واصبـر علـى البيـض تينـوّر المشـمش
واصبـر علـى البيـض تَيحمـرّ خديهـن
طلـت نجمـة الصبـح مـن بـين عينيهـن

وتقول عن الطول:

إحنـا الطـوال وإحنـا طولنـا غيّـه
وكل الأمـارة بتقصـد طولنـا فَيّـه
وقـول للقصيـر، يـا كلبـة سـلاقية
تجـرّ المصاريـن عَ سـوق الاسـكافية

وتظل النساء والرفيقات يغنين لها، إلى أن يحين وقت خروجها. وبالمناسبة لم تكن المقاوَلة تقتصـر على القوالين، ففي كثير من الأحيان، يسـتطيع دقيـق الملاحظة أن يدرك الخلافات بين الأقارب، كأن تكون عمة العريس على خلاف مع أمه، فإن من الممكن أن يظهر الخلاف في الأغاني، والغريب أن جميع نساء العائلة كنّ يقمن بواجب الغناء للعروس، ولكن كان «كل يغني على ليلاه» في بعض الأحيان، ويظهر «التزريك والتلطيش» في الغناء، كأن تمدح إحداهن العروس بما ليس فيها للفت النظر، أو أن تغني إحداهن لابنها الذي تراه أحق من العريس بهذه العروس، وهكذا.. إلا أن ذلك لم يكن حالة عامة، إنما كان في حالات خاصة وشاذّة.

وبعـد العصـر، يأتي أهـل العريس لأخـذ العروس إلى بيـت أهلها لتودعهـم وينقّطوها، ثم يأخذوها إلى بيت العريس.

في بيت خالها يغنون له:

يـا بـيّ فـلان كَثّـر الترحيبـة
إحنـا ضيوفـك مـن بـلاد بعيـدة
واحنـا الإمـارة دُوبْنـا لفينـا
مـن بـاب مكـة للحـرم صلينـا

يـا بـيّ فـلان يـا ابـن السـنجق العالـي
يـا رُزّ حيفـا وكل النـاس تكتـالِ
قهوتـك البـن والسـكر مباريهـا
عوايـد، أبـوك مـن قبلـك مجرّيهـا

ثم يغنون للعروس، وهي أغان مكررة من مرحلة سابقة (أي عندما يأخذونها من بيت أهلها إلى بيت خالها):

قومـي معـي يـا بنـت الكـرام قومـي
يـا زعفـرة مْبرمكـة يـا زهـر لمونـي
ولْ ميمتـك إطلعـي ولخالتك كوني
يـا وردة فتّحـت بشـهر كانـونِ

وهذه الأغاني تعتبر تكريماً للعروس حتى تقوم وتذهب معهم، ومنها:

وقومـي معايـي وراكـي سـند
وراكـي حمولـة بتعمّـر بلـد
وراكي أبو فلان وسُـرِبْتُه (مجموعته)
ومـا أحلى ديّاته (يديـه) لعدّ الذهب

ثـم ينقطهـا خالهـا، ويأخذها إلى خارج البيت، ثم إلى بيت أهلهـا. وعند الوصول إلى بيت أهلها تبدأ الأغاني لها ولأهلها:

يـا بنـت فـلان يـا بنـت مـن حشـم
بتسـتاهلي العبيـد والمملـوك والخدم
بتسـتاهلي الصايغ يصغلك خواتمك
مـن نُـص حيفـا علـى قـد خناصرك

وعند خروجها يغنون وراءها:

يخلـف علـى خـال العـروس
راعـي الشـرف راعـي النامـوس
عروسـتنا مـلاّ عـروس
حطّينـا فيدهـا فلـوس
عروسـتنا يـا ام الحلـق
قبّضنـا فيدهـا ورق
عروسـتنا يـا ام الكـردان
قبضنـا فيدهـا ذهبـان

حولونـا حولونـا نسـايب لا تزعلونـا

عادتنا نلبس مقاصب عادتنا نشلح مقاصب
عادتنا نناسب مناصب بالكـرم مـا يغلبونـا

عادتنـا نلبس مخامل عادتنا نشـلح مخامل
عادتنا نناسب حمايل بالكـرم مـا يغلبونـا

دار أبو العروس ويـا ركّـة علـى ركّـة
يللـي حرثتي علـى قلوب العدا بسـكّة
هجمـت عليكي الأعادي تـا يصيدوكي
فشْـرت لِحاهـم ولا غـدوا يطولوكـي

وعند أخذها من بيت أهلها يغنون:

يخلـف عليكـو وكثّـر اللـه خيركـو
ولا عجبنـا مـن النسـايب غيركـو

وإذا تأخـرت العـروس في الخروج من بيت أهلها، يغنون لها أغنية ذات لحن خاص، وليسـت تابعة للازمة (أويها):

كلّينـا واحنـا واقفـين
والصبـر علـى اللـه الكـريم
يـا أبوهـا وصلـت حدّهـا
ربـع المجيـدة خدهـا
سـبع البـراري بيّهـا

ويغنون للعروس أيضاً في هذه الحالة (التأخر):

قومـي يـا عـروس قومـي تمامـك عادْ
شـعرك ربايط سعد رابي عَ جنب الوادْ
قومـي يـا عـروس قومي تمامـك بس

شـعرك ربايـط سـعد رابـي
عَ جنـب البـص (المـاء)
قومـي اركبي يا غزالـي بيضا يا رفيعة
شـعرك ربايط سـعد رابي عَ الشـريعة

ثم يغنون لأبيها ليسمح بأخذها:

سـامح يا أبو فـلان ومرضاكـو عندنا
نرضيـك بعبدتنـا ونرضيـك بعبدنـا
نرضيك بشـقرا مـن سـلايل خيولنا
....

ويغني للعروس أهلُها عند خروجها (وهذه اللحظات تكون لأهل العروس لحظات حزن على فراقهـا، حتـى لو كان العريس ابن الجيران، فليسـت العبرة بالبعد ولكـن بالانفصال عن العائلة واسمها)، وهذه الأغنية على لحن (عريسنا زين الشباب):

من طلعتك يا جوهرة الشمس رجعت لَوَرا

ويغنون على لسان العروس:

يـا إمـي يـا إمـي طـوّي لـي مناديلـي
طْلِعـتْ مـن الدار مـا ودعت أنـا جيلي
يـا إمـي يـا إمـي عبّـي لـي مخداتـي
وطلعـت مـن الـدار مـا ودّعـت خيّاتي
يـا أهلـي يـا أهلـي لا يبـري لكـو ذمـة
شـو اللي عماكو عن ابن الخال والعمّي
يـا أهلـي يـا أهلـي لا يهنـى لكـو بـالِ
شـو اللـي عماكو عن ابن العـمّ والخالِ

كانت تخرج العروس إلى بيت خالها ليلة الحنة ماشـية، غير أنه لم يكن في عادات البلد أن تخرج العروس من بيت أهلها مشـياً، بل على ظهر الفرس.. وترفع يدها والتي يمسـكها أخوها أو أبوها، ويكون ماشياً بجانب الفرس. ويمكن أن تمسك بيدها باقة ورد أو قطعة سلاح، فيقال:
فلانة خرجت رافعة يدها، أي شريفة مكرمة..

كما أنّ العروس تلبس عباءة رجالية وتحمل السلاح (فرد أو شبرية..)، ويغنّون لها:

ركبتعَ ظهر الشقرا (الفرس) أخت الشباب
ركبت عَ ظهر الشقرا بطقم عناب

وهذه الأغنية حُوّرت في الشتات وأصبحت: ركبت بقلب التاكسي..

س- ماذا كانوا يغنون للعروس عند خروجها إلى بيت عريسها؟

ج- كانوا يغنون لها لدى الخروج بها:

صارت لنا ام الحسن صارت لنا صار الحمام يدرج على ابوابنا

ثم يتبعونها بأغنية «جبناها»:

جبناها وجينا يا خليلي جبناها من الدرب الطويلة
جبناها ولا بعنا ذهبنا ولا أصبحنا من المتدينين (من الدَّيْن)

في هذا الوقت يغني أهل العروس لابنتهم، وخاصة إذا كانت ذاهبة إلى قرية أخرى:

ودّعناكي يا منيحة والدرب منين لو نعرف ودعناكي قبل بسنتين
ودعناكي ورجعنا الله معنا رب السما يجمعنا ع درب العين

عندما يبتعدون عن بيت أهل العروس، يبدأ الغناء للعريس، ومما يقولونه:

٢- الطْليبة وكتب الكتاب (خاص بشعب)

يا ذكر(ةَ) الله يا خازاك يا إبليس
يا مين يروح يبشر العريس
خدّ العروس أحمر بلا تنقيش
عين العروس كحلا بلا مروادِة
خدّ العروس أبيض بلا سبيداجِ

يا ذكر أللـه يا خزى الشيطانِ
يا مين يبشر العرسانِ
هنيّة يا عريس الزين هنيّة

هنيّـة بالرواحـة والمجيّـة
هنيّـة للعريـس لـو جـاب عروسـته
وعيـب عَ شـباب العزابيّـة

س- مررنا على الزفة والزواج ولكن متى يتم كتب الكتاب؟

ج- يتـم كتـب الكتـاب قبل الزفة بوقت، فـي بيت أهل العروس، وكان يكتـب الكتاب في بلدنا الشيخ رفيق ملك (الشيخ محمد)، كان يأتي من عكا، وهو شَعَبي الأصل، ولكنه كان يكتب الكتابات لعدد من قرى القضاء.

وعندما كان يطلب شـاب فتاة، وتتم الموافقة، تبدأ القطيعة بينهما (يتحاربون) ولا يكلمان بعضهما أبداً أوضح البعض الصورة أنهما كانا كالأخوة، وثبتت «نية» الشاب بطلبه إياها!، لذلك فلا يحلّ له الكلام معها خارج الزواج لأن في باله شيئاً ما تجاهها (وبظني أن هذا نوع من الجهل، وأعتقد أن السـبب الحقيقي للأمر أن العروسـين باتا تحت المجهر، ولم يعُد بإمكانهما التظاهر بالبـراءة أمـام الناس).. هذه هي العادة، والعادات تنشـأ بالتراكم، ومن الصعب أن يجيب رأي فرد واحد على أسبابها.

س- كيف تتم الخطبة، يعني إذا بلغ شخص سن الزواج، وبدأ بالتفتيش عن العروس؟

ج- أول الأمـر، يذهـب أهلـه لرؤية عـروس، ربما استنسـبها العريس أو كلمـه البعض عنها، فتذهـب أم العريـس وتكلـم أم العـروس بالأمر، وتُروى قصص على سـبيل النكتـة ولم تحدث في بلدنـا علـى الأقـل، أن تأخـذ أم العريس معها عدة الفحـص! (الإبرة وحبة جـوز لفحص نظرها وأسـنانها)، وهـذا مـا يتندر بـه الناس، وربما صدّق البعـض أن هذا يحدث، علـى الأقل في بلدنا وعصرنـا لـم يحدث. لكن ما يهـمّ أهل القرى كان قوة بنية البنـت، لأن العمل الذي ينتظرها في بيت زوجها كثير، ويحتاج إلى القوة أكثر من النعومة، ومما يروى من طرائف شباب شَعَب أن أحد أبنـاء البلـد أراد أن يخطـب فتاة، فنصحته أمه بأختها لأنها أقـوى بُنية منها، فما كان منه إلا أن قال لأمه «أنا بدي أتزوجها، مش آخذها لأحرث عليها!!».

ثـم تُكلـم أمُّ العروس والدَها، فإذا تمت الموافقة الضمنية، يأتـي أهل العريس مع (الجاهة)، وهي مجموعة من وجهاء الأقارب والبلد.

وإذا كان أهل العروسـين أصدقاء ومعرفة قديمة، يعفون عن طلب الجاهة، وتكلفة العريس الواجـب تجـاه الجاهة. أمـا إذا كان أهل العروس يحبـون الفخامة، فإنهم يطلبـون الجاهة التي هـي مـن أركان وركائز طلب العروس، بل قد يشـترط أهل العروس علـى أهل العريس أن يكون في الجاهة أشخاص معيّنون (ربما بهدف التطعيم بشخصيات مهمة، أو التعجيز، أو التفاخر..).

والجاهـة لا تكلـف مالاً، بل تتطلب جهداً غير هيّن. وقـد يُطلب في الجاهة أناس من خارج البلد، ولكن هذا لم يحدث في بلدنا. والأمر كله في النهاية مظاهر ومن باب الإعلام والإعلان.

ويتمّ طلب العروس من قبل رئيس الوفد (الجاهة)، فيقول والد العروس: أعطيتك، فيجيب والـد العريـس: وأنـا أجزيتك (أجزلتـك) العطاء، ثم يذكـرون قيمة المهر (يتفق عليـه عادة قبل حضور الجاهة). وقد وصلت قيمة مهر العروس (الفيد) في أواخر السـنوات التي سـبقت النكبة إلى ٦٠٠ ليرة فلسطينية (وهو مبلغ نادر لم يحصل عليه سوى عدد قليل). وقد يكون هناك مؤخر الصداق، وقد لا يكون، ومنهم من لا يجد مالاً فيكتب في المهر قطعة أرض أو عدة شجرات..

وبعد الموافقة توزع الحلوى على الحاضرين، وتتفرق الجاهة بعد جلسـة الطلب التي تكون على شكل سهرة في بيت والد العروس.

عندما تدار القهوة على الحاضرين، لا يشربها أحد من الجاهة إلا إذا لبّي طلبهم، وعندما يلبى الطلب يشربون القهوة، ولا يشربونها إذا لم يلبّ طلبهم.

س- ماذا عن المهر (الفيد) وقيمته؟

ج- في العادة تَدْرُج أسعار، وتُعمّم على أهل البلد، فتجد جيلاً من العرائس كان مهرها ٣٠٠ ليرة فلسطينية. والجيل الذي تلاه كان المهر فيه ٤٦٠ ليرة فلسطينية (حوالي سنة ١٩٤٧).

ثم تلاهم مهر بنت المختار الشيخ أمين حمزة، خطبوها لمحمد عبد منصور. فبعد أن أعطى، قالـوا لـه أجزينـاك العطاء بـ ٤٠٠ ليرة فلسـطينية، فاجأهـم بطلب ٦٠٠ ليـرة، فارتبكت الجاهة وتمـت الموافقـة على مضـض.. وقد أثار الأمر بلبلة بين أهل البلد (حيـث إن تعميم قيمة جديدة للمهر يضرّ بالعرسان اللاحقين، ويثير غيرة العرائس السابقات).. وكان ذلك سنة ١٩٤٨.

س- هل كانت هذه آخر عروس في البلد؟

ج- نعم اسمها صفية الأمين، وبقيت في البلد بعد النكبة، وكانت آخر بنت خطبت في البلد، غير أن هذه الخطبة لم تُكلل بالزواج.

وقـد خـرج من البلد حوالي عشـرين بنتاً مخطوبة أو مكتوب كتابها ومسـلّمة المهر، أما من تـزوج عـام ١٩٤٨ في فلسـطين، فهنّ: عصريـة (زوجة محمد عبـد منصور)، صفيـة العبد (زوجة أحمـد كامـل الخطيب - أبو كامـل). وكان مهر كلّ منهمـا ٦٠٠ ليرة فلسـطينية، وفاطمة الكامل (زوجة سعيد عبد الجليل).

س- من أول من تزوّج من أهل البلد بعد النكبة؟

ج- كل من خرج خاطباً من فلسطين، تزوج بعد النكبة بصمت، بدون الزفة أو الهيصة التي ذكرناها، وكانوا كأنهم في حداد، فكان زواجهم في الخيم سنة ١٩٤٩..

لقد كان لهول التهجير ضغط غير طبيعي على المهجرين، فلم تشهد السنوات التالية للنكبة أعراساً فلسطينية كالتي كانت تحدث في البلد. علماً أن حوالي عشرين شاباً من أهل القرية كانوا على أهبة الزواج، منهم من كان خاطباً ومنهم من كان كاتباً كتابه.

وممن كان خاطباً من أهل البلد:

منيرة الموسى (أبو عرب) – صبحي سليمان أبو الهيجا

آمنة الأسعد – طه الخطيب

نجمة السعيد – رشيد مطلق

حاجي علي الموسى الأسدي – عمر أبو دياب (عبد الرحيم الزمار)

عائشة علي حسين – أحمد محمد حسين

نجمة سليم السيلة (أبو عرب) – محمد موسى أبو عرب

أمينة أحمد عبد الحليم (حسين شحادة) – عمر محمد عبد الحليم (حسين شحادة)

أمينة أحمد الحاج (طافش) – أحمد الحاج طافش

عفيفة حسين الميعاري – إبراهيم حسن الميعاري

ولكل خاطب أو متزوج من أهل البلد قصة طريفة أو أليمة تروى في المجالس، رأينا أن نحتفظ بخصوصيتها لأصحابها رغم أن طرافتها تغري في بعض الأحيان الكاتب إلى تناولها.

٣- العرس عند الرجال

بعد الاطلاع على ما كتب في التراث، وخاصة قصص القرى، يلاحظ أن هذه الكتب تناولت احتفالات الرجال ولم تتناول بالتفصيل احتفالات النساء.

ويعود ذلك -بتقديري- لأمر أساسي، وهو أن احتفالات الرجال كانت عامة بين الناس، ويشهدها الجميع. وبصيغة أخرى كانت هي القسم المعلن من الأعراس، والمشترك بين الجنسين، وهو الذي يعطي للمراقب طابع القرية ويعبر عنها. أما احتفال النساء فكان مخبأً، الأمر الذي يجعل عرض حفلات الرجال أسهل.

لذلك آثرنا في الكتاب أن نعرض لحفلات النساء بالتفصيل، فيما نعتمد على اختصار حفل الرجال التي فصّلتْها الكتب الأخرى، كما سيأتي.

ولقد شهدتُ هذا العرس بتفاصيله في مخيم برج الشمالي، وحرصت على تسجيله ومقارنته

بأعراس فلسطين، حيث ما زالت بعض العائلات الفلسطينية تحافظ على هذا التقليد، كما أني شهدته أيضاً على شريط فيديو وصل إلينا من فلسطين بعد الاجتياح الصهيوني للبنان، وكان العرس لقريبنا الأستاذ في جامعة حيفا – كلية العلوم الاجتماعية نهاد صلاح حسين.

نتابع الحوار مع الحاجة أم هاني[٤].

س- ماذا يقابل طلب العروس عند الرجال؟

ج- في الوقت الذي تكون فيه العروس قيد التحضير، تجري زفة العريس في شوارع البلد والبيدر، على أن هذه الزفة قد تطول وتقصر حسب مكانة والد صاحب المناسبة وكرمه، فمنهم من تبدأ أفراحه قبل يوم ومنهم من تبدأ قبل أسبوع، وقد يحدث أن تطول أكثر..

تأتي (الفاردة) لإحضار العروس من بيت أهلها، في هذا الوقت يغنون لها ولأهلها (راجع في الصفحات السابقة حول عرس النسوان).

س- متى يتم حلق الشعر والرقص بالطقم؟

ج- (فاتتنا هاي!)، قبل الزفة يؤخذ العريس إلى بيت أحد أصدقائه، وتتم هناك هذه العادات والتقاليد.

١- فيحلقون له شعره ويزينونه و(يهندسونه! قبل أن يهندموه)، ويغنون له:

احلق يا حلاق وتمهل عليه تاييجوا صحابه يطوفوا حواليه
احلق يا حلاق بموس الفضة تمهّل يا حلاق زعلان تيرضى
احلق يا حلاق بموس الذهب واحلق للعريس يا شيخ العرب

٢- وبعد حلق الشعر يتم اغتسال العريس، وفي هذا الوقت تغني أمه والجيران والأخوات في الخارج، ويتناوبن على السدر (الطبق) الذي وضع عليه طقم العريس، ويرقصن به ويتمايلن الواحدة تلو الأخرى وهنّ يغنين:

هاتوا لنا هالعريس تنشوف حالاتو
هاتولنا هالعريس تنشوف زيناتو

٣- ثم يرسل الطقم للعريس بعد انتهائه من الحمام، ويدعى إلى الزفة بالأغاني، وتغني النساء:

بالهنا يا أم الهنا يا هنية
نزّلوا العريس عالفيصلية
بالطبول والزمور القوية

ثم تبدأ الزفة..

س- الغريب أن كل القرى تقريباً متفقة على أن الزفة تتم على البيدر، هل هذا ما كان يحدث في شَعَب؟

ج- نعم، لأن البيدر يكون بمثابة ساحة لكل البلد، وغير محسوب على حارة واحدة، ويتجمع فيه كل أهالي البلد من كل الحواري (الشرقية والغربية والشمالية والنصارى)..

يتجه أهل البلد من بيت العريس إلى البيدر، وقد يستضيف العريسَ أحدُ البيوت القريبة من البيدر، مثل بيت الحاج حسين فاعور في شَعَب الذي استضاف أكثر من عريس، منهم سعيد محمد علي لدى زفافه إلى فاطمة ياسين فاعور. وفي البيدر تبدأ مراسم الزفة، حيث كان في شَعَب يسير الناس بصورة منتظمة، الرجال قبل الفرس والنساء بعدها، والأطفال منتشرون..

س- وهل كان يُزفّ العريس على الفرس؟

ج- نعم، وكان يتم تزيين الفرس بثلاثة ألوان فوق بعضها من أقمشة المخمل، وفيها شراشيب أشبه بشراشيب الستائر المنزلية في أيامنا.

وكان أثناء سير الزفة إلى البيدر ومنه إلى بيت خال العروس، يغني الحدّا (الحادي) محمد خليل، ولا يغيب بالطبع دور العازفين هنا، فقد كان يتقن العزف على الشُبّابة من القرية عبد الله الحفيظ وشكري أبو علي فيما كان سيد العزف على المجوز علي الحاج حسن، وكانوا كلما مروا على بيت من بيوت القرية يغنون لصاحبها، وتقوم نساء هذا البيت برشّ الملبّس على أفراد الزفة، ويخرج من بعض هذه البيوت من يوزع القهوة على الناس، ويغني له الناس ولقهوته.

س- ومتى تقام حلقات الدبكة والسحجة؟

وعند الوصول إلى البيدر، تُعقد حلقات الدبكة والسحجة بالإضافة إلى سبق الخيل، وقد يتحدى الشباب برفع العَمْدة. ولأهل شَعَب تراث في السحجة ما زال حتى يومنا هذا يطبق، حيث يقوم كبار القرية وصغارها في حلقات العرس الحديثة ويبدأون في السحجة على أنغام وأغاني بهاء حسون (ابن الشاعر يوسف حسون).

والسحجة من عادات فلسطين إلا أن شَعَب اشتهرت بها بعد النكبة أكثر من القرى الأخرى، وذلك كما ذكرنا لوجود الشاعر يوسف حسون، ووفاء من أهل البلد لما تركه من تراث، وكانت تتم كالتالي:

يقف في صف واحد طويل عدد كبير من الشبان والرجال، ويبدأ الحداء بترديد أغنيتها، التي هي في الأصل كناية عن العونة والشرف، فيقول «يا حلالي ويا مالي»، ويردد الجميع هذه اللازمة بعده، مترافقة مع تصفيق خاص وسير بطيء، إنه أشبه بدبكة الكفوف وليس الأرجل. ويقول الشاعر:

بحيّـي الرجـال بحييهـا　　مـن أولهـا لتاليهـا
شَـعَب أللـه محييهـا　　مِثْـلا مـا شـفت بلـدان

ويتابع الجميع خلفه مع التصفيق على نغمة خاصة: يا حلالي ويا مالي.

وهناك الكثير من الأغاني، سنعود إليها في فصل لاحق.

وفي الزفة تطلق معظم هذه الأغاني، بالإضافة إلى المهاهاة والزغاريد، التي تطلقها النساء بين الحين والآخر.

وعندهـا تخـرج الزفـة مـن البيدر إلى بيـت خال العروس، حيـث يتم اصطحابهـا إلى بيت أهلها، وهناك تودع أهلها وينقّطونها، ويجلونها ثم يذهبون بها إلى بيت العريس. (راجع هذا في الفصل السابق بدقة في الحديث عن القسم النسائي من العرس)..

وقبل وصول العروس إلى بيت العريس، تكون النسـاء من الأقارب قد أدخلن كسـوة العروس إلى بيتها، وسط الأغاني والزغاريد:

حمّـل الزيـن يـا زيـن　　حمـل الزيـن وشـال
حمّلـوا جهـازك يا حلوة　　حمّـل أربـع جمـال

..

وتدخـل العـروس إلـى البيـت (أشـرنا فـي السـابق وكيف يتـم اسـتقبال العـروس في بيت عريسها).

س- وكيف يستقبل أهلُ العريس العروسَ في بيتها؟

ج- تكـون أم العريـس قـد جهزت الخميرة وإبريـق ماء. فتلصق العـروس الخميرة على باب الدار، وتحمل إبريق الماء على رأسـها وترش الماء من العتبة إلى المرتبة. والعبرة من إبريق الماء، أن الماء خير، وأن قدوم العروس إلى بيت عريسها خير.

س- ومتى يأتي العريس؟

تجلـس العـروس في بيت العريس، وفي هذا الوقت لا يكـون العريس موجوداً، وعندما يأتي العريـس مـن الزفـة الخاصة بـه، يؤذّنون على رأسـه ويدخل البيت فيكشـف المنديـل عن وجهها (ويرفـع الطرحـة عن رأسـها)، ويجلس قربهـا وتبدأ الصمدة من جديد في بيـت العريس بوجود الناس والأغاني الخاصة التي ذكرناها.

وتسـتمر النسـوة بالأغاني إلى أن يحـين وقت الدخلة، فيتفرق النـاس بعد نيل حظهم من الفرحة والقيام بالواجب. وفي صباح اليوم التالي، يُحضر الأهل أطايب الطعام وأزكاها وأكثرها تغذية للعروسين..

س- وماذا عن الصباحية؟

ج- اشتُهرت عادةٌ على سبيل المزاح بين الشباب، مثل «العلامة على نجاحه» في تلك الليلة، أن ما يرسل من طعام للعروسين، يخصصان به. فإذا «تيسّر» أمر الزواج في تلك الليلة، فإنهم يحضرون له «القص» من الذبيحة، وأما إذا لم تتم الأمور فإن الطعام يرسل من دون «القص».

وبعد أسبوع يُعزم العريس وزوجته إلى بيت أهلها في عادة تسمى (ردة الرِجل).

٤- أغاني العرس

كثيرة هي الأغاني التي تجود بها حناجر الرجال والنساء في الأعراس، وقد درجت مؤخراً ظاهرة تجديد هذه الأغاني وبات الجيل الجديد يحفظ معظمها، وكانت يتم تطويل الأغاني بتغيير كلمة أو كلمتين من المقطع أكثر من مرة، وسنشير في نهاية كل مقطع إلى الكلمات التي تستبدل ونضيف إليها مثلاً واحداً مما يحل مكانها، فإذا كتبنا (أمه = أخته) فإن هذا يعني أن الكلمة تستبدل بأخته أو خالته أو عمته أو جيرانه وهكذا، الأمر الذي قد يغير أحياناً بقافية الأغنية، كما سنستبدل اسم العريس بكلمة (عريس)، كما أن القارئ سيجد في طيّ ما سبق بعض ما سنذكره هنا، ومن هذه الأغاني:

٤- من وين اجيب الحنة يا عريس يا أمير

١- واحنا ناوينا ع الفرح ... يا ناس صلوا ع النبي
جبنا البدلات وعشرة ... من عند تاجر مغربي
مَدْري لعرسك يا عريس ... والاّ لزوار النبي
..

٢- تستاهلي يا امّ العريس الفرح ... تستاهلي كبش الغنم ينذبح
تستاهلي الذبّاح على بابكِ ... ويظلوا يذبح تا يلوح الصباح
(الذباح= الدباك وغيره..).

٣- يا تمر حنة يا عرق القمح ... وتقول إمه يا قليبي انشر
قولوا لأمه تفرح وتتهنى ... ترش الوسايد بالعطر والحنة
(إمه=أخته، عرق البلح=عرق الشجر).

والعروس من عنا والحنة من الخليل
(الخليل= يتم تعداد البلدان الفلسطينية والعربية)

٥- يا هالحبايب، ودايم فرحكو دايم
حسّ الزغاريد أقلقتني وأنا نايم
(دايم الثانية= دغشة، وأنا نايم= من الفرشة)

أغاني الحمام

٦- آه يا شراب رمان يا عريس بالحمام
بعثتللو البدلة والصانع والخدام
(البدلة= الريحة..)

٧- حمموا الغالي بالرِّواء العالي عدوة إمه تقول يا غلب حالي
يا ريت مِن دعت عليك يا روحي تبلى بحربة في مردّ اللوحِ
(يا روحي= يا غالي، مرد اللوح= سقم الحالِ).

أغاني الدبكة

٨- بدينا نقول باسم الله بدينا صلوا ع النبي يا حاضرينا
صلوا ع النبي وزيدوا صلاته صلاته تشرح القلب الحزين

٩- جينا افراحكو يا احباب جينا وما احلى فرحكو يا الغالِيينا
(يا احباب جينا= يا دار عمي، يا الغالِيينا= أرقص واغني)

١٠- هذه الردة تتحدث عن المنافسة بين فريقين على عروس واحدة:

طلّت خيلنا من قاع وادي راحت خيلنا تلاقي الأجواد
راحت خيلنا وإجت مبرشمة راحت خيلهم رجعت مْفشّلة
شربت خيلنا ميّة زلال شربت خيلهم تالي العكاري
علقت خيلنا روس الصلايب علقت خيلهم تالي الطرايب

١١- عن استقبال الضيوف والذبح:

وضيوف جاتنا ومدري مين لاقاها
قام أبو العريس هبوب الريح لاقاها
إيدو تسلم والأخرى تشوح للراعي
هات الجفاري وخللي إمّات (أمهات) الصغار
يا أم العريس روجي بالعشا روجي
ساوي المطبّق ملبّق عشا الأجواد

١٢- في مدح أصحاب الفرح وشبابهم، والجنينة هنا رمز لعائلة صاحب الفرح وشبابها.

فيكي وفيكي يا جنينة دار الشيخ فيكي وفيكي يا ميمتي يمّا
يتخطّم فيك هالشيخ أبو العريس يتخطّم فيكي يا ميمتي يمّا
(فيكي وفيكي= فيكي زيتوني أو تيني)

١٣- وجيت أصبر ولا جاني جلادِه
ولا من احبابنا نلنا المرادِ
ولا قرش الزغل مثل الجهادي
ولا طير الجلب مثل المربى
ولا ابن البلد عنو مخبى
..

١٤- غزل رقيق يشير إلى جمال الحبيب وفراقه:

يا نجمة المصباح كان لك زمان وراح
يا زين بالله احكيلي سكران والاّ صاحي

١٥- أغنية طويلة عن سفر الأحباب:

آه يا ريم الغزلان يللي ع السفر نويتْ
يللي ع السفر عمّدْ صلوا على محمد
يومٍ قالولي عمّد صبغت تيابي وحديت..

أغاني الزفة على البيدر

١٦- عـددوا المهـرة وشـدوا عليهـا تـا ييجـي العريـس ويركـب عليهـا
قلتللـو يـا عريـس يـا ابـن الكـرام عيرنـي سـيفك ليـوم الكيـوان
وسـيفي محلـوف عليـه مـا بعيـره جايـي مسـقّط مـن بـلاد اليمانـي
(شـدوا عليها= جيبو عباتُه أو عقالُه..)

١٧- بالهنـا يـا امّ الهنـا يـا بـوادي والْتَـوت عينـي ع بيـض الجيـاد
والتـوت عينـي ع العريـس بـالأول لأنـه أحلـى مـن تمـر الفـؤاد

١٨- ودّوا ورا أولاد عمُّه يجيبولو
بالطبول وبالزمور يلعبولو
بالخيول المبرشمة يطاردولو..
بعـد العـودة من البيدر يدخلون البلد ويبدأون بالغنـاء لأصحاب البيوت التي يمرون قربها (راجع التفاصيل سابقاً).
وبيّ فلان أول من نبدي
الله يجيرك من ليالي الشدِّه
وبي فلان هالعريس نَزيلك
ذرّ القهيوي بطرف منديلك
(نزيلك= بساحتك أو بدارك أو عريسك..، منديلك= عباتك أو زنارك أو قميصك)...

١٩- هوجي وموجي يا الفرس
واصحي لا تْدبّينَه يا الفرس
غالي ع محبينه يا الفرس
اصمدي بالخيمة يا الفرس
غالي على الميمة يا الفرس
(الخيمة= الفيّة أو لحاله، الميمة= الخيّ أو خاله).

٢٠- اركب ويا عريس وعلّي ركبتك
يا ضمّة الريحان تزين سُربتك
وإن كان يا عريس تريد ام الكردان

لانصب لك الرايات على مدخل بيسان

(ام الكردان= ام المنديل أو ام الذهب، مدخل بيسان= جبال الخليل أو مدخل شَعَب وأصلها قلعة حلب).

٢١-ويش هالعريس الطايف ابن الدلال والعادة

قاعد على المخدة وإجرو على السجادة

يا بيّو قوم وافتحلوا جايب معه القلادة

(العادة= الغيّة، السجادة= الخديدية).

٢٢- ويش هالعريس اللي تقولوا عنو

يا خلقة الرحمن قالوا عنو

والله لالحقه على حمامه

أضحك عليه وآخذ بدلته منو

(حمامه= منامه)

٢٣- يا بيّ العريس يا لبيب السيف

الله يجيرك يا محيي الضيف

(لبيب السيف= وردة جورية أو وردة بمزرعة أو لبيب الخاتم، يا محيي الضيف= يا صاحب االناموس والكبرية أو للضيف دوم مشرعة أو يا محيي الحاكم)

٢٤- عند الوصول إلى البيت لينزل العريس عن الفرس:

يا هاالعريس الْ راكب بدك تنزل — خيل الأعادي قاصدة للمنزل

يا طالعة من عقبات الريحاني — وقفوا للعريس مهرته تعبانة

وقفوا لَـ بيّو تا يمدّ سفرتُه — يا سفرتُه ما مدها سلطانِ

٢٥- المقطع السابق عند نزول العريس عن الفرس وقبيل غداء الناس، والآن إلى غداء الناس:

يا مين يغدّي هالصبايا علب — بصحون فضة والمعالق ذهب

يا مين يغذي هالصبايا إوز — بصحون فضة والمعالق ألماز

٢٦- وعند الوصول إلى بيت أهل العروس لأخذها:

يا بيّ العروس كثر الترحيبة — إحنا ضيوفك من بلاد بعيدة
إحنا الأمارة دوبنا لفينا — من باب مكة للحرم صلينا

٢٧- ولحظة الخروج مع العروس من بيت أهلها:

يخلف عليكو وكثر الله خيركو — ولا عجبنا بالنسايب غيركو

..

صارت لنا ام الحسن صارت لِنا — صار الحمام يدرج على ابوابنا
يا ذكرة الله يا خزاك يا إبليس — يا مين يروح يبشر العريس
خد العروس أحمر بلا تنقيش — وعين العروس كحلا بلا مروادِة

(إبليس= الشيطان، العريس= العرسان)

٢٨- هنية يا عريس الزين هنية — هنية بالرواحة والمجيّة
هنية للعريس تيجيب عروسته — ويعيّب ع شباب العزابية

٢٩- عند دخول العروس إلى بيت العريس، يغنون لها:

عمّر البيت عمر بحياة الرجال
خشب البيت صندل عواميده ريحان
شرع السيف واعبر يا بنيّ الحلال
ما بالبيت إلا حلالك شعرها للزنار

..

دوسي على الفرشة دوسي
يا مباركة يا عروسِة

(دوسي= بحلاتك أو بقميصك أو بكمك أو لحالك، عروسة= حماتك أو عريسك أو بيت عمك أو عيالك).

يا زارعين الورود — أحمر ع لون الخدود
والورد إجا من الجنايين — غزوا براس الكنايين
والورد إجا من الكنايس — شكّوا بروس العرايس
يا زارع الورد شمُه — والورد بعده على إمّه

والـورد إجـا مـن حاصبيـا شـكّوا بـراس البنيّـة
يـا زارع الـورد صونـوا والـورد دلّـى غصونُـه
نـازل مـن القصـر نـازل خصـره يـا رق الخناجـر
واجـب عليـك بـي العريـس تعـزم بنـات الأكابـر
تطبـخ مـن الـرز الأصفـر ونزعفـرُه بالطناجـر
جـوز الحمامـات شـرّق والعنـب والتـين ورّق

٣٠- المباركة والدعاء للعروسين بالرفاء والبنين:

ريتك مباركـة علينـا وعلينـا
وتبشري بالصبي ونلفه بإيدينا
..

٣١- واحنا حلفنا الليلة ما ناكل إلا زيت
يا فرحتك يا عريس غزالك خش البيـت
(زيت= خيار أو الفقوس، البيت= الدار أو جبنالك العروس)

٣٢- طالت الليلة عليك يا ابن عمي إنت روح لأمك وأنا أروح لأمي
كيف بدي أخليك تروحي لأمك عشر آلاف ال حطيتها لعمك
(ابن عمي= ابن خالي، لأمي= لحالي)

٣٣- الأغاني التالية يتم بعضها في منزل أهل العروس أحياناً:

مسيكو بالخير يا أهل البيت
من هو ضايفكو يا أهل البيت
العريس ضايفكو يا أهل البيت
بدو بنيّتكو يا أهل البيت
بدو..

يخلف على خال العروس راعي الشرف راعي الناموس
عروسـتنا مـلا عـــروس حطّينـا فيدهـا فلـوس

عروستنا يا ام الحلق قبّضنا فيدها ورق
عروستنا يا ام الكردان قبضنا فيدها ذهبان

ويمسكون بالدبكة عند أهل العروس:

حولونا حولونا نسايب لا تزعلونا
عادتنا نلبس مقاصب عادتنا نشلح مقاصب
عادتنا نناسب مناصب بالكرم ما يغلبونا
عادتنا نلبس مخامل عادتنا نشلح مخامل
عادتنا نناسب حمايل بالكرم ما يغلبونا

دار أبو العروس ويا ركّة على ركّة
يللي حرثتي على قلوب العدا بسكّة
هجمت عليكي الأعادي تا يصيدوكي
فشرت لحاهم ولا غدوا يطولوكي

٣٤- قطعنا البحر بحرينِ قطعنا البحر ياعيني
قطعنا البحر يا عمي على اللي خصرها ضمّة
(عمي= خالي، خصرها ضمة= فيدها غالي)

٣٥- مندل مندل منديلا عريس يا أبو المنديلا
هاتوا الجمل تا نرحل عالقدس والخليلا
قاعد بالبيت الغربي ودايروجهه للغربي
عريس حرقت قلبي بلبسانك للمنديلا

٣٦- شمع العريس سلطاني وأنا اشعلُه بداري
واندہ وأقول يا بيّو هَيّي العروس للغالي

(بيّو= إمه)

٣٧- والسمسم الأخضر جلل الحيطان من هو عريس وميمتُه فرحانِة
قولوا للتاجر يفتح الدكانِة يطول القمصان يلبس العرسانِ
(التاجر= الصايغ، القمصان/البدلات= الساعات/المحابس)

٣٨- يا حميمصة يا فريط رماني يا حميمصة حامضُه لفّاني
يا حميمصة صرّيت لُه الريحة يا حميمصة بمحرمة مليحة
(الريحة= القهوة، مليحة= شهوة).

٣٩- واللي فرح لِنا ييجي ويهنينا
واللي فرح لِنا ييجي من باب الدار
ولاّ أنت يا عريس يا مزرر القفطان
(الدار= الخوخة، القفطان= الجوخة)

٤٠- يا فرحتي اللي ما طال العمر برقب ليها وسْألت رب السما إنه يتمِّمِها
واتّممت يا عزيز الروح يا غالي واتّممت بعناية ربنا العالي

٤١- قومي اركبي غزالِة قومي تمامك عاد
شعرك ربايط سعد رابي عا جنب الوادْ
(عاد= بس أو بيضة يا رفيعة، الواد= البص أو رابي عالشريعة)

بالإضافة إلى هذا، لم نذكر المهاهاة والأغاني المكررة والمناظرات بين الحدائين في الأعراس، وبعض الأغاني التي ذكرت سابقاً..

الولادة

كانت الولادة تتم علي يدي القابلة (الداية أو الولاّدة)، وكان في شَعَب عدة دايات منهن الحجة وردة الشاهين (حسين شحادة)، آمنة الحسنا (شحيبر)، وفاطمة المسلمانية (هي لبنانية مسيحية قيل إنها من قرية رميش، حضرت إلى القرية مع ابنتها وأسلمت وتزوجت عبد محمد الخطيب).

وقد كان آخر من ولّد من نساء القرية أثناء النكبة: ريا العلي (أم فيصل شحيبر)، ولد ابنها عمر شحيبر في حقول الزيتون التي اختبأ فيها الأهالي أثناء الكرّ والفرّ على القرية. ثم تبعتها أمها زهرة الخالد التي ولدت في مجد الكروم، ابنها عبد العزيز علي، وقد بقيت بعد النكبة في مجد الكروم وتوفيت مؤخراً في عام ٢٠٠٢.

أما أصعب الولادات فكانت لزوجة فياض الحاج حسن، فقد ولّدت لبيبة ابنها أحمد فياض الحاج حسن في «طلعة الجرف»[٥] أثناء النزوح.

ولأهمية المولود الذكر في مجتمع الفلاحين، كانت تأخذ الداية أجرها زيادة إذا كان المولود ذكراً، فيزيد الأجر بالهدايا من الصابون والحلو. أما إذا كان أنثى فإن مما ورثه أجدادنا عن الجاهلية من عادات جبّها الإسلام أن يسود الصمت والعبوس إذا كان المولود بنتاً. وكان أكثر من يتأثر بالهدايا هو أم المولود فتكثر هداياها عندما تلد ذكراً.

وقد كانت هدايا الأقارب لأهل المولود تتركز على الطعام من اللحم والدجاج وغيره، كما تتضمن الهدايا قطع القماش، وكثيراً ما كانت تُدسّ قطع القماش مع الطعام المرسل إلى أهل المولود.

وكانت تتم الولادة في البلد كالتالي:

بعد الولادة وقطع الحبل السّرّيّ، يحمّمون المولود الجديد، ثم يلفّونه ويقمّطونه ويربّطونه، وفي اليوم التالي والثالث والرابع يُملّح المولود من دون حمام، وفي اليوم الخامس يغسلونه ويكحّلونه. وفي اليوم السابع يتم طهور المولود الذكر.

ويغنون لها بالمهاهاة:

آييها يا ناس صلوا ع النبي　　آييها والحلوة جابت صبي

آييها والمبشر يبشر أبوه　　آييها يقرا مولد للنبي

ومنها أيضاً:

آييها جابت صبي يا حراير　　آييها شوشتُه بأربع جدايل

آييها إمه فلسطينية　　آييها أبوه رَكّاب الأصايل

الطهور والحلاقة

وكما ذكرنا بعد أن يغسلوا المولود ويكحّلوه. يتم في اليوم السابع طهور وحلاقة المولود.

لم يكن في البلد مطهّر خاص، بل كان هناك مطهران من عائلة واحدة يأتيان من صفورية، وقد توارث أبناء العائلة المهنة، ومن المعلوم أن معظم المطهرين في مخيمات الشتات في لبنان من الجنوب إلى بيروت، ويقال له «الصفوري». وكذلك في غير لبنان، مثل مخيم اليرموك في دمشق.

ولم يكن من الدارج في القرية إقامة الحفلات والأغاني بشكل ملفت إلا إذا كان أهل المولود ممن نذروا سابقاً، ومن المعروف أن أكثر الاحتفالات بهذه المناسبة تمّت عند طهور محمود الغانم، حيث أقام له عمه أحمد أسعد الغانم (الذي تبناه بعد استشهاد والده[٦] ولم يكن عنده أولاد) احتفالات دامت عدة أيام عزم ضيوفاً من عكا والقرى المجاورة، فكانت احتفالات هذا الطهور توازي احتفالات العرس.

وكان مما يغنى في طهور الأولاد:

طهروا يا مطهر وناولُه لأمُّه ... يا دمعته هالغالية نزلت على كمُّه

طهروا يا مطهر وناولُه لأبوه ... يا دمعتُه هالغالية نزلت على ثوبُه

طهروا يا مطهر وناولُه لخالُه ... يا دمعته هالغالية نزلت على خلخاله

طهروا يا مطهر وناولُه لسيدُه ... يا دمعته هالغالية نزلت على إيدُه

طهروا يا مطهر بموس الفضة ... واصبر عليه للغالي زعلان تا يرضى

طهـروا يـا مطهـر بمـوس الذهـب ... مـا تزعللـي الغالـي وأميـر العـرب
طهـروا يـا مطهـر بموس أبو ريشـة ... وما تزعللي الغالي وبعطيك بخشـيش

وعند حلاقة شعره يغنون له:

احلـق لُـه يـا حـلاق وتمهـل عليـه ... احلـق لُـه للغالـي عمامـه حواليـه
احلـق لُه يا حلاق وامسـح لُـه بكمُّه ... واسـتنى يـا حـلاق تـا ييجـي عمُّـه
واحلـق لُـه يا حلاق بمـوس الذهبية ... واسـتنى ع الغالـي تـا تيجـي الأهلية
احلق لُه يا حلاق وامسح لُه ببشكيره ... واسـتنى يـا حـلاق تـا عمّه ييجـي لُه

هدهدة الأطفال

ليست هدهدة الأطفال بالطبع مناسبة يُحكى عنها، ولكنه يندرج ضمن الأغاني المنزلية، وأغاني الطهور والحلاقة نوع من الهدهدة يمكن أن تغنى للأطفال. غالباً ما تغني الأمهات أو الجدات للأطفال حتى يناموا أو يسكتوا إذا حمي «وطيس» البكاء عندهم.

وكانوا يحاولون أن يجدوا للأطفال هزازاً كسرير، وإذا كان ما يزال رضيعاً ينصب حبل تربط أطرافه ويعلق على شجرة في الدار على شكل حبلين متجاورين متدليين، وتلصق ذيلاهما بقطعة قماش متينة، لينام الصغير عليها.

نشير أيضاً أنه كان واضحاً، أن الهدهدة تتضمن في الغالب أبياتاً تتعلق بالتوجه الديني التلقيني للأم والجدة.. حيث تزخر الهدهدة بجملة من المدائح النبوية..

يا حادي العيس سلملي على إمي
واحكي لها شو جرى واشكيلها همّي
يا حادي العيس قول لإمّي وأبوي عني
وأهلي جفوني وخُلاني ابعدت عنّي

صلوا على المصطفى، صلوا على الهادي
صلوا على اللي بنوره أشعل الوادي
لولاك يا مصطفى، ولولاك يا هادي
ما حجّت النوق من وادي إلى وادي

يا رايحين النبي معكو جمل هالدار
زيدوا عليقُه كرامة للنبي المختار
يا رايحين النبي، خذوني بمحاملكُو
لاني حديدٍ ولا بولاد أثقلكُو
وإن كان زادي وزوّادي بيثقلكُو
لأصوم لله ويكفاني النظر منكو

يا حادي العيس قللي وينتا (إيمتى) بِلفو (بيعودوا)
وتيابنا اتسخت واحوالنا تِلفو
وحياة مين أخلَقِ النجوم يعترفوا
أكثر بكايي على الغياب تا يِلفو (يعودوا)

يا نجمة الصبح دليني على احبابي
وأيا طريق إجو تافتح لهن بابي
وإن إجو من الغرب أهل الغرب غيابي
وإن إجو من الشرق، يا عيني، هِنّي جملة حبابي

يا ليل ما أطْولك كعّيتني نومي
وأبعدتني عن جميع أهلي وعن قومي
وإن كان بيشرعكو بتحللوا صومي
لأصوم لله والقي الصوم للصومِ

يا درب ما أبعدك مشّيتني حافي
يا همّ ما أثقلك هديت لي كتافي

ذكر النبي ما أحسنُه وذكر ما أحلاه
وذكر النبي لو دخل، بيت الفقير أغناه
وذكر النبي لو دخل جوف العليل أبراه
يا آمنة وضعته ويا جبرائيل سمّاه
وشهدت ملوك السما إنُّه رسول الله.

عودة الحجاج

قبل البداية هناك ملاحظتان تفيدان صعوبة الحج وكلفته الباهظة وندرته بين الفلاحين من أهالي القرى، حيث كان يوجد في القرية كلها حوالي عشرة حجاج فقط لا غير، إضافة إلى بعض العقائد فيما يخص موضوع الحج.

الملاحظة الأولى أن معظم الحجاج في بداية القرن، لم يكونوا من أولئك الحجاج الذين حزموا أمتعتهم من القرية مُيَمّمين وجوههم شطر المسجد الحرام في مكة، بل كان معظمهم من أولئك الذين خدموا مع الجيش العثماني في الحجاز. فكان يعود العسكري إلى دياره حاملاً لقب الحاجّ لدى انتهائه من الخدمة. وقد كانوا قلة أولئك الذين رحلوا في رحلة الحج، إلا أن ذلك تغير بعد سقوط الخلافة العثمانية، وبات لا يذهب إلى الحج إلا من عقد النية واقتدر. ولم يعد يختلط الأمر على الناس.

الملاحظة الثانية، هو أن الحجّ كان يُعدّ إنجازاً، لم يكن لقب الحاج يلتصق باسم صاحبه كما هو الحال في أيامنا هذه، بل كان يلتصق بأسماء أبنائه، فاسم مصطفى عبد حمزة كان يعرف في القرية باسم مصطفى الحاج عبد، وحتى اسم «أبو إسعاف» كان يُذكر أحياناً إبراهيم الحاج علي (على اسم والده الحاج علي)، وليس إبراهيم الشيخ خليل. وهذا الأمر كان ينطبق على الشيوخ مثل عائلة الشيخ محمد والشيخ خليل.

أما في البعد الوطني، فيحق لفلسطين أن تفخر أنه كان من عادة الحجّاج أن يتموا حجّهم بعادة اسمها التقديس، أي زيارة القدس، وكانوا يعتبرون الحج موقوفاً وناقصاً حتى

يتم التقديس. وذلك اقتداء بقول المصطفى ﷺ: «لا تُشدّ الرحال إلى لثلاث المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى». فكان الحاج إذا أتمّ الحج إلى مكة وزيارة مسجد الرسول ﷺ في المدينة يمّم وجهه شطر المسجد الأقصى. وفي ذلك يقول الشاعر تحسّراً على القدس في مناسبة عودة الحجاج:

اليوم أتممتم شعائر حجّكم فمتى تتمّ مراسم التقديس

والآن، كيف كان انعكاس الحج في القرية؟

كان يتم توديع الحجاج قبل سفرهم بعدة ليال، ويزورهم الأقارب والأصدقاء وأهل القرية. وكانوا يغنون لهم في الوداع:

يا حجاج النبي سيروا بالتهليل
لزيارة الكعبة وأبونا الخليل
يا حجاج النبي سيروا بالأعلام
لزيارة محمد عليه السلام

وكانت طريق الحجاج في البحر عبر قناة السويس إلى جدة، وكانت الرحلة في بعض الأماكن مخيفة، كما هي الحال في «بركة فرعون» في البحر الأحمر، وقد كان أهل البلد يغنون بعض الأغاني للحجاج تدل على سفرهم بالبحر وخوفهم واتكالهم على الله في سفره البحري هذا:

الحج نزل البحر بعباته (عباءته)
يا رب تردّه سالم لبناته
والحج نزل البحر بإيده كيلة (وعاء)
يا رب تردّه سالم لها العيلة

وعند عودة الحُجّاج كان يتم استقبالهم عند أول البلد، تحت العين، (بالعدة والأعلام) عند باب القرية، والعدّة هي الطبول والصنوج، والأعلام هي الرايات الدينية الكبيرة، وكانت العدة والأعلام في القرية موجودة عند عائلتين فقط، هما عائلة أبو الهيجا، وعائلة اللزقة (الأسدي). وكان إذا توفي رجل صالح من القرية كانوا يشيعونه مع العدة والأعلام.

ويزور الحاجَّ أهلُ القرية على مدى أيام ويوزع عليهم الهدايا كما هي الحال في هذه الأيام. وكانت الهدايا ذات دلائل دينية كالبخور والعطور والتمر وماء زمزم وسجادات الصلاة والمسابح. ولكن أشهر الهدايا النسائية كانت وما زالت النساء الحاجّات تحضرها معها هي الحناء.

شهر رمضان

كان لرمضان جو مميز يتم تحضير المأكولات الخاصة به قبل أسابيع. ولم تكن تلك المأكولات نادرة ولكن حالة القلّة التي كان يعيشها الفلاح، كانت تجبره على طعام يومي لا يتجاوز الطبيخ المعتاد، المكوّن من البرغل والعدس كمادة أساسية في طبيخ أهل القرية. أما في رمضان فكانوا يحضّرون بعض الطعام في البيت، فيجرشون العدس واالبرغل ليكون طازجاً، ويفتلون الشعيرية، ويحضّرون من إنتاج البلد أيضاً الصبر والعنب والتين الأخضر واليابس، وكانوا يحضّرون الزلابية إذا كان الفصل شتاءً وذلك لما تحتاجه من زيت لا يفرّطون فيه إلا في موسمه.

وكانوا يشترون قمر الدين والأرزّ، ونشير إلى أنه لم يكن يخلو بيت من بقرة وحليب أو دجاج وبيض. وكان البعض يحضر القطايف الطازجة من عكا.

أما موعد السحور فكان توقيته يعتمد على النجوم، ولم يكن يعتمد على مسحّر للقرية، فكانوا يعرفون الوقت من النجم االذي كانوا يعتمدون عليه أيضاً في أسفارهم وصلاة الفجر وإخراج الطرش.

أما عند الغروب، فكان معظم أهل البلد يفطرون على أسطح المنازل إذا كان الجو صيفاً، لينظروا إلى غروب الشمس أولاً ويسهل عليهم سماع الأذان، وليتجنبوا الطقس الخانق والحرارة.

ويُذكر أن أول هجوم لليهود عند احتلال شَعَب الأول كان في وقت الغروب وعند ساعة الإفطار في رمضان، حيث نزل إليها اليهود من ميعار المشرفة عليها، وأقاموا فيها ثلاثة أيام، قام اليهود بقتل بعض كبار السن الباقين في القرية، وكان ذلك بين ١٩-٢٠ تموز ١٩٤٨.

وتتذكر حنيفة الصالح (أم أكرم)[٧] فتقول: كنا أطفالاً في أواخر الأعوام التي قضيناها في فلسطين، وكان بيتُنا قريب من الجامع، وعند ساعة الغروب يكون الصيام قد فعل فعله بنا، وكان عنادنا يدفعنا لمقاومة الجوع، إلا أننا كنا نصعد إلى سطح المنزل ونراقب الشيخ في المكان الذي يؤذن منه، سطح مقام سيدي أحمد العليمي الملاصق لسطح المسجد الذي كان على شكل قبة، كان يصعد قبل الأذان بأكثر من ساعة، ربما عند العصر، يتمشى على سطحه بانتظار غروب الشمس. ومن كثرة ما يمشي كنا نظنه يقصد إغاظتنا في هذا الأمر.

أما صيامنا، حين كنا أصغر من ذلك السن، فقد كان حتى أذان الظهر، وكنا نأخذ كوب الماء إلى مقام سيدي أحمد العليمي ونجلس عند الدرج الذي كان يصعد عبره المؤذن إلى السطح ليرفع الأذان، وما إن يرفع أذان الظهر حتى نشرب كوب الماء، وينتهي صيامنا عند هذا الوقت.

كان هذا الصيام بمثابة التدريب للأطفال الذين لا يستطيعون الصوم، وكان يسمى «صيام درجات الجامع».

وفي العشر الأواخر من رمضان، كانوا يوحّشون لوداع الشهر الكريم وينشدون فيها:

لا أوحش الله منك يا رمضان

لا أوحش الله منك يا شهر الصيام

لا أوحش الله منك يا شهر الرحمات

لا أوحش الله منك يا شهر البركات

وعندما ينتهي شهر رمضان، يحين يوم عيد الفطر، الذي لم يكن يخلو أيضاً من طقوسه الخاصة.

الأعياد

كان يعـرف عيـد الفطر بالعيد الصغيـر أو عيد رمضان، فيما يعرف عيـد الأضحى بالعيد الكبير.

ولا تختلف عادات العيدين وطقوسهما في شَعَب، فقد كان الرجال يصلّون صلاة العيد في المسجد، وعند الانتهاء منها يذهبون للزيارة في المقابر، حيث تكون النساء والصِبية قد سبقوهم إليهـا، ولا أدري سـبباً لهذه العادة التي تناقض فرحة العيـد من أولها. ويكون الصوت في المقابر، مثـل صـوت قفير النحل، حيـث يقوم الموجودون بقراءة القرآن والنـدب والبكاء، ويوزعون الطعام والكعك على زوار هذه المقابر.

ثم يعود الناس إلى بيوتهم، ويتم تحضير الفطور يوم العيد من اللحوم المشوية في الطابون غالباً، وبعد الفطور يخرج الكبار في زيارات وواجبات العيد. وتنظيم الزيارات له أصول لا يعرفها أبناء جيلنا (جيل ما بعد النكبة)، فلا يخرج الجميع لزيارة الجميع. وإلا لن يجد أحدٌ أحداً في بيته. وكان بعض هذه الزيارات يتضمن زيارة خاطفة، وبعضها يتم طول النهار مع الغداء، وكانت العادات في اليوم الأول (ويتم تبادل الزيارة في اليوم التالي حيث يعزم بعض الزائرين مضيفهم في اليوم التالي) على الشكل التالي:

- الأهل عند بناتهم المتزوجات.
- الرجل مع عائلته عند أهله.
- الأخ عند أخواته.
- الخطيب عند خطيبته.

- وقد كانت الأولوية في الزيارة لأهل الفقيد حديثاً، وفقدان عزيز يلغي كل العادات المتّبعة في الزيارات.

وكان يغلب على ضيافة العيد الكعك والمعمول المنزلي، ولم يكن أحد يقدم الحلو والملبس في مضافته إلا نادراً.

أما الأولاد، فكانت كل عائلة تنصب مراجيحها الخاصة على شجرة في الدار أو قربه، حيث يقضي الأولاد يومهم في اللعب عليها، وهم يأكلون بعض الحلويات التي يشترونها أو يحضرونها من المنازل، والألعاب التي تظهر فجأة في الدكاكين (يحضرها صاحب الدكان من عكا، ويخبئها حتى فترة العيد). ويغنون أغاني العيد، ومنها:

بكرة العيد ومنعيّد — منذبح بقرة سْعيّد
وسْعيّد مالو بقرة — منذبح بنتو هالشقرة
والشقرة ما فيها دم — ومنذبح بنتو وبنت العم

ويتميز عيد المولد بإقامة الموالد، وخروج بعض سكان القرية إلى عكا، حيث كانت تقام الاحتفالات الضخمة، والموسيقى والفرق الكشفية والرياضية والدينية، وكانت الألعاب الصعبة مثل ابتلاع النار أو شك الشيش بالأجسام، وكان الذاهبون إلى عكا من الشباب الذكور أو رجل أخذ عائلته ليتفرجوا على الاحتفالات هناك، ولم تكن تذهب النساء وحدهن، وكذلك الأطفال.

في الخميس الثالث من شهر نيسان من كل عام يوافق خميس الأموات (موسم النبي موسى) فتتم زيارة المقابر حيث تقرأ سورة ياسين ويتم توزيع الحلوى على الفقراء..

فيحضر الناس البيض ويسلقونه مع صبغة صفراء حيث يغلون معه نبتة البسبيس، أو صبغة خضراء يغلون معه نبتة الخامشة، او قشر البصل الأحمر. ثم تتم المفاقسة بالبيض وهو تحدٍ بين شخصين يقومان بضرب رؤوس البيض ببعضها البعض، والذي تنكسر البيضة في يده يتخلى عنها لمنافسه.

* * *

(١) من مقابلة مع الحاجة أم هاني: سعاد صالح حسين، وادي الزينة تموز ٢٠٠١.

(٢) يعدّون: أي يرددون عدة مقاطع على وزن هذا المقطع، بكلام مختلف قليلاً.

(٣) البقجة: قطعة قماش تنوب عن الشنطة يتم ربط أطرافها الأربعة في جهة واحدة.

(٤) مقابلة في بيتها في وادي الزينة تموز ٢٠٠١.

(٥) راجع خطوط سير النزوح من البلد.

(٦) راجع القسم الثاني من الكتاب «فصول من تاريخ القرية».

(٧) وهي من مواليد عام ١٩٣٦، في مقابلة معها في بيتها في مخيم برج الشمالي في صور – لبنان عام ٢٠٠٢.

الفصل السابع
أشعار قيلت بشعب

القصائد التالية من تأليف ياسر علي كاتب هذه السطور وهذا الكتاب:

حلم

رأيت بنورِ أحلامِ الليالي ... أديباً صاغ أمجاد الخيال
رأيت بظل زيتونٍ رجالاً ... تُسابق نحو موت لا تبالي
لحامية الحدود سلام عزٍ ... إلى شَعَب التي بين الجبال
دروس العزّ قد كُتبت بفخرٍ ... ولم تفزع بأيام خوالي

* * *

مررت بسهل قمح قد تماهى ... بسمْسمها، أرى ذهباً بدا لي
وزيتونٍ تجذّر في الزمان ... بدا في الأرض محفور الظلال
وعبهرةٍ وعينٍ مع بنات ... لنا تحكي الحكايا والتسالي
شمالي بيدرٌ يبكي صبانا ... يميني الشامخاتُ من التلال
وبينهما شهيُّ الخطو سفحٌ ... يضم بحضنه بلد الغوالي
فأدخل قريتي شبراً فشبراً ... أقبّلُ تربَها، والتربُ غالي
«أقبّل ذا الجدار وذا الجدار» ... أليلى خلفه؟ بل قل «ليالي»

وأسأل في الأزقة عن شباب وحامية، بها عزُّ الرجال
رأيت ظِلالَهم تحمي الحدود بدت كالمارِدِ العملاقِ عال

* * *

أفقتُ من المنام وتحت رمشي بلادٌ لم تزلْ حباً ببالي
تفارقها الجوارحُ دون روح وتحيا الروحُ فيها كاللآلي
وتعشق أن تحطّ على رباها فقد طارت إلى ذاك المجال
ففي كل المواسم كالسنونو تبشّر بالربيع وبالغلال
قضيت العمر أبحث عن بلادي وعن أحلام عمرٍ في الجمال
رأيتهمُ ولو في حلم نومي وها أنذا، أموتُ ولا أبالي

زجل

يا دارنا شَعَب يا ديرة الشجعان ما تحيد عن حبك بيوم سيرتنا
سقى الله ايّامنا ما بين الاخوان ما ننسى بحماك يوم جيرتنا
لا بد يا ديارنا لو طالت الأزمان نرجع نبوّس ترابات ديرتنا
والبعد ما هو من شيمة الإنسان لكن جَبَرْنا الضيمَ خيرتنا
ولا بد ما الشوق ينبِت لنا جنحان ونعود يا دارنا ونفك حيرتنا

فم الذهب .. شَعَب

وادٍ من الأبطال أنهكه التعبْ؟
أم سفْحُ أشجارٍ تميد به الرياح من الطربْ؟
أم أرضُ دمعٍ سال رقراقاً على الماء العذب؟
أم أنها عسلٌ تكوّر شهدُه بفَم الذهب؟
الشمس تشرق في الجليلِ وترتقي،
لكنها كالغصن فوق الماء تحنو.. في شَعَب

* * *

ذهب الغريب مشرداً ما همَّه نيلُ الأربْ
ما صام عن شيء سوى عن أرضه يوم اغتربْ
أرضٌ على هام الزمان قصيدةٌ وبطولةٌ،
بل درّةٌ قد رصّعت تاجَ العرب
أرضي بأرضي لا يوازيها مكانٌ،

لا يطاولُها العتب
أرضُ الكرامةِ في الغضبْ
أرضُ التجلي في الأدبْ
في وجهِ حوريّاتِها وبناتِ عينٍ عند عَبْهرةِ النسب
وادٍ من الأبطال من يعنين حتى آخر الدنيا.. شَعَب

الباب الثالث

فصول من تاريخ القرية

تقديم

هـذا الفصـل كان مـن أصعـب الفصول من حيـث الموضوعيـة، إذ ليس أصعب مـن أن يقف الكاتب في الوسط بين مجموعة من الشهود والرواة، خاصة إذا كانوا يمتّون إليه بِصلة قربى.

ولقـد اختـرت فـي هذا الفصـل أن لا أتبنى أيَّ رأي، بل أن أكتب رأي أكثر الأشـخاص هدوءاً ووداعـة، حيـث حاولـوا تجنّب نبش مـا تمّ دفنه من ثـارات.. ولكي نكون موضوعيـين، خاصة في مجـال الطُّوشـات رأينـا أن لا نذكر الأسـباب والآراء حيث أن لـكلّ عائلة رأياً فـي الموضوع.. وهذا الكتاب للجميع. وقد آثرنا -للتاريخ- ذكر الوقائع لا الآراء.

لكـن بعـض عقلاء القرية أشـاروا إلى أن مصلحـة الانتداب بهذه الطوشـات واضحة، وقال «لا يظـنّن أحـد أنّ الإنجليز لن يهتموا بالقرى الصغيـرة»، وأعطى مثالاً على منعهم من تصدير الزيـت، وكان الإنجليـز يشـترون تنكـة الزيت من القرية بنصـف ليرة فلسـطينية، ويبيعونها في مصـر بثلاث أو أربع ليـرات. كما كانوا يأخذون البرتقال ليطمروه ويسـمّدوا به الأرض، ويمنعون أهـل القريـة من بيعه حين كان سـعره أضعافاً في البلاد الأخرى. وينطبق على هذا سـعيُهم إلى إشـعال الفتنة والخلاف بين أهل القرية من أجل تشـتيت قوتهم وتفريقها. وليس هذا انسـجاماً مع نظرية المؤامرة، ولكن صاحب هذا الرأي ساق عدة شواهد لا مجال لذكرها هنا.

إلا أن هذا لا ينفي مسؤولية أهل القرية، وبالذات مسؤولية عقلائها تجاه هذا الأمر، بدليل أن ما فعله أبو ماهل الخطيب والحكمة التي تعامل بها مع الآخرين، شـاهِد على إمكانية تجنب

الطوشة التي أحدثت شرخاً لم تمحُه إلا معارك حاميةِ القرية عام ١٩٤٨ والنكبة والتشرد.

ولعلّ أجمل ما يسجل لأهل القرية في هذا المجال، أن العديد من الثارات ظلت في كوامن الأنفس دفينة تنتظر إشعالها مرة أخرى، ولكن أهل شَعَب لم يقعوا أثناء الدفاع عن القرية عام ١٩٤٨ بالخطأ الذي حصل إبان الثورة الكبرى في الثلاثينيات، حين نُفّذت فيها بعض الثارات. ففي حرب ١٩٤٨، التي سبقت النكبة، كانت المجموعة الواحدة -كما يقول الحاج علي الأحمد (أبو حسن)- تضم أفرادَ عائلاتٍ بينها ثارات، وكانوا يتناوبون الحراسة في المواقع، فيحرس من له ثأر نائماً يُفترض أن يقتله في الأحوال العادية أثناء الطوشات، فنسي أهل القرية الثارات، ووجهوا بنادقهم إلى حيث يجب أن تتوجّه؛ إلى عصابات العدو.

الفصل الأول
طوشات القرية

قد لا يكون هذا الفصل من تاريخ القرية مشرّفاً، وقد شعرت لدى مَن قابلتهم من أهل البلد بعبء وصعوبة اختيار مسار الرواية، خاصة أولئك الذين يرفضون نكء الجراح ونبش الأحقاد؛ ولكنه تاريخ لا بد من نبشه للاعتبار، وقد حاول الرواة تلطيف الأجواء وعدم طرح المسألة من وجهة النظر الواحدة.. إلا أنهم لم يستطيعوا تصنيف وفرز أبناء القرية بين «أوادم وزعران» وساسة ومتهورين..

والطوشة هي المعركة الجماعية التي تشارك فيها عائلات القرية، وتتميز بها قرية شَعَب عن باقي البلدات المجاورة لها! فهي قصيرة المدة وعنيفة، وتترك أحقاداً يصعب دفنها.

يقول إبراهيم صالح حسين (أبو حلمي)، إنّ أيّ طوشة في البلدات المجاورة كالبروة مثلاً، كانت تدوم من الظهر أو العصر إلى المغرب، وتقتصر على رمي الحجارة، إلى أن تفزع القرى المجاورة وتهبّ للإصلاح بين المتخاصمين. وقد تنتهي المعركة بكسر يد أو رجل أو شَجّ رأس، غير أن طوشات شَعَب كانت تنتهي بمقتل شخص أو اثنين خلال عشر دقائق. وكانت تستعمل فيها الدبسات (العصي الغليظة)، وكان الضرب فيها على الرأس في كثير من الأحيان.

وقد كانت العصا سلاح الرجال، ولا تكتفي العائلة بعصا واحدة كما حصل بالأسلحة أثناء الحرب، بل على كلّ بالغ عاقل من القرية أن يقتنيها. وفي أثناء التوتر والتشنج كانت العصا لا تفارق أحداً من أفراد العائلات المعنية بهذا التوتر. كما نشير إلى أن مكان معظم الطوشات كانت تنشب على بيادر القرية.

مذبحة الجامع[1]

يروي كبار السن في القرية، رواية غير واضحة المعالم، أنّ معركة قديمة قامت بين العائلتين الأساسيتين في شَعَب وقتذاك، عائلة يزبك التي تفرع منها فيما بعد عائلة الشيخ محمد، وعائلة كعكوش التي لم يبقَ منها سوى نفر قليل في القرية عند وعي الرواة أي في القرن العشرين.. ويظن الرواة أن الحادثة التي تعارفوا على تسميتها «مذبحة الجامع» قد وقعت في بدايات القرن التاسع عشر وما قبله.

وتتفق روايتهم على أن عائلة كعكوش كانت على عداوة مستحكمة مع عائلة يزبك، وفيما هم مجتمعون في جامع الحارة الشرقية للبلد وأثناء الصلاة دخل عليهم شباب عائلة يزبك وبدأوا فيهم القتل والتنكيل.. فكُسرت شوكة عائلة كعكوش ورحلت عن القرية. وقد بقيت هذه القصة في ذاكرة أهل القرية لأنّ الجامع بقي مهدماً ولم يتم ترميمه، ربما تشاؤماً من أسطورة اسمها «مذبحة الجامع».

وقد اتفق عدد من رواة القصة أنهم أسسوا قرية حملت اسم مارون كعكوش ثم حرّف إلى ميرون كعوش. غير أن (أبو حلمي) نفى ذلك وقال إن لاسم قرية ميرون كعوش قصة أخرى، لكنه أشار إلى أنه أثناء أحد مواسم الحصاد في الأربعينيّات جاء إلى القرية أحد العمال من الشام، وكان يعمل بالأجرة في الحصاد، وذات ليلة سأله من أين أصله؟ فقال له: أنا من هذه القرية (أي شَعَب)، وعائلتي كعكوش رحلت من هذه القرية إثر مذبحة تعرّضت لها في مسجدها ونسكن الآن في الشام.

وقد بقي منهم نفر قليل حتى النكبة: هي أُسر محمد ومحمود كعكوش.

طوشة البلد

هذه الطوشة لا يذكرها من الأحياء أحد، وقدّر أبو حلمي حدوثها في سنة ١٩٠٠م. لأنها سنة ولادة عمته التي ولدت خارج القرية والتي تكبر والده صالح حسين (أبو إبراهيم) بسنة.

أسباب هذه الطوشة غير واضحة. وقد سميت «طوشة البلد» لأنها شملت فيها معظم العائلات.. وقد قتل فيها شخص من بيت حسين اسمه الغالي وهو ابن طه حسين الحسن.

وكانت نتيجتها خروج بيت حسين من القرية، وكان على رأسها أبو صالح (محمد حسين) وكان أحد كرام القرية وسياسييها، الذي انتقل إلى البروة على الطريق بين شَعَب وعكا، فاستضافه صالح هواش من البروة، وعاش بين أهل البروة الذين ناصروه بقطع طريق عكا على أهل شَعَب..

وقد تضايق أهل شَعَب كثيراً من هذا الأمر، حيث كان يستفرد برجالها ضرباً وتفزيعاً، حتى بدأت الوساطات للصلح، وتولى الوساطة صالح أفندي (وهو وجيه من قرية المكر)، الذي انتزع

من أهل القرية اعترافاً بحق أبو صالح أو بالتعبير الذي اتفق عليه (مالت الكفة له).. وعاد إلى بلده واستردّ ما كان له..

في هذه السنة ولدت له بنت أسماها مريم، وكان قد اختار البروة للسكن فيها، نظراً إلى أنه من أخوال زوجة درويش اليوسف (جد الشاعر محمود درويش)، وهي كانت ترشد أبو صالح إلى عادات القرية في الأفراح والأتراح. فكان أهل القرية، أثناء إقامته التي لم تتجاوز السنة، يستضيفونه عندهم، وقد أشارت عليه قبل رحيله بإقامة وليمة شكر لأهل البروة، وفعل.

طوشة الخطيب - فاعور/حسين

لقد تميزت قرية شَعَب بعدد من الحكماء وعدد آخر من الشجعان المعتدّين بشجاعتهم وقوتهم، الأمر الذي جعل حوارات عديدة تدور بين هذين الطرفين، مما أثر أيضاً في العلاقات بين عائلات القرية، بحسب نوع زعماء العائلات، إيجاباً إذا تحاور العقلاء، وسلباً إذا تحاور الشجعان (القبضايات).

فحين يكون الزعماء من الحكماء، كانت القرية تشهد فترة من الهدوء، ويعبّر كبار القرية عن الحكيم بالسياسي وعن الشجاع القوي بالمتهور.

في سنة ١٩٣٥ وقبل الثورة العربية الكبرى، تزعم آلَ الخطيب مختارُهم شاكر الخطيب، وكان ذا شكيمة وقوة.. وقد كثر حوله شباب آل الخطيب الذين بلغوا من القوة ما يجعل الآخرين يحسبون ألف حساب لهم. وكان سياسيُّ العائلة وحش الخطيب (أبو ماهل) بجانب شاكر في يوم الطوشة ونصحه أن لا يُقدِم على معركة، أو أن لا يكون على الأقل في مقدمة المتضاربين.. فرفض ذلك ووقعت الطوشة في ٢٧ نيسان ١٩٣٥.

وما إن انجلى غبارها، حتى بانت عن مقتل شاكر الخطيب (المختار)، ومجيد الخطيب. الأمر الذي أوقع عائلة الخطيب في خسارة فادحة صممت إثرها على الانتقام.. وتقدموا بشكوى إلى الحكومة (الانتداب)، ضد عائلتي حسين وفاعور. فاتُّهم بمقتل شاكر الخطيب كل من رشيد حسن الحسين وصالح محمد الحسين، واتهم بمقتل مجيد كل من رشيد فاعور ومحمد الحسين. وقد دافع ورافع عنهما حنا عصفور، ثم وكل بهم أحمد الشقيري بعدما اتخذت حكومة الانتداب بحقه إجراءات لها علاقة بنشاطه السياسي المناهض لها. وقد خرجوا من السجن براءة.

وفي سنة ١٩٣٦ وأثناء الثورة (راجع نشاط القرية أثناء الثورة في فصل آخر)، اتُّهم كل من رشيد فاعور وغانم أسعد الغانم (من آل عيسى أحد فروع فاعور) بخيانة الثورة والتعامل مع الإنجليز، وهي تهمة لم تثبت عليهما، وقيل إنها انتقام لطوشة ١٩٣٥م. وقام الثوار بإعدامهما قرب القرية، في ليلة حزينة بسبب ما تخللها من مشاهد حزن وأسى.. وانتقام ثأري عائلي غير مسبوق.

وتناول إلياس خوري هذه القصة في روايته «باب الشمس» صفحة ٢٠٩:

«..لا أريد تاريخ القرية، أنا لا تهمني الطوشة التي جرت بين آل الفاعور وآل الخطيب، عام ١٩٣٥ وكيف تطورت خلال ثورة ٣٦، حين انتقم آل الخطيب لمقتل شاكر الخطيب، بقتل مختار الحارة الشرقية رشيد فاعور. وكيف قمتم أنتم، أنت كنت فتى، ولكنك جئت مع مقاتلي الثورة، وفرضتم المصالحة التي تمت على البيدر، حيث ذبحوا أكثر من أربعين رأس غنم، وجاء الناس من كل القرى المجاورة، يأكلون ويباركون..».

وتزعَّمَ عائلة الخطيب أحد دهاتها وسياسييها هو وحش الخطيب (أبو ماهل) الذي حسّن العلاقات مع الجميع، وعاد لآل الخطيب دورهم الوفاقي في القرية وأدّى أبو ماهل دوراً رائداً في عودة الأمور فيما بعد إلى مجاريها في القرية.

طوشة الأسدية (أيلول ١٩٤٥)

في الأول من أيلول من سنة ١٩٤٥، وبعد مناوشات ومشاكل صغيرة بين عائلة الشيخ محمد وعائلة الأسدية، تطورت هذه المناوشات إلى صِدام تم عند البيادر.

في ذلك اليوم، وبعد يوم متعب من حصاد السمسم، وأثناء عودة الإخوة الثلاثة من عائلة الشيخ محمد وهم موسى المطلق ورشيد المطلق ويونس المطلق، تصدّى لهم عدد من شباب عائلة الأسدية، وبدأ الصدام بين العائلتين. إلاّ أنّ تكتُّل ثلاثة من عائلة الشيخ محمد غلب الكثرة المتفرقة من الأسدية، فكان يذهب الرجل من الأسدية إلى البيادر ليقاتل شبان عائلة الشيخ محمد الثلاثة، فكان يصل وحده، ويبدأ القتال دون تردد، ولأن الطوشة لا تدوم أكثر من ربع ساعة، فإن تجميع القوة كان صعباً قبل تلك الطوشة، الأمر الذي جعل الغلبة لشبان عائلة الشيخ محمد. وكان القادمُ من أبناء عائلة الأسدي يأبى على نفسه أن يقال إنه انتظر الآخرين فيهاجم وحده، واستمرت المعركة على هذا المنوال..

وسقط في هذه المعركة اثنان من الأسدية هما عبد اللطيف أسعد المحمد (الأسدي) وابن أخيه يوسف فتح أسعد المحمد. ونجا في مستشفى حيفا محمد نمر السليم (الأسدي). وكان الراوي -الذي طلب عدم ذكر اسمه- قد حفر قبر هذا الأخير ومعه آخرون الذين انتظروا عودته ميتاً، ولكن الخبر جاء من حيفا أنه بدأ يصحو هناك. فعاد إلى حياته الطبيعية ولم يتم دفنه. لذلك فإن الراوي يذكره جيداً، كما قال.

* * *

(١) لدى قراءتنا عن بعض القرى (مثل لوبية) قرأنا هذا الحدث في قريتين على الأقل، الأمر الذي يجعلنا نتوجس أن تكون هذه القصة خرافة أو حكاية تحكى بين الناس في الجليل، ومع الزمن والتهيؤ وبناء الأخيلة ظن بعض هؤلاء أن الحدث تم في قريته.

الفصل الثاني
دخول الطريقة الشاذلية اليشرطية[1]

الشيخ علي بن حسن المغربي اليشرطي الشاذلي: ولد في بنزرت عام ١٢١١هـ: ١٧٩٦م، نسبته إلى بني يشرط قبيلة في المغرب. تذكر أنها تنسب إلى الحسن بن علي سبط رسول الله ﷺ. تعلم على علماء بلده ثم تصوف على الطريقة الشاذلية وحج.. وأخيراً استقر في عكا وترشيحا سنة ١٢٦٦ هـ. وأخذ ينشر طريقته بين الجماهير فتبعه أناس كثيرون. ثم تنكر عليه ولاة دمشق فنفوه. ولم يفرج عنه إلا بعد أن سعى له بذلك الأمير عبد القادر الجزائري. ولما أطلقت للشيخ حريته عاد إلى عكا وتجددت حركته واستمر على ذلك إلى أن توفي عام ١٣١٦هـ: ١٨٩٩م.

وقال صاحب «جامع كرامات الأولياء»: الشيخ علي اليشرطي أحد كبار مشايخ العصر، وقد انتشرت عنه الطريقة الشاذلية ولا سيما في بلاد الشام انتشاراً عظيماً.

وقد توفي في عكا بعد سن تجاوز المائة، قضاه في طاعة الله تعالى والمداومة على العبادة والذكر والتقشف بالعيش مع إقبال الدنيا عليه. كان يطعم الضيوف والمريدين المآكل النفيسة ويكتفي هو بالخبز والزيت ونحو ذلك.

له في عكا زاوية وقبر يزار. وخليفته الرجل الصالح إبراهيم.

وزاوية الشاذلية المشهورة في عكا بوشر في بنائها في عهده. وقد أتمها ابنه إبراهيم. ولما توفي إبراهيم خلفه ولده السيد الهادي الذي كان يتمتع بنفوذ كبير بين أتباعه. وبعد النكبة لجأت عائلة اليشرطي إلى بيروت. وقد توفي السيد الهادي في بيروت.

ومن العائلة أيضاً **المهندس خالد بن الشيخ محمد الهادي اليشرطي** الذي ولد في عكا

في عام ١٩٣٥. أتم دراسته الهندسية في بيروت. من أبرز الوجوه المجاهدة في سبيل تحرير الوطن الحبيب، أحد قادة تنظيم فتح ورئيس الصندوق القومي الفلسطيني. عرف بوطنيته الصادقة وأخلاقه العالية وحيويته المتدفقة. توفي في بيروت ١٦-١-١٩٧٠م. وكانت جنازته حافلة.

وقد شهدت الطريقة الشاذلية اليشرطية إجماعاً والتفافاً حولها بين معظم قرى قضاء عكا نظراً للدور الذي لعبته في الحد من انتشار البهائية في المنطقة، الأمر الذي أدى إلى تعاظم أمرها، إلا أن البدائية التي تعامل بها القرويون مع «الطريقة» ساهم في نسبة تصرفات بعضهم الفردية إلى الطريقة نفسها، الأمر الذي تسبب في توريط أهل الطريقة في خلافات عائلية، تعتبر أموراً خاصة كان أجدى بقيادة «الطريقة» أن لا تتدخل فيها، لما فيها من خصوصية بين العائلات والأقطاب.

فحين كانت تتدخل الزاوية (مركز الطريقة) في حل المشاكل أو الإصلاح بين المتحاربين والمتخاصمين، وأحياناً بسبب خلاف على عروس، كان من لا يُحكم لصالحه يقف موقفاً عدائياً من الطريقة وتسبب التراكم في الأحداث إلى زيادة الشرخ بين أهل الطريقة ومناوئيها.

وقد ساهمت العقلية القروية المتصلبة غير المتفتحة في المجتمع شبه القبلي إلى تأزيم الأمور وإلقاء الاتهامات وتضخيمها، بالإضافة إلى تساهل بعض الملتزمين بالطريقة في التزامهم الديني مما تسبب بتوجيه النقد لهم كما ذكر الزركلي الذي سنورد نصه كاملاً:[٢]

علي بن أحمد المغربي اليشرطي الشاذلي: شيخ الطريقة المعروفة باليشرطية، من طرق الشاذلية. ولد في بنزرت، وتفقه وحج مرات، وتصوف واستقر في عكا بفلسطين، وترشيحا من قرى عكا، سنة ١٢٦٦هـ. وانتشرت طريقته في بعض البلاد الشامية. فخافت الحكومة العثمانية الفتنة، فنفاه أحد ولاتها إلى جزيرة قبرص، فأقام ومن معه ثلاث سنين...

ولم يلبث أن تجددت حركته، وظهر من بعض أتباعه «أمور مذمومة واعتقادات مشؤومة» كما يقول مؤرخوه، فنفتهم الحكومة إلى فزان، واكتفت بترك اليشرطي شبه سجين في منزل الأمير عبد القادر الجزائري، استجابة لرجائه. ثم أعيدت جماعته في فزان، واعيدت إليه حريته، فرجعوا إلى طريقتهم. واستمروا في ذلك إلى أن توفي. واليشرطي نسبة إلى قبيلة من قبائل المغرب تقول إنها حسنية الأصل.

ولكي لا ندخل ساحة الصراع الديني والعقائدي، نقف عند هذا الحد، راجين أن نكون قد وُفّقنا في الوقوف على الحياد في هذا الموضوع.

* * *

(١) مصطفى الدباغ: بلادنا فلسطين، الجزء ٧، القسم ٢، ص ٣٠٩.

(٢) خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة ١٠، الجزء٤، ص٢٦٠.

الفصل الثالث
مشاركة القرية في الثورة العربية الكبرى

بعد استشهاد عز الدين القسام في ٢١-١١-١٩٣٥، عرف أهل القرية بالخبر عبر جريدة قرأها في ساحة القرية قرب مقام أحمد العليمي حسين أبو علي (زيتون).

لم يتذكر الراوي اسم الجريدة، فقال إنها واحدة من اثنتين: الدفاع أو فلسطين.. ومال إلى جريدة الدفاع لأنها كما قال أحدهم (كانت تكتب أحسن – أي أكثر وطنية، ورئيس تحريرها وطني مخلص اسمه إبراهيم الشنطي). ولما لم نجد في المراجع ما كتبته جريدة الدفاع (كانت تمنع عن الصدور بين الفينة والأخرى)، وجدنا خبر استشهاد القسام وعصبته في جرائد الجامعة العربية والجامعة الإسلامية وفلسطين[1]، ونشير هنا إلى أن جريدة فلسطين تناولته بموضوعية متحاذقة تثير التساؤل حول الدور مما أثار حولها بعض الشكوك والردود، حيث أطلقت عليهم (العصبة الإرهابية)، فماذا قالت جريدة فلسطين يومها:

كان العنوان الرئيسي:

لن نستسلم! هذا جهاد في سبيل الله والوطن

أما العناوين الفرعية فكانت:

معركة حامية بين أفراد العصبة الإرهابية وقوة كبيرة من رجال البوليس.

قتل خمسة أشخاص

قتل بوليس إنجليزي

استسلام أربعة من العصبة.

المعركة تدوم ست ساعات.

غير أن حديث «العصبة الإرهابية» أثار ردود الفعل الكبيرة لدى الكتاب العرب حينها، فرد الشيخ أسعد الشقيري والد الأستاذ أحمد الشقيري، وأكرم زعيتر، وتكاثرت المراثي خاصة بعد أن كشفت صحيفتا الجامعة الإسلامية والجامعة العربية حقيقة الموضوع.

وإذا ما أخذنا بقول المعمِّر الراوي الذي قال إنها الدفاع، فإن أقرب مقال للدفاع عن الحادثة كان بعد استشهاد القسام بأسبوع، كتبه (لطفي ريال)، ثم كلمة رئيس تحريرها (إبراهيم الشنطي) في حفل تأبين القسام في حيفا بعد أكثر من شهرين (٥-١-٣٦).

ويوم ٢٠-٤-١٩٣٦ بدأ في نابلس (جبل النار) وبعض أنحاء فلسطين الإضراب الشهير المسجل في موسوعة غينيس على أنه أطول إضراب في التاريخ ودام ١٧٦ يوماً، وكان الغليان الذي أحدثه استشهاد القسام بلغ مداه الأقصى في فلسطين، وقاد الثورة العربية الكبرى أتباع القسام من أمثال أبو إبراهيم الكبير، وأبو إبراهيم الصغير، وفرحان ونمر السعدي، وعبدالله الأصبح، وعطية أحمد عوض، ويوسف سعيد أبو درة، ومحمد صالح الحمد، وعبد الفتاح السبلاوي، وعارف الأحمد، وأبو خضر الزرعيني، وأحمد التوبة، وسليمان عبد الجبار، ومحمود سالم وغيرهم..

قبل استشهاد القسام بسبعة أشهر، وقبل بدء الإضراب الكبير بسنة كاملة، كانت القرية قد شهدت طوشة الخطيب/فاعور[٢]، وذلك في ٢٧-٤-١٩٣٥، ومات فيها شاكر الخطيب ومجيد الخطيب..

إلا أن الاحتقان الهائل الذي لفّ الجليل بأكمله، جعل الناس تتجه إلى الثورة بدلاً من الخلافات الشخصية التي تسببت بالطوشة، وبدأ تنسيق قيادة الثورة للمنطقة. بعد الإضراب ما لبثت أن بدأت المظاهرات في أنحاء فلسطين واشتعلت الثورة وانتقلت إلى الجليل، حيث كان قائد المنطقة الشمالية أبو إبراهيم الكبير.

وكان قد تولى قيادة المنطقة أبو بكر أحمد البرقيني (من برقين – جنين)، الذي كان مدرّساً في مدرسة شَعَب، وسلم قيادة الحارة الشرقية لنمر الخليل (حسين شحادة) وقيادة الحارة الغربية لراجي الخطيب. فيما ذكرت المصادر أن نمر الخليل كان أحد «رؤساء فصائل قضاء عكا الذين كانت أعمالهم نشيطة في جنوب المدينة وعلى الشارع القريب من عكا والذي يؤدي إلى مدينة صفد»[٣].

وأشار بعض كبار القرية إلى صلاحيات أسيء استخدامها من قبل الثوار أدت إلى مقتل أسعد الغانم ورشيد فاعور انتقاماً لمقتل شاكر ومجيد الخطيب في الطوشة السابقة.

وكانت الاجتماعات تحصل أحياناً في القرية حيث زارها عدد من قادة الثورة، وشهدت عدة اجتماعات بين قادة المنطقة الشمالية وقيادة قضاء عكا، فكان ممن جاء إليها أبو إبراهيم الكبير (خليل محمد عيسى)، أبو إبراهيم الصغير (توفيق إبراهيم)، رباح العوض (الغابسية)، أبو بكر البرقيني، محمود سالم (أبو أحمد القسام – حيفا)، أبو عاطف المغربي، الشيخ سليمان

الصفوري، أحمد التوبة (صفورية)، أبو علي حسن سلامة[٤].

وقد كان المتفرغون من أهل القرية قليلي العدد، ولكن حين يتم استدعاء مقاتلي القرية يحضر إلى مكان الاستنفار من كل أسرة رجل واحد على الأقل، حيث كان في كل أسرة بارودة واحدة على الأقل يتناوب عليها أفراد العائلة. لذلك يصعب حصر العدد المشارك من أهل القرية التي تضم أكثر من ٢٥٠ عائلة، منهم قسم كبير يعمل في المدن.. خاصة أنهم لم يعودوا إلى القرية أثناء الثورة (كما حدث فيما بعد أثناء النكبة، حيث تضاعف وقتها عدد سكان القرية، كما روى أهلها..).

وقد كان من متفرغي القرية في تلك الفترة -والتفرغ لا يعني قبض المال- سعيد صالح عبد الهادي (الأسدي)، نمر الخليل، محمد الأسعد، أما باقي أهل القرية فكان كل منهم في عمله ويفزعون إلى القتال حين يتم الإيعاز.

ويشير بعض كبار السن إلى أنه كان للثوار مرجعية في الشام، وكانوا يزورونها بين الفينة والأخرى. وكانوا يحضرون الأسلحة والثياب العسكرية من هناك معهم. والثياب العسكرية في ذلك الوقت كانت تتكون من السراويل والحطّات السوداء والصداري من شغل الشام.

أحداث في الثورة الكبرى

معركة الليّات الأولى[٥]

«في ٨-١٢-١٩٣٧، قام عدد من رؤساء فصائل المنطقة الشمالية بالهجوم على قافلة عسكرية بريطانية كانت ذاهبة من عكا إلى صفد قرب موقع الليات (وهو جبل يقع شمال القرية، بين مجد الكروم والبروة، ويمر فيه طريق عكا - صفد) إلى الغرب من قرية مجد الكروم، واستطاع الثوار في بداية المعركة أن يقتلوا عدداً من الإنكليز، حيث كانت مراكزهم حصينة، ثم جاءت نجدات إنكليزية مزودة بالطائرات ساندت القافلة، وعلى أثر ذلك جاءت أيضاً للمجاهدين نجدات من سائر قرى المنطقة الشمالية. وتحصن سكان القرى الشرقية في المناطق الجبلية وعلى جوانب إسفلت طريق عكا - صفد وذلك لمنع وصول النجدات الإنكليزية، وأدى ذلك إلى حصول معارك على مسافة تقدر بـ (١٥) كلم إلى الشرق من قرية «فرّادية»، وقد استمر القتال من الساعة العاشرة صباحاً حتى السابعة مساء حيث انتهت المعركة بانهزام الإنكليز هزيمة نكراء وانسحاب الثوار إلى الجبال الشمالية.

وقد أسفرت المعركة عن مقتل (٣٠) من الإنكليز و(٨) شهداء و(٥) جرحى من الثوار، واشترك في هذه المعركة مجاهدون من قرى البروة، مجد الكروم، شَعَب، الدامون، الرويس، كابول ودير الأسد».

قصف الطيران على شَعَب

في صيف ١٩٣٨، قام الطيران الإنجليزي برمي مناشير حمراء على القرية، لينزل الناس إلى البيادر، وقد نصّ البيانُ حرفياً على التالي:

«كل شخص يحاول الخروج من القرية أو إلى الحقول المحيطة بالقرية يعرّض نفسه لإطلاق النار عليه.. سيقال لكم متى يمكنكم الخروج إلى أعمالكم بأمان..».

تجمّع الناس على البيادر، و(طفش) المسلحون إلى القرى المجاورة والجبال والأودية، وخبأت العائلات بواريدها والثياب العسكرية في الطوابين (فرن من الطين).

أخذوا الرجال باتجاه عكا، وكَمَنَ لهم المسلحون قرب بئر العياضية على الطريق، وبدأوا بإطلاق النار على الجيش، ففرّ الناس يميناً ويساراً، وقُتل من المعتقلين حسن الحاج (الخطيب)، واستطاع عدد كبير منهم الإفلات والفرار والاختباء، وساهم في ذلك ارتفاع أشجار الذرة في الحقول، وهذا مما يدل على أن العملية حدثت في الصيف.. غير أن عدداً من المعتقلين قبع (لبد) في أرضه، فتم اعتقالهم والزج بهم في معسكر الرامة التابع لجيش الانتداب، وناهز عددهم خمسين رجلاً وفتى. وما لبث أن أفرج الإنجليز عن هؤلاء بعد أشهر قليلة، وقبل نسف القرية.

غير أن القضية لم تكن هنا، فقد تسبب منع التجول ببعض المشاكل، ذلك أن عدداً من أهل القرية لم يفقَه المقصود، وكانت تلك أول عملية منع تجول يشهدونها، وكان القرار بقصف كل جسم مشبوه يتحرك في محيط القرية.

فقام الطيران الإنجليزي بقصف المناطق المحيطة بالقرية، فقتل في جبل الزُكّان من كان بكرمه هناك ولم يعلم بمنع التجول، وماتت يومها رقية محمد عبد الأسعد وأمينة (أم صالح) زوجة خليل الصالح[٦].

معركة الليّات الثانية

بعد عملية نوعية قام بها الثوار ضد قوات الاحتلال الإنجليزي في ١٩-٧-١٩٣٨[٧]، حيث قاموا بنسف جسر وادي الحلزون القائم بين البروة والدامون (يمر في أرض السمرا التابعة لشعب) ودمروه أثناء مرور ثلاث سيارات عسكرية إنكليزية كانت آتية من عكا إلى سخنين. قرر جيش الانتداب الذي جُنّ جنونه القيام بالملاحقة والتعسف بالجزاء، خاصة وأن العملية أسفرت عن مقتل (١٢) إنكليزياً من بينهم قائد معسكر سخنين، وجرح (٥) آخرين..

وقد تلقى أكرم زعيتر من مراسله أسعد (أحمد عفيفي) ثلاثة تقارير؛ منها اثنان عن العملية والثالث عن نسف البلد وأضاف إليهم زعيتر بلاغاً من قائد الثورة في الشمال حول نسف قرية شَعَب.. التقريران الأول والثاني كانا على الشكل التالي:

التقرير الأول مساء الأربعاء ١٦-٨-١٩٣٨[٨]

رابط المجاهدون على طريق عكا - صفد قرب محل يدعى (الليات) بعد أن لغموا الطريق منتظرين مرور الجند الانكليزي. فمرت الجنود بمعداتها وسياراتها فانفجر اللغم تحت إحدى السيارات الملأى بالجند انفجاراً شديداً أدى إلى ارتفاع السيارة ارتفاعاً عظيماً وقتل من ركابها ثمانية جنود وضابط بريطاني (صحح المراسل نفسه في رسالة اليوم التالي الرقم إلى ١٢ جندياً قتيلاً من بينهم قائد معسكر سخنين)، وعلى أثر انفجار اللغم اشتبك المجاهدون مع الجند في معركة حامية، وكانت السيارات الحربية تساعد الجيش وتخبط المجاهدين بقنابلها ولكن المجاهدين صوبوا بنادقهم إلى هذه السيارات، ولما أحس الجند بشدة دفاع المجاهدين واستبسالهم، أخذ بالانسحاب نحو عكا بعد أن أوقع المجاهدون في صفوفه إصابات كثيرة، ولم يصب أحد من المجاهدين ولله الحمد بأذى.

وفي اليوم التالي حضرت قوى عظيمة من الجند إلى مكان الحادث برفقتها كلاب الأثر فاتجهت مع الجند نحو قرية شَعَب فألقي القبض على ثمانين شخصاً من أهالي هذه القرية واقتادوهم نحو عكا، ولكنهم حين وصلوا إلى الطريق العام باغتهم المجاهدون بإطلاق النار بشدة واستطاعوا أن يخلصوا من أهل القرية مقدار أربعين شخصاً التحقوا بالثوار. وداوم الجند في طريقهم نحو عكا.. (انتهى)

التقرير الثاني في ١٧-٨-١٩٣٨[٩]

بعد ظهر أمس بينما كانت ثلاثة سيارات من سيارات الجيش البريطاني ملأى بالجند تسير على طريق عكا – صفد ولما انعكفت عن هذه الطريق واتجهت على طريق قرية شَعَب، وحين وصول أول سيارة من هذه السيارات الثلاث إلى جسر على الطريق المذكورة انفجر لغم كبير تحت أول سيارة فحطمها تحطيماً وانتثرت قطعها بالفضاء، وقد قتل جميع ركابها وعددهم ١٢ جندياً بينهم قائد معسكر سخنين. كما جرح خمسة من الجند الذين بالسيارتين المتأخرتين وذلك من شظايا اللغم التي تطايرت لمسافات بعيدة.

ولما علمت الحكومة بالحادث أرسلت إلى هناك قوات من الجيش ٥ آلاف ودوريات من البوليس، وبعد أن نقلوا القتلى والجرحى اتجهت هذه القوات نحو القرى القريبة من مكان انفجار اللغم وهذه القرى هي: شَعَب. الدامون. البروة.

وأخذت هذه القوات تعمل تخريباً بالقرى وتنكيلاً وتعذيباً وضرباً بالأهالي الأبرياء دون استثناء بين رجل وامرأة. «بطل عليَّ وبالحروب نعامة».

وقد ألقت القبض على ٣٥٠ شخصاً من أهالي هذه القرى وساقتهم القوات أمامها مشياً على الأقدام. ولما وصل هذا الحشد الكبير إلى الطريق العام تركتهم القوات البريطانية وولجتهم إلى دوريات البوليس العربي والبوليس الإنكليزي الملكي وطلبت إليهم سوقهم إلى مركز بوليس

الرامة ولما وصل هذا الحشد الكبير قريباً من موقع يسمى الليات كان يكمن هناك فصيل من المجاهدين فأطلقوا النار على الدوريات التي ترافق الأهالي فاضطرت الدوريات للهرب وترك الأهالي فعاد الأهلون لقراهم وانضموا للثوار.

وفي صباح اليوم التالي طافت قوات من الجيش بأسواق ومقاهي المدينة وجمعت من الأهالي عدداً كبيراً وأركبتهم في سيارات كبيرة جبراً وإكراهاً ووضعتهم أمام سيارات وذهبت بهم إلى الطريق الذي انفجر به اللغم المذكور.

وتركيب الأهالي بالسيارات وتسييرها أمام سيارات الجيش هو إن كان يوجد لغم جديد بالطريق لينفجر أولاً بسيارات الأهالي؟ وليكونوا هدفاً للموت قبل الجند.

ويا ليت الجند اكتفى بتركيب الأهالي بالسيارات لدفعهم للموت.

ولكن الجند كان طول الوقت يداعبهم بالضرب واللكم والوكز بكعاب البنادق. إشباعاً لقلوبهم المغتاظة.

وهكذا بعد الأعمال هذه يأبى الوحش الإتيان بمثلها تطلب حكومة فلسطين أن يركن العرب للهدوء.

والظلم مرتعه وخيم. (انتهى).

التقرير الثالث بعد عشرة أيام في ٢٧-٨-١٩٣٨[١٠]

حادث انفجار اللغم الذي ذكرت عنه نبذة بسيطة في كتابي تاريخ ٣٨/٨/١٦ حدث يوم الأربعاء في الساعة السابعة وسبّب قتل ضابط وأربعة جنود لا جنديان كما ذكرت. وفي صباح يوم الخميس في ١٩٣٨/٨/١٨ اتجهت قوة كبيرة من الجند مع مساعد حاكم لواء الجليل لنسف بعض البيوت في قرية شَعَب لوصول كلاب الأثر إليها فأُطلقت على القوة لدى وصولها إلى قرية شَعَب بعض العيارات النارية من كمين في الجبال هناك لكن قوة أخرى من المجاهدين كانت ترابط على الجبال المشرفة على موقع الليات في طريق صفد – عكا خصيصاً لإشغال الجنود وتخفيف الوطأة بالنسف عن قرية شَعَب وصدف أن مرت قوة من الجند دورية من جانب الليات فأُطلقت عليها النار بكثرة من الجبال القريبة الحصينة الموقع وحصل الاشتباك المشهور هناك وابتدأت إشارات الاستنجاد من الجند لتَضَايُقِهم وإصاباتهم بخسائر فادحة بالأرواح فاضطر الجند المشغول بنسف بيوت شَعَب أن يتركها لنجدة إخوانه الجنود من موقع الليات ودام الاشتباك طيلة نهار الخميس حتى الساعة التاسعة ليلاً، حيث بات الجند في موقع الليات طيلة ليلة الجمعة وتقدر خسائر الجند بثمانين قتيلاً وجريحاً الخلاصة فقد كان التوفيق والانتصار الباهر حليف المجاهدين والخذلان والخسارة حليف السلطة الغاشمة وقد أسرّ لي صديق من المجاهدين ومن الذين حضروا الموقعة بأن اللواء الشمالي لم يشهد بعد موقعة باهرة في النصر والتنظيم كهذه الموقعة، أما الشهداء فلم أتاكد من أسمائهم بالضبط بعد، وعلى ما قيل إنهم

لا يزيدون عن اثني عشر شهيداً أما الجرحى فقليلون وقد أسعفوا صباح الجمعة ثاني يوم الحادثة، أما البيوت المنسوفة في شَعَب فتقدر بخمسة وسبعين بيتاً والمتصدعة والمهدومة بسبب أعمال النسف فتقدر ١٥٠ بيتاً، وقد أسعف الأهلون النازحين إلى عكا بإسعافات ومساعدات فورية من تقديم البيوت لإسكانهم مجاناً والطعام وبعض المؤن، والهيئة التي قامت بالجمع وتوزيع المساعدات هي جمعية مرخصة قديمة تدعى (جماعة الإحسان) بعكا، وقد اتصلت بها وشجعتها على المداومة على جمع الإعانات واستبقائها في صندوقها للمساعدات والإسعافات الفورية للقرويين في المستقبل وهي دائبة على الجمع والإسعافات وقد تألفت أيضاً لجنة من سيدات المدينة غايتها إسعاف القرى أيضاً عن طريق مشروع القرش الشهري الذي سيجمع من سيدات وأوانس المدينة وستباشر هذه اللجنة عملها اعتباراً من أول أيلول ١٩٣٨ وقد وزعت إعلانات على البيوت في المدينة استعداداً لذلك اليوم، وإني مرسل نسخة منه طيه، وقد وصل إلي من لجنة السيدات العربيات في القدس ١٢٦ زوجاً من القمصان والكلسونات و٤٠٠ طابع بريد ذات الخمسة ملات و٢٨٠ باكيت دخان وستة أكياس سكر شقف وصندوقين شاي وأربعة أرطال قهوة مطحونة للمعتقلين المعوزين في سجن المزرعة فصار توزيعها عليهم في يوم الجمعة ٣٨/٨/٢٦ بمعرفة من لجنة السيدات بعكا التي تسلمت جميع هذه الحاجات مني بموجب إيصال أرسلته إلى لجنة السيدات في القدس.

النظام، وحسن الإدارة، والترتيب بالغ أتمه في صفوف المجاهدين بقضاء عكا، الروح والشعور جيدان والتضحية كبيرة والكل يزداد إيماناً وقوة يوماً عن يوم وليس للاستياء والتذمر أثر، وأكبر شاهد على ما وصفت هي موقعة الليات الأخيرة التي كانت من المواقع التي تجلى فيها النظام وحسن التدريب والتضحية والبسالة بأجلى مظاهرها بينما ظهر على السلطة الفشل والخذلان والضعف والجبن بأبين مظهر، ودليلنا على ذلك أن الجند لم يعودوا يجرؤوا على السير في الطرقات دون أن يستصحبوا معهم (بالقوة وتحت السلاح والتهديد) الرجال الآمنين المارين على الطرقات ويتخذون منهم متراساً يحتمون به من بأس المجاهدين فيركبونهم بسيارات ويسيرونها أمامهم في الذهاب والإياب وأستطيع أن أقول بفخر أنه لم يبق للسلطة أي هيبة أو نفوذ.

حقق الله الآمال. (انتهى)

رواية أهل شَعَب

عزز ما ذكره التقرير رواية أهل البلد أن كلاب الأثر أخذت يومها تشمّ الطريق وتتبع آثار الثوار، ولم تتوقف الكلاب حتى دخلت إلى شَعَب، وفي القرية توقفت عند بيت سليمان منصور (زيتون)، وهناك ضيعت الأثر..

قيل إن حنيفة منصور (ابنته) قامت بما اعتاد أهل القرية على القيام به إثر كل عملية، فقد رشت على الطريق الفلفل الأسمر حيث ضاعت حاسة الشم عند كلاب الأثر. وتوقف الجنود

هناك إلى أن وصلت قيادتهم التي اتخذت القرار على الفور.

قرروا نسف القرية بدءاً من الحارة الشرقية، مع أن الأثر توقف عند الحارة الغربية، ولكن اتجاه الهواء حينها جعلهم يفضلون الجهة الشرقية. وكما قال الراوي المعمّر ساخراً (اتُّخذ قرار نسف القرية بقرار كلاب).

ادعى الإنكليز يومها أن هناك تواطؤاً بين أهل البلد والثوار على نسف الجسر، حيث أن صاحب بوسطة (عكا – شَعَب) محمد الضبع ومساعده كمال سليمان عبد المعطي لم ينقلوا أحداً يومها إلى عكا، وقيل إن أحد الثوار جاء إلى الضبع وعبد المعطي وأخبرهما بما يتم تحضيره، فلم ينزلا إلى عكا.

وهُجّر بعض سكان القرية إلى عكا والقرى المجاورة، وبعضهم إلى الحقول والأطراف، والباقي أقام في (تلة يعنين) التي تضم أراضي لكل أهل القرية يقضون فيها أيام الصيف الحارة (كمصيف أو عرزال أو عزبة). «وكان مجموع من اعتقل من شَعَب والبروة والدامون (٣٥٠) شخصاً»[١١] «وقد أطلق سكان تلك البلاد على يوم التنكيل ذاك اسم «موقعة الصبر»، لأن القوات البريطانية جمعت رجال القرية وأجبرتهم على قطع ألواح الصبر ثم قامت بإلقائها عليهم»[١٢].

نسف القرية

بدأ نسف القرية من غربها حيث توقفت الكلاب، ولكن اتجاه الريح لم يساعدهم على البدء بالتفجيرات، فشرعوا بنسف البلد من شرقها. وتم نسف الحارة الشرقية كلها، وبعض بيوت الحارة الغربية، أي ما يقترب من نصف بيوت القرية تقريباً (ما يزيد على المئة بيت)، وقد اتبعت سياسة التخريب في الهدم بقصد الإيذاء قدر الإمكان، فكان يقوم الجنود بخلط مونة البيت ببعضها وصب الزيوت على ملابس أهل البيت الذين خرجوا من منازلهم بما عليهم من ثياب، ثم يتم تزنير البيت ونسفه في لحظات سوداء لم تشهد القرية مثلها سابقاً. وجدير هنا أن نقارن الأثر الذي تتركه عمليات الهدم في نفوس الأهالي بالأثر الذي تتركه عمليات العدو الصهيوني في هدم البيوت الذي يتم في هذا العصر في فلسطين، فقد تعددت الاحتلالات والإرهاب واحد.

أما لماذا توقف النسف عند حارة الجامع الغربية فقد رد البعض السبب إلى نفاد الذخيرة والبعض الآخر إلى العمليات التي تعرضت لها قواتهم انطلاقاً من جبل الليات[١٣].

في ذلك اليوم نظم شاعر البلد محمد الخليل (طه) عن كلاب الأثر الأبيات التالية:[١٤]

كلاب الأثر يا ما هَدَم البنيان ... وأخلى الدار العامرة من أهاليها
ودار أبو فاعور المكرمة دايرة الفنجان ... ناخت على الغبرة وهدت زواييها
ومختارنا أصبح مستوطن جبل الزكان ... لا حيط واقف بل لا سقف يحميها
ودولة بريطانيا أمكر من الثعبان ... وكلاب الأثر الله يقطع تواليها

معركة الليّات الكبرى

أثناء عملية النسف تداعى الثوار من أهل القرية والقرى المجاورة وتجمعوا قرب كابول (جنوب شَعَب – تقع بين ميعار والدامون)، وعندما بدأ الإنجليز بنسف القرية من شرقها انسحب الثوار إلى الجهة الأخرى قرب الليات في الشمال الغربي من القرية.. وقاموا بعمليات عسكرية ضد دوريات الاحتلال المتجهة إلى صفد، والأخرى المتجهة لدعم النسف في شَعَب..

يقول صبحي ياسين: «.. وبعد أن تجمع حوالي (٣٠٠) شخص من مجاهدي قرى الشمال بقيادة أبو مهاوش من الدامون وجدعون وطفة من جديّدة ومحمود الجودة من البروة، وأحمد أبو عوض، ودليل سعيد، وأبو الخير من الكابري ومحمد سعد أبو خالد من المزرعة ونمر خليل من شَعَب وآخرين، هؤلاء قاموا بهجوم كبير على القوات البريطانية بعد العصر أثناء عودة هذه القوات من أعمال التدمير الواسعة النطاق»[١٥].

عندها بدأ الطيران الإنجليزي بقصف جبل الليات الذي كانت تنطلق منه عمليات الثوار.. وتوزع الثوار بين مطلق للنار على الدوريات ومطلق على الطائرات، وبلغت كثافة النيران والقصف، أن قرر الجميع الاحتماء بين الصخور ما عدا بعض الفتيان الذين كانوا يطلقون النار على العدو بطيش كاد يعرضهم للموت المحتم..

وكانت معركة الليات الشهيرة من أقوى المعارك في منطقة الجليل. ويقول فيها صبحي ياسين: «..وقد اعتقد الإنكليز أن أعمالهم الوحشية سترهب السكان وتدخل الرعب في قلوبهم ولكن خاب ظنهم، فما أن رجعوا حتى انقض عليهم العرب الأحرار من جبال شَعَب المنكوبة ومن تل البروة وهضاب مجد الكروم ويركا ومن بين أشجار الجديّدة، طوق الأبطالُ الأعداءَ من كل جانب وكان هذا في رابعة النهار، وجرت معركة استمرت حوالي أربع ساعات بالنهار وثماني ساعات بالليل[١٦] تمكن الثوار أثناءها من إطلاق سراح عدد من المعتقلين الذين اعتقلوا قبل المعركة من سكان القرى المجاورة، وقتل من الإنكليز عشرات، وانهارت معنوياتهم من شدة بأس الثوار.. وانتهت المعركة بهزيمة الإنكليز وانتصار الثوار، وقد استشهد (١٢) مجاهداً من العرب..»[١٧].

وقد وصف بلاغ من قائد الثورة في منطقة الشمال هذه المعركة، فقال:[١٨]

بسم الله الرحمن الرحيم

نعلن للجماهير الكريمة في جميع البلاد العربية عن ما حل في قرية شَعَب دحضاً لأباطيل الحكومة الغاشمة الظالمة وذلك تبياناً للحق ولكي لا تبقى الجماهير على اعتقاد بما جاء في بلاغ الحكومة وبما أذاعته محطة القدس.

لما انفجر اللغم قرب قرية البروة في قضاء عكا قتل من الجند تسعة وقائد كبير برتبة لفتنانت وثلاثة بجراح خطيرة عندها تألم الجند وتبعوا كلابهم إلى قرية شَعَب وقرر نسف جميع بيوتها ما عدا المسجد والمدرسة والكنيسة وبيت المختار وفي اليوم الثاني خرج الجند

لإجراء ما قرروه في القرية المذكورة فنسفوا خمسة وسبعين بيتاً وتصدع من جراء ذلك ما يقرب من هذا المقدار وكنا في أثناء عملية النسف نوزع المجاهدين إلى فصائل ليأخذ كل فصيل مكمنه ففاجأهم الفصيل الأول الذي يقدر عدد أفراده بمائة مجاهد ودارت معركة حامية اشتركت فيها ثلاث طائرات فاستبسل المجاهدون وأوقعوا في الجند خسائر جسيمة فطلب الجند نجدات ولمجيء النجدة الأولى فاجأها كمين من المجاهدين على طريق عكا صفد قرب الليات فتقهقر الجند وكاد المجاهدون أن يستولوا على سياراتهم لولا كثرة الطائرات التي أوقفت تقدم المجاهدين ودامت المعركة ما يقرب ثماني ساعات وهي حامية الوطيس طلب الجند أثناءها باللاسلكي وبالطائرات ما يقرب من ست نجدات وفي النتيجة كانت الخسائر من الجند مئة قتيل وسبعين جريحاً.

وإن قيادة الثورة تأسف لاستشهاد ثماني من المجاهدين وجرح ثلاثة رحم الله الشهداء وألهمنا والأمة الصبر والثبات والله مع الصابرين.

قائد الثورة في الشمال

(انتهى)

إعادة بناء شَعَب

في ظاهرة من أبهى مظاهر التعاون والألفة التي سجلتها القرية، حيث قام أهلها بإعادة بناء بلدهم من جديد.

وخلال أقل من عام استرجع أهل القرية وخاصة الحارة الشرقية بيوتهم جديدة بفضل تعاون أهل القرية في البناء.. فقد كان الناطور ينادي منذ الصباح على الناس بصوت جهوري إما في ساحات الحارات أو على ظهر الجامع، مبيناً لهم أي بيت سيتم بناؤه في ذلك اليوم، فيتجمع شباب القرية على البيت المحدد ويبدأون ببنائه وصفّ الجذوع في السقف لتأسيسه ثم الأغصان الصغيرة كالزنزلخت لتضييق المسافات بين الجذوع أو الأغصان الكبيرة، ثم بالورق والبلّان والقصب. وعندها يبسط فوقها الطين المخلوط بالتبن، ثم تسكن العائلة فيه شاكرة للشباب تعاونها وللأقارب حسن استضافتهم لها.

وهكذا عاد مع الثورة والكفاح التعاون بين أهل القرية بعد أن كان بأسهم بينهم شديداً، فوجهوه إلى العدو ببندقية واحدة واتجاه واحد.

* * *

(١) سميح حمودة: عز الدين القسام الوعي والثورة، دار الشروق عمان، الطبعة الثانية ١٩٨٦، ص١٤٦.

(٢) راجع فصل طوشات القرية.

(٣) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦- ١٩٣٩)، ص١٠٦.

(٤) وإذا كان في الأسماء خلل، فذلك لكون معظمها أسماء حركية وكان عمر راويها في ذلك الحين ستة عشر عاماً.

(٥) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦- ١٩٣٩)، مصدر سابق، ص١٠٣.

(٦) أكرم زعيتر: وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٨ من أوراق أكرم زعيتر، إعداد بيان نويهض، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الثانية بيروت ١٩٨٤، ص ٤٢٥.

(٧) حسب صبحي ياسين الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦- ١٩٣٩)، فيما ذكره أكرم زعيتر في ١٦-٨-١٩٣٨، وهو الأرجح.

(٨) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٨ من أوراق أكرم زعيتر، مصدر سابق، ص٤٩٢.

(٩) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٨ من أوراق أكرم زعيتر، مصدر سابق، ص٤٩٤.

(١٠) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٨ من أوراق أكرم زعيتر، مصدر سابق، ص٤٩٩ - ٥٠٠.

(١١) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦- ١٩٣٩)، مصدر سابق، ص١٠٧.

(١٢) محمود الكيال، تصحيح بعض المعلومات الواردة عن قريته «البروة»، موقع «ذاكرة فلسطين» www. palestineremembered.com.

(١٣) وهذا ما ذكره مراسل أكرم زعيتر في اللواء الشمالي أحمد العفيفي، وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٨ من أوراق أكرم زعيتر، مصدر سابق، ص٤٩٩ - ٥٠٠.

(١٤) مقابلة مع يوسف الغضبان (أبو عادل) في منزله في بر الياس – البقاع في آب ٢٠٠٤.

(١٥) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦- ١٩٣٩)، مصدر سابق، ص١٠٧.

(١٦) ما يعني أن المعركة استمرت ١٢ ساعة من الرابعة عصراً حتى الرابعة فجراً.

(١٧) صبحي ياسين: الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦- ١٩٣٩)، مصدر سابق، ص١٠٧-١٠٨.

(١٨) وثائق الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩١٨-١٩٣٨ من أوراق أكرم زعيتر، مصدر سابق، ص ٥٤٥.

الفصل الرابع
أحداث عام النكبة ١٩٤٨

«لـو أن الفلسـطينيين قاتلـوا دون الاعتماد علـى غيرهم وانتظار النجدات، لحققوا ما فشـلت فيه جيوش الدول العربية مجتمعة».

أحد الضباط الصهاينة المشاركين في حرب ١٩٤٨

أستطيع أن أزعم أن هذا الفصل هو الفصل الذي دفعني إليه دفعاً، وهو الذي حفزني على الشروع في هذا الكتاب، وقد قصدنا ذكر كفاح شَعَب وحاميتها لعدة أسباب:

أولاً: للتأكيد على أن هذا الكتاب لن يقتصر على التذكر والبكاء على الأطلال، بل من أجل ترسيخ فكرة المقاومة والعز الذي تحييه هذه الفكرة.

ثانياً: للتأكيـد علـى الحق بـالأرض التي روتها دمـاء آبائنا وأجدادنا. لأنهـا بالإضافة إلى الحق التاريخي بها، تعمدت بالدم والشهداء.

ثالثاً: للتأكيد على أن هذا الكفاح لا بد من أن يسـتمر من أجل اسـتعادة قرانا وبلادنا من النهر إلى البحر.

لذلـك فإن شَـعَب وهـي جزء لا يتجزأ من قضاء عكا التي يغسـل شـاطئها البحر، ويداعب آثارهـا التاريـخ، وأعجزت أسـوارُها الغزاة. وبالتالي فهي جزء لا يتجزأ من فلسـطين التاريخية. تجدر الإشـارة هنا إلى نضال وجهاد شَـعَب، يمثل نضال وجهاد فلسـطين كلها، وقد سـاهمت في تميز شَعَب عدة ظروف (البيئة الاجتماعية والجغرافية) وعوامل وشخصيات وعلاقات لم تتوافر

في القرى جعلت هذا الثقل يقع على كاهلها.

ولو توافرت هذه الظروف للقرى الأخرى لتمكنت من القيام بما قامت به شَعَب، وهذا يعتبر وساماً على صدر فلسطين والأمة، وليس حكراً على شَعَب وحدها.

وقد استطاع أهل القرية تشكيل حامية للبلد، بفضل تعاون وهمة عدد من شخصياتها، وكان من قادة الحامية:

إبراهيم الشيخ خليل (أبو إسعاف) ومصطفى الطيار وموسى مطلق إبراهيم الشيخ محمد وعبد المالك الفاعور وسعيد صالح الأسدي ومحمد موسى الأسدي وطه اليوسف وأحمد الحسين ومحمود رشيد حمزة ويوسف الكيالي (من البروة) ونواف البدوي أبو غليون (من ميعار). أما نمر الخليل وأحمد الخطيب فقد كانا من قادة الحربين (١٩٣٦ و١٩٤٨). وكان من القادة السياسيين أيضاً نجيب الطيار ومنيب فاعور، نظراً للمستوى العلمي الذي حققاه.

وكان مقر قيادة الحامية في طرف القرية في بيت علي موسى الأسدي.

تأمين السلاح عبر أبو إسعاف[1]

كان أبو إسعاف من قادة المناضلين في حيفا (كان قسامياً) وذهب مع وفد يرأسه صبحي الخضرا إلى ليبيا لشراء أسلحة لأبناء حيفا بمعرفة الحاج أمين الحسيني، ولما عاد من ليبيا وحين كان في ميناء صور كانت مدينة حيفا قد سقطت في يد الصهاينة، فصدرت التعليمات من الحاج أمين الحسيني لإبراهيم الشيخ خليل (أبو إسعاف) بالتوجه بأسلحته التي أحضرها من ليبيا، من صور إلى قرية شَعَب بقضاء صفد (قضاء عكا) حيث يكون مشرفاً على الدفاع عن تلك المنطقة وتوزيع السلاح على المناضلين.

وصل أبو إسعاف إلى قرية شَعَب ومعه أربع قاذفات ضد الدروع وستة رشاشات بُرِن وذخائر وقنابل يدوية وثلاثة مدافع هاون.

الصورة العامة للوضع

قبل الدخول في التفاصيل الميدانية لمعارك قرية شَعَب وحاميتها لا بد من إلقاء نظرة سريعة على الوضع الميداني العام في تلك الفترة التي لم تشهد تحولاً في التاريخ الفلسطيني فقط، بل شهدت انكساراً للتاريخ عن مساره. وذلك للاطلاع على الخريطة العامة لمعارك المنطقة والأبعاد الاستراتيجية لها، كون من بقي حياً من أهل البلد لم يشارك مع كبارها في الوضع السياسي، بل إن من بقي هم من الشباب الذين يفيدون في الناحية الميدانية، خاصة من قابلناهم لم يكن أحد منهم يعلم بالعلاقة بين معركة البروة التي قامت بها حامية شَعَب وبين الخريطة العسكرية العامة في المنطقة، فالجميع يعرف «أننا حررنا البروة من أجل الحصاد»، إلا أنه غاب عن بالهم أن طرف قرية البروة من الغرب عند بئر العياضية لا يبعد عن عكا سوى سبعة

كيلومترات فقط لا غير. ولهذا دلالة مهمة ندركها من خلال التفاصيل التي أوردها كتاب النكبة كما سنرى في الفقرة التالية.

(سقوط) قرى عكا[٢]

بعد أن احتل اليهود عكا (١٦ أيار ١٩٤٨) بأسبوع هاجموا قرية (البروة). ورغم أن سكانها قاوموهم مقاومة عنيفة. إلا أنهم اضطروا حيال ضغط اليهود وقواتهم الكبيرة إلى الانسحاب منها (٢٣ أيار)[٣] فانسحبوا إلى مجد الكروم.

وتابع اليهود تقدمهم فراحوا يزحفون صوب قرية شَعَب. وكان على رأس هذه القرية رجل يدعى (أبو إسعاف). فاستنجد هذا بفوزي القاوقجي. إلا أنه لم ينجده، وكانت قوات القاوقجي يومئذ معسكره في (المغار). عندئذ راح أبو إسعاف يستنفر المناضلين في: الجديدة، والمكر، وكفر ياسيف، وسائر القرى المجاورة. فلبوا نداءه. وراحوا يقاتلون اليهود مجتمعين. إلى أن تمكنوا من إخراجهم من البروة. وتعقبوهم حتى (بير العياضية)، عند مفرق الطرق المؤدية إلى كفرياسيف ومجد الكروم وطمرة وشعب الواقعة على بعد سبعة كيلومترات من عكا إلى الشرق. ومن هناك راحوا يرسمون الخطط لاسترداد عكا. وكانت هناك، في عكا، جماعة تعمل في الخفاء لمقاومة اليهود، يقودها ضابط سوري هو (إبراهيم الحسيني). وكان بيد أفراد هذه الجماعة مئتان وخمسون بندقية من أسلحة جيش الإنقاذ.

وبات الأمل قوياً في استرداد عكا. لولا أن الريح سارت باتجاه معاكس. إذ وقع خلاف بين القاوقجي الذي جاء إلى (بير العياضية) من جهة وبين أبو إسعاف قائد المناضلين من الجهة الأخرى. الأمر الذي أدى أولاً إلى انسحاب أبي إسعاف وإبراهيم الحسيني من الميدان، ثم انسحب القاوقجي من هناك. انسحب إلى المغار، ولما ينقضي على وصوله إلى (بير العياضية) سوى ليلة واحدة.

عندئذ جاء اليهود وهاجموا قرية (البروة)، واحتلوها ثانية. وكان معهم يومئذ عدد كبير من الدروز.

وبعد البروة هاجم اليهود قرية (شعب). فاحتلوها، وهدموا عدداً من منازلها، ثم ساروا إلى الأمام، فاحتلوا (الدامون). وهدموها، فجعلوا عاليها سافلها. ..

وجاءت قوات يهودية أخرى من ناحية صفد. فاحتلت (المغار). وكان القاوقجي قد انسحب منها قبل ساعات. وما كاد القاوقجي يسحب مدافعه من (الليات) حتى سقطت هذه أيضاً بيد اليهود.

وانسحب القاوقجي بعدها إلى ما وراء الحدود[٤].

معارك شَعَب وحاميتها

في مجال تجميع الشهادات، ولأننا لم نكن من شهود تلك الحرب، رأينا أن نطلب من أحد المشاركين تلك المعارك أن يكتب خصيصاً لهذا الكتاب عن معركتي البروة وميعار، فتوجهنا إلى الأستاذ موسى مطلق إبراهيم (الشيخ محمد)، وطلبنا منه أن يكتب لنا عن معارك حامية شَعَب، متوخّين الدقة في الكتابة، لئلا تغيب عن بال الراوي في الشهادة الشفهية بعض التفاصيل.

وتوخّينا للدقة، سببه أن هناك كثيراً من الشهادات المطروحة في الكتب تشكو من غياب التفاصيل أو تعتريها بعض المبالغة، وكل هذه الكتب اعتمدت على الشهادات، لذلك لن تكون أوثق ممن جمع عدة شهادات في موضوع واحد، ومن شاء المقارنة فإننا قد جمعنا كل ما حصلنا عليه من شهادات مكتوبة في آخر الكتاب ضمن فصل خاص. وسوف يعرف حينها القارئ ما قصدته بالمبالغة في الأمر. وحفاظاً على نقاء نص الأستاذ موسى مطلق فإننا لم نخترقه بمعلومات إضافية، بل تفصيلية. وعليه فإن كثيراً من المعلومات الصحيحة آثرنا أن تبقى في مكانها من الشهادات.

والأستاذ موسى كاتب وشاعر له ديوان «ليلى» وديوان آخر اسمه «يعنين»، ولا يغيب عن بالنا ما ليعنين من أثر في نفوس أبناء شَعَب.

ويشكو النص هنا من أمرين، وقد اشتكى من الأول الأستاذ موسى، وهو صعوبة تذكر التأريخ بدقة، وقد استعنّا ببعض الكتب لمعرفة هذه التواريخ، ولعل أكثر من استفدنا منه هي المفكرة الخاصة للأستاذ نجيب الطيار (وكان أشبه بالمسؤول الإعلامي في الحامية) حول معارك ١٩٤٨. الأمر الثاني، أن الأستاذ موسى لم يذكر أنه كان أحد المناضلين في تلك الحرب، ولم يتوقف عن النضال حتى بعد خروجه من فلسطين، حيث كان يعود إلى القرية بين الفينة والأخرى، لكنه تجنب هنا –تواضعاً– ذكر اسمه ودوره في المعارك، كما أن بعض التفاصيل التي رواها شفهياً لم يذكرها هنا.

لذلك سوف نحاول أن نستدرك بعضها هنا وسيكون بين قوسين أو في الهوامش، ونزيد في التفاصيل في مكان آخر من هذا الفصل إن شاء الله، معتمدين على بعض الشهادات الشفهية من بعض من عايشوا أحداث تلك الفترة وشاركوا فيها. وقد توفي الأستاذ موسى بعد كتابة هذه الأوراق بستة أشهر فقط.

وقبل البدء بإثبات نص الأستاذ موسى مطلق إبراهيم، نشير إلى أنه حسب قرار التقسيم رقم (١٨١) الصادر عن الأمم المتحدة عام ١٩٤٧، فإن شارع البروة–عبلّين يفصل بين الدولة اليهودية التي تقع غربيه والدولة العربية التي تقع شرقيه[٥].

كما نشير أننا نقلنا فقرة كتبها ضمن هذا النص، عن نساء شَعَب، ولكننا ارتأينا – مع الإشارة إلى ذلك– أن ننقله إلى فصل حول جهادهن ومشاركتهن في الحامية. وأنّنا «خرقنا» شهادته بمقاطع من شهادات أخرى.

تفاصيل المعارك الميدانية لحامية شَعَب

بقلم: موسى مطلق إبراهيم

دارت بين المسلحين من أبناء شَعَب في حرب ١٩٤٨ طوال خمسة أشهر من ذلك العام وبين العدو اليهودي المهاجم معارك مشهودة في قرية البروة الواقعة إلى الغرب من شَعَب، وعلى مشارف قرية ميعار الواقعة على قمة جبلية إلى الجنوب (الشرقي) منها. إذا أنه بعد أن احتل العدو اليهودي قرية البروة[٦] في حزيران ١٩٤٨ (كتب نجيب الطيارفي مفكرته: الجمعة ١١حزيران - هجم اليهود على البروة الساعة ١١ ليلاً واستمرار المعركة حتى الحادية عشرة ظهر السبت بعد الهدنة الرسمية، سقوط البروة والارتداد إلى مجد الكروم. السبت ١٢حزيران - بدء هدنة الأربع أسابيع بين العرب واليهود)[٧]، عمد (العدو) إلى حصاد حقول القمح العائدة إلى أهل شَعَب الواقعة إلى الجنوب من البروة، وطلب أبو إسعاف قائد المسلحين، من قوات جيش الإنقاذ المتمركزة في أعلى تلة الليات إلى الشمال الشرقي من البروة، وكان لديها مدفعا ميدان، أن يسهموا بالرمي المدفعي فقط، بعد أن اعتذر قائدها عن التقدم إلى البروة وذلك لتقديره أن استعادة البروة من العدو تحتاج إلى قوات أكبر من القوات التي يقودها. وقد لبى ذلك القائد هذا الطلب. واندفع المقاتلون بالهجوم على البروة بعد أن مهّد المدفعان بالرماية المركزة أفضل تمهيد، ومن الجدير ذكره أن ضابط الإشارة الذي يعود إليه الفضل في تركيز الرماية الصائبة كان ضابطاً لبنانياً ملتحقاً بجيش الإنقاذ، فكان صلة الوصل بينه وبين الرماة على المدفعين صف طويل من الجنود بدلاً من اللاسلكي غير الموجود، فكان الجندي الأقرب إليه يصيح إلى من يليه بالإشارة التي يقولها الضابط، وهذا بدوره يصيح بها للذي يليه، وهكذا حتى تصل الإشارة بأسرع ما يمكن إلى مسمع الرماة، محددة الزاوية والمسافة لهم فيرمون بموجبها رماية لا تخيب.

وقد بدأ الهجوم قبيل الظهر (كتب نجيب الطيار في مفكرته، الخميس ٢٤ حزيران - التعدي على المزروعات لقرية شَعَب من قبل اليهود..، الجمعة ٢٥ حزيران - القرويون يدخلون البروة ليلاً بعد دحر اليهود وأخذهم غنائم متعددة). وما إن حل المساء حتى تمت استعادة البروة وتحريرها تحريراً كاملاً من اليهود الذين انسحبوا إلى الغرب منها. وقد استولى المقاتلون على الحصّادتين اللتين كان العدو يحصد بهما حقول القمح العائدة إلى أهل شَعَب، وعلى أكياس القمح الموجودة في محيطهما، حيث أن الحصادة تحصد وتفرز القمح عن سنابله في آن واحد.

بقي قسم من المسلحين تم انتقاؤهم من مختلف عائلات شَعَب وعاد القسم الأكبر للراحة، وتم الاتصال بقوات جيش الإنقاذ لتسلم البروة بعد تحريرها، ولكنها تلكأت تلك الليلة مما أفسح المجال لهجوم يهودي ليلي على البروة، وقد حاول العدو تطويقها من ناحيتي الجنوب والشرق ليقطع طريق الإمداد بينها وبين شَعَب، وطرح الصوّات الصوت بأن البروة مطوقة فهبّت شَعَب برجالها ونسائها (وكان لهن دور كبير سنأتي على ذكره لاحقاً) بالإضافة إلى المسلحين

ويمّمت شطر البروة، ذلك أن المطوقين ينتمون إلى جميع العائلات فيها، فكان الفزيع الزاحف إلى البروة يمتد كيلومترات.

ودارت في اليوم التالي معركة شرسة والتحاميّة، الأمر الذي حال دون إسناد المدفعية كما في اليوم السابق، ما عدا مصفحة لجيش الإنقاذ جاءت من جهة الجنوب من ناحية شفاعمرو وقد فتكت هذه المصفحة برشاشها بالجنود اليهود الذين كانوا يتحركون في أرض مكشوفة جنوب البروة، وما أن انتصف النهار حتى كانت البروة في أيدي مقاتلي شَعَب، وتم تطهير حواكيرها من جهاتها الثلاث الشمالية والشرقية والجنوبية، أما الجهة الغربية فكانت تتمركز فيها المصفحات اليهودية على الطريق المتفرع من طريق عكا - صفد الذي يمر إلى الغرب من البروة متجهاً إلى الجنوب. (كتب نجيب الطيار في مفكرته، سقطت صفد في ١١-٥-١٩٤٨، فيما سقطت عكا في ١٨-٥-١٩٤٨). وقد بثّت إذاعة لندن في مساء ذلك اليوم أن خسائر اليهود بلغت خمسة وستين قتيلاً، بينما خسرت شَعَب اثنين لا ثالث لهما من مقاتليها هما: مصطفى الحاج عبد حمزة وكايد محمد سليم (أبو الهيجا). وجاءت قوة من جيش الإنقاذ وتسلمت البروة من مقاتلي شَعَب، ولكن قيادتها عادت فسحبتها لعدم قدرتها على تقديم الإسناد الكافي لها، وعاد اليهود إلى البروة وتمركزوا فيها دون مقاومة. واستعادوا الحصّادتين، ذلك أن أحداً من المقاتلين لم يعرف قيادتهما حتى يمكن نقلهما إلى مكان آخر. أما أكياس القمح فقد تم نقلها وتقاسمها بين أصحاب الحقول المحصودة.

شهادة الأستاذ علي الخالد (أبو انور)[٨]

قبل متابعة ما كتبه موسى مطلق ابراهيم نثبت هما بعض الشهادات عن تلك الفترة: كان الحصاد في «المرسات»، وكان اليهود قد شقوا ثلماً بعرض مترين، واعتبروه حدود «البروة» المحتلة.

وكان حمْلُ البارودة يومها عشوائياً، فتقدّم أهل البلد حتى زتونات المغيّر وبئرها (وهي قطعة تقع في أراضي شَعَب، إلا أنها تلاصق البروة التي يشرب أهلها من بئرها). وجاء مسلحون من القرى المجاورة، واجتمعنا -بعد بدء المعركة- تحت الزتونات، وكان اليهود في «راس عروس».

كنت أنا وأحمد الخالد، محمد الخطيب، محمود عبد السلام (أصيب بيده)، علي صالح عبد الهادي (أصيب برقبته)، عبد الملك فاعور، محمود رشيد حمزة، كامل أسعد علي طه..

كان اليهود يكشفون الجهات الشرقية والجنوبية والشمالية.. كنا طالعين صعوداً باتجاه الاستحكام اليهودي، وكان مع اليهود رشاش مشينغن ألماني.

اقتربت مع علي صالح على بعد ٣٠ متراً، فسمعت اليهودي يقول: ترئيت (يعني شفتهم)، فهمت كلامه (كنت أعمل في البريد وأخالطهم)، رفع علي صالح رأسه، فأصيب في حنكه وطلعت الرصاصة من رقبته، ونجا بأعجوبة..

وأصيب محمود عبد السلام وحسن الأسعد الحرامي، ووصلنا للاستحكام ووجدنا فيه بنت يهودية مقتولة، وغنمنا المشينغن..

وجاءت الناس من «خلة جودي» إلى المحافر (مجادلة: من رجال مجد الكروم)، من شرق شمال البروة. وتم احتلال البلد وهرب اليهود.. وكل هذا حصل قبل غياب الشمس.

غابت الشمس واجتمعنا (٤٠-٥٠ شخصاً) غربي البروة، ومن الناس من ترك وذهب إلى بيته.. ورجع محمد عين الزتون (الخوالد) وأحمد مصطفى منصور (فاعور)، ونزلوا غربي راس عروس على القراقطة (الحصادات)، فاعتقلهم اليهود غربي التل..

صباحاً -مع الأذان- تقدم اليهود واحتلوا «البروة»، وكنا لا نزال غربيّها، فخشينا أن يقفلوا علينا الطريق، فانسحبنا وكان معنا حسين موسى الخطيب، أحمد عبد المجيد، محمود رشيد حمزة، مصطفى الحاج عبد حمزة، كايد أبو الهيجا. وأثناء العودة والانسحاب استشهد مصطفى وكايد في الجهة الشرقية في حواكير «البروة».

وصلنا لآخر بيت في البروة من شرقها (بناية سليم القرش)، تقدم اليهود من الجنوب الغربي قبل البروة، وانكشفوا مع الشروق..

وصل الخبر لقوة من جيش الإنقاذ بقيادة جابر، فجاء مع القوة المصفحة حتى وصلوا الجسر، وكان اليهود بالوادي تحت الجسر. أرادوا اعتقال المصفحة، فرآهم الجنود وأطلقوا عليهم النار، وأحس اليهود أنهم مستهدفون فهربوا وتسلم جيش الإنقاذ البلد..

ثم سلم البلد لليهود في اليوم التالي بموجب الهدنة..

تقول الحاجة أم هاني (سعاد صالح حسين) عن معركة البروة:

«كان لشعب أراض واسعة تصل إلى حدود قرية البروة (فالبروة كانت تشرب من بير المغيّر، الذي يقع في أراضي شَعَب)، وعندما احتل اليهود البروة، كان موسم حصاد القمح قد أزف في حزيران، فأحضر اليهود حصادات آلية تحصد القمح بالجملة وتخرجه في أكياس، فقامت الفزعة في شَعَب، وتحرك رجال الحامية، وذلك بعد جُمْعتين (أسبوعين) من سقوط البروة تقريباً، وهاجموا الحصادات وأكملوا طريقهم باتجاه البروة وطردوا اليهود منها».

وإذا علمنا أن بعض أهل القرى والمجاهدين انضموا إلى حامية شَعَب نظراً لأنها كانت على تماس مباشر مع العدو، وكانت تسجل إنجازات لم يستطعها جيش الإنقاذ، وأهل شَعَب يذكرون جيداً أبو شلاش الذي أبلى بلاء حسناً في كافة معارك الحامية، وكان يقود الفرقة المتقدمة في معركة ميعار، وهو قائد مجموعة سورية من حماة كانت في جيش الإنقاذ. فإن شهادة أحد أبناء البروة لنافذ نزال في كتاب «النزوح الفلسطيني من الجليل»، يؤكد هذا الحدث، وإن كان قد اختُلف في نسبته إلى صاحب الفضل:

«انتظر أهل القرية نحو ثلاثة عشر يوماً (بعد أن سقطت قريتهم أول مرة في ١١ حزيران). وكانوا خلال هذه الفترة يحلون ضيوفاً عند أهالي القرى المجاورة. وفي صباح ٢٣ حزيران،

قـرر أهل القرية أن يسـتعيدوا السـيطرة علـى قريتهم. في هذا الحين، كان موسـم الحصاد على وشـك الانتهـاء فـأرادوا أن يحصدوا محاصيلهم قبل أن تتلف. انتشـرت أنبـاء الخطة في القرى المجاورة..»[٩].

إلا أن محمود الكيال[١٠] وهو من البروة، ويسكن حالياً في الجديّدة قرب عكا، يشير إلى أنه «تـرأس مجموعـة المقاتلين هذه أبو إسـعاف من قرية شَـعَب، الذي عينه المفتـي قائداً في منطقة الجليل الغربي». وهو ذكر أيضاً أن البروة سقطت في عملية «ديكل» التي نفذتها الفرقة السابعة من الجيش الصهيوني.

نجدة هوشة والكساير [١١]

إذا كانت معركة البروة قد جرت في أيار، فإن نجدة هوشة والكساير سبقتها بأكثر من شهر، بين آذار ونيسان.

وصل رجال على الخيل إلى بلدنا، وأخبرونا أن هوشة والكساير تتعرض لهجوم، فتجهز كل رجل ببارودته وركبوا بالشـحن وراحوا على الكسـاير، كنا أكثر من ثلاثين شخصاً، وتجمّعنا هناك في بيت الحاج حسـن الخضر حمدان. تحت بيته كان هناك قوة من جيش الإنقاذ بقيادة شـكيب وهاب.

وتجمعـت قـوات مـن كل القـرى. والقريـة لـم يكـن لديهـا أراضٍ، بـل كانـت أرضهـا تابعة للمسـتعمرات الذيـن اشـتروها مـن بيت سرسـق اللبنانيـين. وكان اليهـود يصفّحـون التراكتور ويضعون عليه الرشاش..

قتـل فـي هذه المعركـة الكثير من الدروز الذي كانـوا يدافعون هناك. أما نحن فلم نشـترك بالمعركـة، لأننا لـم نلتحم باليهود.. حضرناها من بعيد وعرفنـا تفاصيلها على أرض الواقع، ثم عدنـا إلـى بلدنـا.. ولم نكن نحـن من قاتل اليهـود يومها والتحـم معهم؛ بل هم الـدروز وجيش الإنقاذ.

تقول الحاجة أم هاني (سعاد صالح حسين):[١٢]

يوم معركة هوشـة والكسـاير، تجمع الرجال ليصعدوا في الشـاحنة، ووقفت نجمة عبدالله (الدلّـة)؛ والـدة الحسـون (الشـاعر)، وأخـذت (تهاهـي = آويها) تغني للشـباب، أغاني حماسـية، وتقول..

شـبابنا تسـلحت .. بناتنـا غنّـت
رايـات النصـر مـن راس الجبل طلت
ريتها اللي شـافت الشـباب وما صلّت
تبلى بـكاس العمى، وبعد العمى ذلّت

درّسوا مدافعهم وداروها تلايانا
لاْحْنا اْرتعبنا ولا انهزّت زوايانا
واْن قدر الله وأدّتنا منايانا
كاسٍ اْشربناهْ لنسقيه سم لاْعدانا

شبابنا الاْبطال ومِن يقدر يحاصركو
يا حاملين القنابل عا خواصِركو
وسْألت رب السما من فوق ينصركو
نصرةْ عزيزة ولا يكسر خواطركو

احتلال شَعَب

نعود إلى شهادة موسى مطلق إبراهيم:

بعد أن استقرّ اليهود في البروة صار لزاماً على أهل شَعَب أن يقيموا حراسة على مدار الليل والنهار، تمتد من السيامية (قبل مدخل البلد على شمال الداخل إليها) إلى الجلمة (على يمين الداخل) مروراً بيعنين (التي تقع بينهما)، وأن يحفروا ويبنوا استحكامات بعيداً إلى الغرب من منازل شَعَب بحوالي ثلاثة كيلومترات. وكان هناك طريق معبد يمر من جنوب الجلمة صاعداً شرقاً إلى قرية ميعار. وكان أهل ميعار قد أقاموا سداً على هذا الطريق من الصخور والحجارة الكبيرة منعاً لتقدم الآليات.

كانت أغلب عمليات اليهود القتالية في الليل، ففي إحدى ليالي تموز من عام ١٩٤٨ (الأحد ١٨ تموز) تقدم اليهود على هذا الطريق بآلياتهم المصفحة، وقد اشتبكت معهم قوة المقاتلين المتمركزة في الجلمة، ولكن اليهود لم يكترثوا لهذه القوة لعلمهم أنها لا تملك أي سلاح يمكن أن يؤثر بالمصفحات. ولما بلغوا سدّ الصخور جاؤوا بجرافة مصفحة، فأزالت الصخور عن الطريق بأقل من ساعة، هذه الصخور التي قضى أهل ميعار أياماً كثيرة في جمعها وبنائها على الطريق. وراحوا يمطرون ميعار وشَعَب بالراجمات والهاوين والرشاشات الثقيلة، وكان قصدهم إرهاب الأهالي وتطفيشهم خارج القرى ليستولوا عليها خالية من الناس. وقد تشرد في تلك الليلة أهالي ميعار وشَعَب خارج قراهم بعيداً عن مرمى النيران المفتوحة عليهم كأبواب جهنم، وما إن طلع الصبح حتى كان اليهود قد تمركزوا في ميعار وبدأوا يصبون نيرانهم على شَعَب الواقعة على السفح من ميعار المشرفة عليها والواقعة على القمة. (كتب نجيب الطيار في مفكرته، الأحد ١٨ تموز- الساعة ٤:٤٥، احتل اليهود الدامون، الساعة ٧:٣٠ بعد حلول موعد الهدنة بساعتين ونصف هاجم اليهود قرية شَعَب وميعار ودخلوا ميعار الساعة ١١:٣٠ ليلاً وتشردت قرية شَعَب).

في هذه الحالة المريعة أصبح المقاتلون لا يعرف الواحد منهم أين أصبحت عائلته وأهله،

فانتشروا وتفرقوا يبحثون عن عوائلهم وأهلهم. في هذه الأثناء تقدم اليهود واحتلوا شَعَب دون مقاومة تذكر. وبعد يومين من الاحتلال تنادى المقاتلون بعد أن اطمأن كلٌ منهم إلى سلامة أهله، وتجمعوا وبدأوا هجومهم على شَعَب فاستردوها مع الغروب، وانحسر العدو عنها صعوداً إلى ميعار. (كتب نجيب الطيار في مفكرته، الثلاثاء ٢٠ تموز- دمر اليهود قرية ميعار و١٢ منزلاً من قرية شَعَب، هاجم مناضلو شَعَب اليهود في القرية وأخرجوهم بالقوة وسيطروا على المعركة ثانية).

تمركز اليهود في ميعار وعلى «التركيب»، وهو اسم قمة الجبل الذي تقوم شَعَب على سفحه، (وقد شبهوا فيما بعد موقع التركيب من شَعَب، بموقع مغدوشة من عين الحلوة في جنوب لبنان، ويذكر أن علو شَعَب عن سطح البحر هو ١٠٠ متر، فيما يبلغ علو ميعار التي تقع خلف التركيب ٢٧٥ متراً، ما يعني أن التركيب، الذي هو أعلى من ميعار، أعلى من شَعَب بأكثر من ١٧٥ متراً)، ومن التركيب تحكموا بالداخل إلى شَعَب والخارج منها وبأزقتها وطرقاتها وأبواب بيوتها وشبابيكها، وتحكموا بالحنّانة، حيث بئر الماء والناعورة المقامة عليه، وقد أصبحت الحالة في شَعَب جحيماً لا يطاق، هذا بالنسبة للمسلحين أما النساء والأطفال والكبار والصغار فكانوا مشتتين في الأحراش وتحت الزيتون في القرى المجاورة بعيداً عن مرمى النيران. كانت شَعَب مسرحاً يومياً للرماية بالهواوين والراجمات والرشاشات الثقيلة. فكانت تصيب الكلاب والقطط والبهائم الأمر الذي جعل شَعَب تبدو كأنها بؤرة للجيف، وامتلأت القرية بأسراب الدبابير التي كانت تقع على الجيف المنتنة، مما جعل التحرك فيها مغامرة وأي مغامرة، فإذا نجا من رمايات العدو لا ينجو من الدبابير وروائح الجيف الكريهة. (كتب نجيب الطيار في مفكرته، الخميس ٢٢ تموز – جرت محاولات لاحتلال قرية ميعار من الجيش والمناضلين ولم تُجدِ نفعاً).

عندما بلغت الحالة هذه الدرجة من السوء، حتى الحصول على الماء من الحنانة صار مغامرة خطرة، حيث إن الرشاش الثقيل مسلط من التركيب ومثبت عليها ليلاً نهاراً، وقد قتل الكثير من البقر الذي كان يأتي ليشرب من ران الحنّانة الجاف، فكان الرامي اليهودي لا يستثني أية دابة من الرماية القاتلة، قال بعض المقاتلين ذات يوم متسائلين: لماذا لا نحاول إبعاد اليهود من الإشراف على القرية فنطردهم عن ظهر التركيب ونستطيع التحرك في القرية نحن وأهلنا الذين كانوا يأتون ليأخذوا ما يحتاجونه من التموين وغيره إلى حيث هم في البرية بعيداً عن مرمى النار، وأن نستعمل الحنّانة فنشرب نحن وطروشنا التي لم يعد لها مورد ماء! واتفقوا وكان الوقت الضحى على أن يبدأوا بمهاجمة التركيب. وهذه كانت رمية من غير رام، جاءت دون تخطيط ودون معرفة بالتخطيط العسكري، حيث أن الجيوش إما أن تشنّ الهجوم في المساء فيكون القتال ليلياً، وإما في الصباح فيكون القتال نهارياً، أما أن يكون القتال في وقت استرخاء القيلولة فهذا ما ليس في تخطيط القتال.

وبالفعل بدأوا الهجوم، وتنادى جميع المقاتلين إلى هذا الهجوم المفاجئ، فاجتاحوا الاستحكام الأول المطلّ على القرية المجهز برشاش ثقيل، وقتلوا الرامي وجرّوه إلى تحت

الاستحكام حوالي مائة متر، وغنموا الرشاش، ومن ثم طاردوا العدو في الخنادق والاستحكامات المترادفة حسب التخطيط العسكري النظامي واستمروا في المطاردة حوالي الثلاثمائة متر، حتى واجهوا المصفحات اليهودية التي كانت متمركزة على الطريق العام الذي يعبر ميعار ويتجه إلى الشرق وصولاً إلى سخنين وسهل البطّوف، فتوقفوا عند تلك النقطة، لأنهم لا يملكون السلاح الذي يواجهون به المصفحات، وثبتوا فيها يصدون هجمات اليهود المعاكسة ثلاثة أيام كاملة. (كان لكاتب النص فضل في هذه المعركة ولم يرد ذكره هنا، ولكن المعلومات التي استقيتها من بعض المشاركين علمت أنه كان أول من تمكن من الوصول إلى مستوى الاستحكام من جهة اليمين، وهو الذي منع اليهود من سحب الجثة عبر إطلاق النار الكثيف على من حاول ذلك. ثم صعد المقاتلون إلى الاستحكام وغنموا الرشاش وألقوا الجثة باتجاه القرية، فإذا هي جثة العقيد سيجيف).

ولما كان الوقت هو وقت الهدنة الثانية التي فرضتها هيئة الأمم على الجيوش العربية، فقد جاء ضباط يطلبون وقف القتال من اليهود ومن أبو إسعاف المسؤول في شَعَب، وكان وقف القتال فرصة واستغلها أبو إسعاف لأنه كان يعرف أن المقاتلين بحاجة للراحة بعد قتال ثلاثة أيام بلا زاد حيث أن البعض أكل ورق التين والدوالي من شدة الجوع.

أما اليهود فقد أصروا على أن يعودوا إلى مراكزهم التي كانوا فيها قبل بدء القتال. لذلك تم الاتفاق بين أبو إسعاف وضباط الهدنة على أن يسلمهم المنطقة في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي، ولكن اليهود أرادوا استرداد المنطقة قسراً قبل حلول الموعد.

فحشدوا لهجوم ليلي ومهدوا له بالقصف الشديد من مختلف صنوف الأسلحة، الرشاشات الثقيلة والهواوين والراجمات، وقد بلغ القصف من الشدة بحيث يحسب المرء أنه لم تبقَ رقعة من الأرض بحجم الطبق إلا وسقطت فيها قنبلة.

تحت هذا الوابل من القصف انسحب المقاتلون الذين كانوا في أسوأ حال من الإنهاك والتعب والجوع، وعادوا إلى القرية. وكان في أثناء المعركة أن دبت الحمية في حوالي عشرين جندياً من جيش الإنقاذ المتمركزين على طلعة الليات، فتركوا مواقعهم والتحقوا بالمعركة خلافاً لأوامر قيادتهم.

وعندما ساد الهدوء وسكت القصف، جمع أبو إسعاف المقاتلين وأخبرهم باتفاقه مع ضباط الهدنة، وأن اليهود يحاولون أن يستردوا المنطقة التي خسروها بالقوة قبل الموعد المحدد بيننا وبين ضباط الهدنة، لذلك يجب أن نحتفظ بالمنطقة حتى صباح الغد، حتى لا نخسر ماء وجهنا أمامهم، وأما من جهتي لا أريد أن أعطي أمراً لأي واحد منكم بالصعود إلى التركيب، بل أريد أن يتقدم الراغبون بالصعود من تلقاء أنفسهم، فتقدم عشرة مقاتلين على التوالي من تلقاء أنفسهم (أخبرني بعض الشهود أن كاتب السطور موسى مطلق كان أول من قدم نفسه لذلك وكان صغيراً، فطالب أخوته باستبداله بأحدهم، إلا أن أبو إسعاف رفض نزولاً عند رغبة موسى الشاب). عند ذلك قال أبو إسعاف يكفي عشرة الآن، والعشرين جندياً من جيش الإنقاذ،

وكانـوا بقيادة رجل منهم اسـمه أبو شـلاش، للصعـود والتمركز قبل أن يسـتكمل اليهود احتلال التركيـب، وعندمـا تتمركز هذه القوة ترسـل أحد أفرادها فيصعد باقـي المقاتلين للتمركز، مهما كلـف الأمـر، حتى الصباح. فصعدت هذه القوة المشـكّلة من ثلاثين رجلاً بقيادة أبو شـلاش (من جيـش الإنقـاذ) وأحد الأفراد العشـرة الذين هم من حامية شَـعَب، ووجـدت أن اليهود يتقدمون ببـطء شـديد، وإنهـم لم يبلغوا بعد الاسـتحكامات المشـرفة على شَـعَب، فتجاوزتها واصطدمت باليهـود وكانـت معركة ليلية على أشـد مـا يكون من الحمـاوة، وتقهقر اليهود حتـى وصلوا إلى مصفحاتهم على الطريق العام.

هنـا، وكان الفجر على وشـك الانبلاج، تفقدوا الذخيـرة المتبقية معهم فتبين أن أكثر واحد فيهم معه عشـرون طلقة، فأرسـلوا أحد أفراد شَـعَب ليبلغ أبو إسـعاف بأن المنطقة أصبحت في أيدينا، وعليه يجب إرسـال النجدة والذخيرة لأن ذخيرتنا على وشـك النفاد. ولكن المرسـال بدلاً من أن ينزل إلى مكان القيادة في القرية، وقف على قمة التركيب المشرفة على شَعَب ونادى بأعلى صوته مخبراً بالرسـالة التي كان عليه أن يخبر بها همسـاً، وقد سـمع اليهود كما سـمعت شَـعَب هذه الرسالة، فشنوا هجوماً معاكساً كاسحاً تمكنوا من خلاله استرجاع المنطقة قبل ساعتين من موعد تسـليمها لضباط الهدنة. وهكذا حفظ اليهود ماء وجههم وخسـرت شَـعَب ماء وجهها في نهاية هذه المعركة المجيدة.

وقد خسـرت شَـعَب ثلاثة من أبنائها البررة هم: محمد أحمد عبد الله (الدلة) ومصطفى الصفي وسعيد أحمد طافش.

أمـا الجنـدي اليهـودي الذي تم سـحبه إلى تحـت الاسـتحكام بحوالي مائة متـر (العقيد سـيجيف)، فقد ظل في مكانه ولم يجرؤوا على الاقتراب منه والنزول إليه وحمل جثمانه، حتى أخذوه بواسطة ضباط الهدنة صرّة من العظام.

(كتـب نجيـب الطيـار فـي مفكرتـه، ٤ أيلـول – اجتمـاع بضباط الهدنـة بشـعب.. واليهود يقصفون بالمدافع. ٥ أيلول – اليهود يستفزون الشعور، هجوم الحامية. ٦ أيلول-..حول ميعار. ٧ أيلول – رجوع إلى الاستحكامات).

المقدم عامر حسك، وهو ضابط عراقي، تسلم قيادة لواء جيش الإنقاذ الموجود في الجليل، فـي أثنـاء جولتـه على تفقد مراكز قواته، جاء إلى شَـعَب، مع أنه ليس لـه جنود فيها ولكنها في الخط الأمامي الأول في موقعها، فأبدى إعجابه بشـجاعة المقاتلين الذين يصمدون للعدو وهم تحته، ومما قال: أنا بكل اللواء الذي أقوده لا أبيت ليلة واحدة تحت العدو.

وكان بعـد ذلـك، وبمسـاع قـام بها أبو إسـعاف مع فـوزي القاوقجي قائد جيـش الإنقاذ، أن أمـر بصـرف التموين العسـكري لثلاثمائة في شَـعَب. (يقول نجيب الطيار فـي مفكرته أن فكرة الالتحـاق والتموين كان هـو أول مـن طرحهـا على المقدم علي شـقير من جيـش الإنقاذ، وتمت الموافقـة عليهـا، وذلـك في ٢٠-٩-١٩٤٨. وقدم الجيـش المؤن إلى مائة وخمسـين وليس ثلاثمائة، غيـر أن هنـاك إشـارة أخرى إلى مـؤن إضافية ينبغي هنا الإشـادة بصاحبها، وهـو المطران حكيم

الذي أصبح فيما بعد البطريرك مكسيموس الخامس حكيم). وتبعاً لذلك فقد شكّل أبو إسعاف لاحقاً سرية نظامية من المقاتلين سمّاها سرية صلاح الدين. أما الاسم الذي شاع وذاع فكان اسم: حامية شَعَب.

وقد عاشت حامية شَعَب حياة قاسية تحت العدو، حتى إن جبهة شَعَب كانت الجبهة الوحيدة غير الملتزمة بالهدنة، وظلت هكذا في اشتباكات يومية، ليلاً ونهاراً، حتى ٢٩ تشرين الأول من عام ١٩٤٨، حيث انسحب جيش الإنقاذ إلى جنوب لبنان، فانسحبت حامية شَعَب في إثره، وانتهت بذلك فترة من القتال كانت مجيدة ومشرفة، إلى مأساة التشرد واللجوء الذي ما زال شَعَب فلسطين كله يعاني منه أيّما معاناة.

ومن الجدير ذكره باعتزاز كبير، أن عائلات شَعَب التي كان بينها من الخلافات والتقاتل والثارات ما كان، قد تغيرت تغيراً يدعو إلى الإكبار والإعجاب، فقد تناست خلافاتها كأنها لم تكن، واتجهت بكليّتها إلى مقاومة العدو، فكان في الاستحكام الواحد ينام المطلوب للثأر في حراسة صاحب الثأر، وكأنهما أخَوان ولدتهما أم واحدة.

قراءة في الرواية الصهيونية لمعارك المنطقة

لم أكن لأطرق هذا الباب بعد الذي نشره «المؤرخون الصهاينة الجدد» أمثال بني موريس وغيره، حول فضائح الرواية الصهيونية لتلك الحرب، وكيف أخفت الدوائر الرسمية حقيقة «حرب الاستقلال» عن الرأي العام، واكتشاف ما ارتكبته من مجازر يتم الآن الإفراج عنها بواسطة رسائل الماجستير والدكتوراه، وأشهر هذه الفضائح اعترافهم بمجزرة الطنطورة، بعد إنكار دام خمسين عاماً، حيث انهارت بين الصهاينة الأكذوبة التي بناها قادتهم حول عصاباتهم، وأذاعوها في الغرب، وهي أكذوبة «طهارة السلاح». إلا أنني وجدت ما يؤيد هذا التكتم والتضليل الإعلامي، لذلك سوف أنقله هنا.

لم يتطرق كتاب حرب فلسطين[١٣] إلى تفاصيل معارك هذه المنطقة، بل لم يأتِ على ذكرها، إلا أن أوراق بن غوريون (أول رئيس وزراء في الكيان الصهيوني) أشارت في غير مكان إلى هذه المعارك وعبر برقيات كانت تصله من ساحات المعركة، وشرحها محرِّرًا كتابه. وليس ذلك غريباً، إذ أننا لم نجد تفاصيل المعارك الميدانية حتى في كتبنا، اللهم إلا تلك المأخوذة من شهادات النازحين يوم النكبة، كنافذ نزال وروز ماري صايغ.

ففي كتابه «يوميات الحرب ١٩٤٧-١٩٤٩»[١٤] يذكر أنه في ١١-٦-٤٨، «نفذنا الهجوم في غربي الجليل»[١٥]، ويضيف في الحاشية «سيطرت قواتنا خلال هذه المعارك على البروة (أحيهود) شرقي عكا». وهنا أول طمس في الموضوع، فهو لم يرِد أن يشير متى استولوا على البروة بل يشير متى بدأ الهجوم، حيث أن استيلاءهم عليها تم عند ظهر اليوم التالي ١٢-٦، حيث كان يفترض أن تكون الهدنة قد بدأت صباحاً. وقد طالبوا في المفاوضات باستعادتها بحجة أنها كانت معهم قبل

الهدنة، إلا أن طلبهم رُفض لأنهم احتلوها بعد بدء الهدنة.

وكتب بن غوريون في صفحة ٤٣٤[١٦] «احتلت قواتنا البروة (حالياً – أحيهود) مرة أخرى. كابد العدو خسائر في الأرواح، منها ٥٠ قتيلاً. عُطلت ثلاث مصفحات (لمن؟). ودُمّر مدفعان وهاونات ٣ (لمن؟) خسائرنا ٢٤ إصابة». وقد علق محررا الكتاب في حاشية الصفحة نفسها بالتالي: «هاجمت قوة من جيش الإنقاذ، بالاشتراك مع محليين، خلال الهدنة، في ليلة ٢٣-٢٤ من الشهر، وحدة حراسة كانت تستولي على قرية البروة في الجليل الغربي، وأجبرتها على الانسحاب. واحتُلّت القرية مرة أخرى في ليلة ٢٤-٢٥ من الشهر. الخسائر التي وردت أعلاها كابدها العدو».

من الواضح أن بن غوريون أراد أن يُبهم صورة الوضع والخسائر فذكرها في صيغة المجهول، إلا أن المحررَين «أكدا» أنها خسائر العرب. ولنا أن نلاحظ أن جيش الإنقاذ انسحب من القرية قبل أن يحتلها العدو ثانية، فلم يكن في القرية مصفحات لحظة سقوطها الثاني الذي لم يكن في ٢٥-٦ كما ذكر بن غوريون، فمعلوماتها تفيد أنهم «استردوها» في أول هجوم يومها، ولكنهم ارتدّوا عنها لأكثر من يومين، وسقطت ثانية في ٢٨-٦.

ولكن الخسائر كلها كانت ثلاثة شهداء فقط لا غير كما أشرنا سابقاً، ومن دون خسارة آليات وأسلحة ثقيلة، بل كسبوا منها الأسلحة (راجع البيان بأسلحة حامية شَعَب في مكان آخر من هذا الفصل).

وأشار إلى معركة ميعار، في ٦-٩-١٩٤٨، «هذه الليلة هجوم قوي على استحكاماتنا في المغار (هكذا) قتل أربعة من رجالنا، تم الاستيلاء على بعض استحكاماتنا، سنستعيدها الليلة»[١٧].

وقد أشار المحرران إلى هذه المعارك في حاشية الصفحة: «في ليلة ٥-٦ أيلول/سبتمبر، هاجمت وحدة تابعة لجيش الإنقاذ الاستحكام ٢٤٨ من شمال قرية المغار (شمال مستوطنة سيغيف حالياً)، ومن جنوب شَعَب، ومن شرق خليج زوفولون، وسقط الاستحكام. وحتى ٧ من الشهر، احتل اللواء ٧ هذا الاستحكام ثانية، كما احتل استحكامات أخرى شرقي الطريق، وكذلك من شماليه، ومن جنوب – غرب مجد الكروم».

الوحدة التابعة لجيش الإنقاذ، خرجت عن أوامر القيادة وتوحدت مع حامية شَعَب، وعددهم لا يزيد عن ٢٠ رجلاً بقيادة الحموي السوري «أبو شلاش»، وقد أشار موسى مطلق إبراهيم إلى هذا تحت عنوان «معركة ميعار» في التفاصيل الميدانية التي كتبها قبل بضعة صفحات من هذا الكتاب. كما يلاحظ القارئ أن اليهود قد أقاموا مستعمرة في هذا المكان باسم سيغيف، الصهيوني الذي قتل وبقيت جثته في المنطقة حتى آخر يوم، والذي قيل إنه عقيد. وأن العدو اعترف في هذه المعركة بسقوط أربعة قتلى لم يستطع مقاتلو شَعَب ورجال أبو شلاش إحصاءهم تحت الرصاص والظلام.

نساء شَعَب

لم تكن أهمية دور نساء شَعَب بأقل من دور رجالها، وقد عمل كل منهم في مجاله، وقد شهد على ذلك الغريب قبل القريب، وهذا ما ذكره لنا موسى مطلق إبراهيم في النص الذي كتبه عن الحامية:

«لا بد هنا من ذكر هذه الواقعة ذات الدلالة العالية. كان المقاتلون غير مجهزين بتجهيزات الجنود من مزودة ومطرة ماء، إذ كان المقاتل يحمل سلاحه وذخيرته فقط، فكانت نساء شَعَب يحملن الزاد وجرار الماء على رؤوسهن ويلحقن بالمقاتلين تحت النار، وهن منتصبات القوام مرفوعات الرؤوس يسقين العطاش ويطلقن الزغاريد، وكنّ حافيات لا يأبهن لوعورة الأرض وأشواكها (في الوقت الذي كان فيه المقاتل ينخّ على ركبته في وضع قتال). وكان بين رجال جيش الإنقاذ المرابط على الليات ضابط عراقي يدعى النقيب جاسم، وكان بالإضافة إلى واجباته العسكرية يراسل إحدى الصحف في بغداد يزوّدها بأنباء القتال، قال إنه كتب يومها إلى الصحيفة التي يراسلها، بعد وصفه مجريات المعركة: إن نساء شَعَب الحافيات يستأهلن أن يلبسن أحذية من ذهب. وكتب ذلك لفرط إكباره وتأثره بما رأى».

وكان أكثر من اشتهر من نساء شَعَب بنشاطهن كل من خضرا الشيخ خليل شقيقة أبو إسعاف، ونجمة الدلة والدة الشاعر الفلسطيني يوسف حسون.

فقد كانت هاتان السيدتان تقومان بأعمال الدعم اللوجستية كعمل منتظم ضمن الحامية. وقد ساهمت معهنّ بعض النساء، فكنّ يملأن الماء ويضمدن الجراح ويساعدن الرجال أيما مساعدة. وكانت (تنكات) الماء تلمع على رؤوسهن فيصوب اليهود بنادقهم ويطلقون النار عليهن وعلى اللمعان (وكان اللمعان أحد أهم الأهداف، كما كان يحدث مع حملة البنادق الفرنسية).

ولا زال الكثير من أهل البلد يذكرون وقفة نجمة الدلة عند الحنانة وهي تزغرد وتغني الأغاني الحماسية لرجال البلد الذين كانوا يركبون شاحنة صغيرة متجهين للنجدة في معركة أبو مسنسل، بين هوشة والكساير.

كما ذكرت أم شوقي (نعمات ماهل الخطيب) التي كانت في السابعة من عمرها، أنه أثناء معركة شَعَب، نزل من المعركة أحد الشبان ومعه بندقيته عائداً إلى البلد، وكانت تقف خضرا الشيخ خليل عند أول البلد من جهة ميعار، وعندما رأته عائداً نازعته بندقيته، وكانا يتصايحان، فقالت له: إذا بدك تقاتل قاتل، ولكن إذا بدك تهرب، لا تهرّب بارودتك، هاتها وأنا بدي أقاتل فيها.. فما كان من الشاب إلا أن عاد إلى المعركة.

وقد ذكر لي بعض أبناء القرية رواية عن الشاعر يوسف حسون أنه ذهب إلى أمه ليخبرها باستشهاد أخيها محمد أحمد العبدالله (الدلة) في معركة ميعار، فادعى أن ابن عمته مات، فبكت بكاءً مراً وانتحبت، ففاجأها بسخريته الهادفة قائلاً: على علمي إنك مناضلة وتعلّمين الناس النضال، كيف تقبلين على نفسك النحيب هكذا؟ فكفكفت دمعها وقالت: معك حق، وهذه معركة لا يجوز فيها البكاء على الشهداء، فقال لها: إذن تحضري للخبر، فقد استشهد أخوك

محمد. فاحتسبته عند ربه وقالت: أنا كان عندي سبب واحد لأسقي المقاتلين في معارك الدفاع عن البلد، والآن صار عندي سببان، وسأسقي أيضاً عن روح أخي الشهيد.

وقد شهدت انتفاضة الأقصى ظاهرة أمهات الاستشهاديين وتأثيرهن الكبير على أولادهن، فإن هذا التأثير ليس جديداً في تاريخ النضال الفلسطيني. فقد شهدت حامية شَعَب دوراً مهماً للنساء من حيث دعم أبنائهن في نضالهم، وإن لم يكن بالمقدار ذاته.

فعندما انتهت معركة البروة، وقام الرجال بواجبهم لأكثر من يومين، تركوا عدداً من رجال القرية (يمثلون كل عائلات شَعَب) لحماية الأرض المحررة من البروة، وعاد الباقون إلى شَعَب. وكان ممن عاد منها القائد الميداني في الحامية مصطفى الطيار، الذي وصل إلى البيت منهكاً وتمدد نائماً نوماً عميقاً.

وعندما هاجم اليهود قرية البروة ثانية وقامت الفزعة في القرية، قامت والدته لتوقظه، وكان صعباً أن يصحو، ولكنها أصرت عليه أن يقوم مع الفزعة «لأنه مش معقول الناس رايحة حاطّة روحها على كفها وإنت نايم». ودفعت ولدها إلى القتال في البروة وهي لا تعلم إن كان سيعود حياً أم ميتاً.

أما فيما يخص الذخيرة، فقد كانت طريق إحضار الذخيرة صعبة جداً. فكان أبو إسعاف ونجيب الطيار يحضرانها من الخارج، وفي الغالب من دمشق. وقد أحضر نجيب الطيار في رحلته الأولى إلى دمشق ٤٠٠٠ طلقة فشك، وفي الرحلة الثانية ٣٠٠٠ طلقة. وكان يستلم هذه الذخائر بعد طول انتظار، كما أن بعضها لم يكن صالحاً للاستعمال، وكان يأكله الصدأ.

فكانت مهمة بعض نساء القرية فرك هذه «الفشكات» بالسَّكَن (الرماد) وتنظيفها، مع ما يرافق ذلك من خطرٍ لقلة الخبرة، ثم بعد ذلك كنّ يحملن الذخائر أثناء القتال إلى المواقع القتالية. وكان لحلوة السليمان دور مهم في دعم صمود رجال الحامية.

وروت الحاجة أم هاني (سعاد صالح حسين) كيف أنها بسن الرابعة عشرة كانت تحمل صندوقاً من القنابل، وكيف أن رجال الإنقاذ الذاهبين لدعم معركة ميعار نبهوها إلى إمكانية انفجارها إذا لم تنتبه لها جيداً.

من شهادة سليمان كمال عبد المعطي لنافذ نزال:[١٨]

«ريم محمد الحاج أسعد أرادت العودة إلى القرية لتحضر بعض حاجياتها الشخصية، وبعض المؤن لأطفالها المقيمين في حقول القرية. حاولنا منعها ولكنها لم تستمع.. أصرّت على الذهاب، حتى لو كلفها ذلك حياتها. كان لديها الشجاعة والتصميم لتدفعنا إلى تشكيل قوتنا ومهاجمة اليهود.. وقد خسرنا عدداً من أهل القرية.. واستعدنا قريتنا».

لقد كان إصرار ريم أحد أهم الأسباب التي حفزت رجال القرية على الهجوم مجدداً واسترجاع القرية وتحريرها.

هذه هي نساء شَعَب، بل هذه هي نساء فلسطين، بل هذه هي فلسطين، الأم الولود التي لم

ينضب رحمها عن إنجاب الأبطال، ولم يتأخر صدرها عن تبنّي جهادهم وتغذيتهم، والتي تفرح أرضها أيما فرح باستعادة شهدائها إلى بطنها الدافئ الحنون.

الترتيب الزمني للأحداث

٢٥-٤-١٩٤٨: سقوط حيفا بيد اليهود.

أوائل أيار ١٩٤٨: وصول أبو إسعاف من ليبيا، وإحضاره أسلحة كانت قد جلبها لحيفا.

١١-٥-١٩٤٨: سقوط صفد بعد الهجوم عليها بيوم واحد.

١٣-٥-١٩٤٨: سفر نجيب الطيار إلى لبنان.

١٥-٥-١٩٤٨: يوم النكبة وتكريس الوجود الصهيوني في فلسطين.

١٨-٥-١٩٤٨: سقوط عكا بعد الهجوم عليها بيوم واحد، عناصر البوليس وأهل شَعَب المقيمين بعكا التحقوا بقريتهم. (طريق عام عكا – صفد يمر بالقرب من شَعَب).

٥-٦-١٩٤٨: عودة نجيب الطيار من لبنان.

١١-٦-١٩٤٨: بدء هجوم ليلي يهودي على البروة (١١:٣٠ ليلاً) بهدف احتلالها قبل حلول موعد الهدنة في اليوم التالي.

١٢-٦-١٩٤٨: سقوط البروة عند الساعة ١١ ظهراً. أي بعد حلول موعد الهدنة. والارتداد عن مجد الكروم.

١٢-٦-١٩٤٨: حلول هدنة الأربعة أسابيع.

٢٣-٦-١٩٤٨: تحرش يهود البروة بقرية الدامون.

٢٤-٦-١٩٤٨: التعدي على المزروعات لقرية شَعَب من قبل اليهود، ونشوب معركة مع أهاليها.

٢٥-٦-١٩٤٨: استعادة البروة ليلاً بعد دحر العدو منها وأخذهم غنائم عديدة منها.

٢٦-٦-١٩٤٨: محاولة اليهود استرداد البروة. وارتداد العدو عنها ثانية.

٢٨-٦-١٩٤٨: استولى اليهود ثانية على البروة، وتدخل الوسيط، والسماح للأهالي باستئناف حصادهم.

٣٠-٦-١٩٤٨: البريطانيون يسلمون ميناء حيفا لليهود، وبدء دخول الذخائر علناً.

١٠-٧-١٩٤٨: استئناف القتال.

١٢-٧-١٩٤٨: سقوط سعسع.

١٤-٧-١٩٤٨: سقوط صفورية.

١٦-٧-١٩٤٨: سقوط الناصرة.

١٨-٧-١٩٤٨: احتل اليهود الدامون الساعة ٤:٤٥. وبعد حلول موعد الهدنة بساعتين ونصف هاجم اليهود قرية شَعَب وميعار، ودخلوا ميعار الساعة ١١:٣٠ ليلاً، وتشردت شَعَب.

١٩-٧-١٩٤٨: دمر اليهود قرية ميعار و١٢ منزلاً من شَعَب. وانشق الضابط أبو شلاش من

جيش الإنقاذ مع مجموعة من الشباب الحمويين، والتحقوا بحامية شَعَب.

٢٠-٧-١٩٤٨: هاجم رجال حامية شَعَب قريتهم وأخرجوا اليهود منها، إلى استحكامات التركيب وميعار.

٢٢-٧-١٩٤٨: بدء معركة ميعار ومحاولات استرجاعها، واحتل رجال الحامية وفرقة أبو شلاش من الإنقاذ التركيب وأسروا جثة العقيد سيغيف.

٣-٨-١٩٤٨: نجيب الطيار يقابل الوسيط وتقديم التقرير حول تعديات اليهود. وسوء تفاهم يؤدي إلى اعتقاله من قبل جيش الإنقاذ حتى ٨-٨-١٩٤٨.

١٠-٨-١٩٤٨: سافر نجيب الطيار إلى دمشق.

٢٧-٨-١٩٤٨: عاد من دمشق ومعه ٤٠٠٠ طلقة فَشَك.

٤-٩-١٩٤٨: اجتماع بضباط الهدنة بشعب.. واليهود يقصفون بالمدافع.

٥-٩-١٩٤٨: اليهود يستفزون الشعور، هجوم الحامية.

٦-٩-١٩٤٨: معارك حول ميعار.

٧-٩-١٩٤٨: رجوع إلى الاستحكامات وقصف يهودي شديد.

١١-٩-١٩٤٨: سفر أبو إسعاف ونجيب الطيار إلى دمشق.

١٣-٩-١٩٤٨: سفر أبو إسعاف إلى مصر.

١٧-٩-١٩٤٨: عودة نجيب إلى شَعَب (إحضار ٣٠٠٠ طلقة فشك إنجليزي).

٢٠-٩-١٩٤٨: سفر نجيب إلى بيروت والاجتماع بالمقدم شقير (أدى هذا الاجتماع إلى اعتبار رجال الحامية ممن يستحقون صرف المؤن كجنود الإنقاذ، وتم صرف ١٥٠ حصة، يضاف إليها حصص من المطران حكيم. كما أدت إلى الاتفاق على فكرة التحاق الحامية بجيش الإنقاذ على أن يكون لهم سريّة مستقلة).

٢٣-٩-١٩٤٨: عودة أبو إسعاف من مصر.

٢٨-٩-١٩٤٨: اجتماع ثان مع المقدم شقير بحضور أبو إسعاف. وتبني المتفق عليه سابقاً.

٢٩-٩-١٩٤٨: رجوع أبو إسعاف إلى شَعَب.

٣-١٠-١٩٤٨: اجتماع ثالث في السادسة مساء مع المقدم شقير في لبنان.

٢٢-١٠-١٩٤٨: سفر نجيب صباحاً إلى دمشق بعد سهرة تنسيق مع أبو إسعاف.

٢٨-١٠-١٩٤٨: تسليم جثة العقيد سيغيف بعد مائة يوم من احتجازها.

٢٩-١٠-١٩٤٨: عودة نجيب من دمشق مع الذخيرة.

٢٩-١٠-١٩٤٨: انسحاب جيش الإنقاذ ومعه الحامية، أخذ أبو إسعاف ومصطفى الطيار معهم الذخيرة إلى بنت جبيل، وهناك صودرت منهم.

٣٠-١٠-١٩٤٨: الحامية مع جيش الإنقاذ في عين إبل لثلاثة أيام.

٢-١١-١٩٤٨: الحامية مع جيش الإنقاذ في بيت ياحون، وبدء توافد اللاجئين من شَعَب إلى جامع بيت ياحون، ورجال الحامية يوزعون عليهم الطعام.

١٣-١١-١٩٤٨: التحرك إلى التلال المشرفة على رميش.

وهكذا انتهى العام على الحامية وهي في المنطقة، وتحاول أن تفعل شيئاً، ولكن همّ استقبال الوافدين من فلسطين، وتأمين المؤن والأغذية أخذ معظم وقتها وجهدها. وانطوت صفحة مجيدة من تاريخ النضال الفلسطيني اسمها حامية شَعَب، لتفتح صفحة اسمها سرية صلاح الدين في فوج اليرموك.

الحامية خارج فلسطين

بعد وصول الحامية إلى لبنان، تم جرد أسلحة الحامية في بدايات العام ١٩٤٩، على أساس تقييم السريّة، إلا أن النتيجة بانت بعد أشهر قليلة، وتحديداً في ٢٥ أيار حيث صودرت أسلحة الحامية كلها. وفيما يلي نتيجة جرد الأسلحة.

بيان بأسلحة حامية شَعَب:[١٩]

وقد كان لدى حامية شَعَب كمية من الأسلحة والذخائر، يضم ما يلي باختصار:

مدفع مضاد للدبابات: ١

مدفع هاون ٢ بوصة: ١

رشاش تومي١٢: ٣

رشاش ستن ٩: ١

رشاش ألماني: ٤

رشاش إنجليزي: ٢

رشاش أف.أم.: ٢

٨٣ بندقية تتوزع على الشكل التالي:

بنادق إنجليزية: ٣٧

بنادق ألمانية : ٣٣

بنادق فرنسية: ١١

بنادق الأف.أم: ٢

وتتوزع تفاصيل الأسلحة على الشكل التالي:

الأسلحة الثقيلة:

١- مدفع ألماني ٢ بوصة هاون (II43315): غنيمة من العدو في معركة ميعار ٥-٩-٤٨، جلبه حسن أسعد سعد الدين ونمر خليل الأحمد من رجال الحامية.

٢- فيكرز ألماني (0245): غنيمة من العدو في معركة ميعار ٥-٩-٤٨، جلبه جنود من الإنقاذ (أبو شلاش) ومحمد أحمد الخطيب وصالح إبراهيم الحاج أسعد من رجال الحامية.

٣- رشـاش ألمانـي (C/C3580): غنيمـة من العدو في معركة البـروة٢٤-٦-٤٨، جلبه علي ابن احمد المحمود ونواف البدوي (من ميعار ويعرف باسم أبو غليون).

٤- رشـاش ألمانـي (dot 3897): غنيمـة مـن العدو فـي معركة ميعار فـي ٥-٩-٤٨، جلبه علي حسين شحيبر.

٥- رشـاش ألمانـي (dot 9168): غنيمـة مـن العدو في معركـة البـروة ٢٤-٦-٤٨، جلبه خليل محمد العبد.

٦- رشاش أف. أم (A36513): مصادر من رميش بحادث جرى مع الجندي علي الحاج عبد.

٧- رشاش أف.أم (C19332): جلبه أبو إسعاف من ليبيا.

٨- برِن إنجليزي (LE.24775): في عهدة حامية شَعَب من أهالي مجد الكروم.

٩- مدفع مضاد (D2451): جلبه أبو إسعاف من ليبيا[٢٠].

الرشاش الخفيف:

١- ستنجن 9 (1298) Stenn Gun: ملك إبراهيم الحاج علي أبو إسعاف.

٢- توميجن 12 (S582178) Tommy Gun: ملك محمد رشيد فاعور.

٣- توميجن 12 (24437) Tommy Gun: ملك إبراهيم الحاج علي أبو إسعاف.

٤- توميجن 12 (16373) Tommy Gun: ملك إبراهيم الحاج علي أبو إسعاف.

البنادق:

انتبـه إلـى أن التالـي هـو عدد البنـادق وليس عـدد رجال الحاميـة، فقد كان يتنـاوب على البندقيـة أفـراد العائلة والأصدقاء، كما أن الكثير من رجال الحامية لم يلتحقوا بالسـرية التي تم إحصاء بنادقها[٢١].

الرقم	رقم التربـاس	رقم السبطانة	نوعها	الملاحظات حول الاستعمال والملكية
١	C3746	L 5958	ألمانية	ملك إبراهيم الحاج علي - أبو إسعاف
٢	L3455	E 9574	ألمانية	ملك إبراهيم الحاج علي - أبو إسعاف
٣	T 1721	T 1721	ألمانية	ملك إبراهيم الحاج علي - أبو إسعاف
٤	CC 6787	D 2373	ألمانية	ملك إبراهيم الحاج علي - أبو إسعاف
٥	O 1397	O 1397	ألمانية	ملك إبراهيم الحاج علي - أبو إسعاف
٦	N 7873	A 1285	ألمانية	ملك إبراهيم الحاج علي - أبو إسعاف
٧	1434	611	ألمانية	ملك حسن أحمد عبد أسعد
٨	M 595	M 4921	ألمانية	ملك إبراهيم الحاج علي - أبو إسعاف
٩	N 310	D 3832	ألمانية	نجيب الطيار
١٠	C/ 1140	C 1110	ألمانية	نجيب الطيار

١١	بلا رقم	بلا رقم	ألمانية	مصطفى الطيار
١٢	N 5084	T 7094	ألمانية	مصطفى الطيار
١٣	R 5697	B 4633	ألمانية	نجيب الطيار
١٤	A 3927	GL 1277	ألمانية	علي عوض الناصر
١٥	T 5964	L 463	ألمانية	نايف مطلق حميد
١٦	X 1722	X 8126	ألمانية	ظاهر عبد علي
١٧	U 7418	U 7415	ألمانية	أمين توفيق فاعور
١٨	D 4334	D 4334	ألمانية	يوسف الشيخ خليل
١٩	7236	7236	ألمانية	ظاهر أحمد مصطفى
٢٠	B 3	E 9999	ألمانية	عبد المالك فاعور
٢١	G 2997	M 8942	ألمانية	محمد يوسف حرب (لبناني الأصل من بنت جبيل)
٢٢	Z 5160	Z 5160	ألمانية	عادل سعيد فاعور
٢٣	832	R 1283	ألمانية	خليل محمد العبد
٢٤	K 9054	7607	ألمانية	عبدالله مصطفى المنصور، ملك منيب فاعور
٢٥	6405	6405	ألمانية	فياض موسى محمد
٢٦	1525	5231	ألمانية	أحمد عبد اللطيف، ملك حسن حسين علي الصالح
٢٧	D 897	D 1771	ألمانية	محمد أمين الشيخ محمد
٢٨	G 4930	T 6211	ألمانية	أحمد إبراهيم أسعد
٢٩	بلا رقم	بلا رقم	ألمانية	أحمد عيسى الشاعر
٣٠	A 730	D 5743	ألمانية	إبراهيم علي العسكري (أبو عرب)
٣١	R 5223	K 4008	ألمانية	سعيد حسن ميعاري
٣٢	H 1627	6842	إنجليزية	طه اليوسف، ملك محمد عبد أسعد
٣٣	T 6107	T 6107	إنجليزية	أخذها صاحبها
٣٤	R 6640	R 6640	إنجليزية	محمد إبراهيم الحاج حسن، ملك أحمد السليمان
٣٥	B 4033	B 4033	إنجليزية	محمود الميعاري، ملك خالد يوسف
٣٦	A 4874	A 4874	إنجليزية	مصادرة لدى القيادة
٣٧	G 1633	G 1633	إنجليزية	ملك مصطفى الطيار
٣٨	W 58578	W 58578	إنجليزية	ملك مصطفى الطيار
٣٩	A 97474	MR 9722	إنجليزية	حسن حسين عباس
٤٠	R 43308	R 43308	إنجليزية	كمال فضل الرشيد
٤١	X 72065	R 41896	إنجليزية	رشيد مطلق إبراهيم
٤٢	---	Q 7289	إنجليزية	محمود رشيد حمزة
٤٣	52780	S 1926	إنجليزية	يونس مطلق إبراهيم
٤٤	R 1079	R 1079	إنجليزية	حسين سعيد الأمين
٤٥	G 69192	G 69192	إنجليزية	ملك علي الحاج سعيد
٤٦	RE 39364	RE 339364	إنجليزية	ياسين الحاج عبد
٤٧	H 82648	H 82648	إنجليزية	ملك كمال احمد حسين

٤٨	L 8042	L 8042	إنجليزية	علي محمد طه، ملك سعيد حسن المحمود
٤٩	Q 6196	Q 6196	إنجليزية	شاكر يوسف أحمد، ملك صالح محمد الأمين
٥٠	6685	6685	إنجليزية	خالد يونس خالد
٥١	RE 10410	---	إنجليزية	سعيد أسعد الغضبان
٥٢	G 19772	G 19772	إنجليزية	علي احمد سليمان
٥٣	33821	---	إنجليزية	سعيد نمر السعيد، ملك محمد مصطفى محمد
٥٤	L 9878	L 9878	إنجليزية	خليل أمين الشيخ
٥٥	V 1514	V 1514	إنجليزية	موسى مطلق إبراهيم
٥٦	M 10322	V 75185	إنجليزية	نمر محمد الأمين
٥٧	S 3559	S 3559	إنجليزية	محمد الحاج توفيق
٥٨	880	X 72261	إنجليزية	إبراهيم أحمد معطي
٥٩	A 1004	A 1004	إنجليزية	علي صالح عبد الهادي
٦٠	K 96989	K 96989	إنجليزية	يوسف الشيخ يوسف
٦١	E 8523	E 8523	إنجليزية	علي الحاج عبد حمزة، ملك محمد فياض حمزة
٦٢	بلا رقم	بلا رقم	إنجليزية	محمد الحاج أسعد داوود
٦٣	E 27285	E 27285	فرنسية	نجيب أحمد أسعد، ملك سعيد عودة
٦٤	61396	S 1893	فرنسية	فضل مصطفى المنصور، ملك إبراهيم فياض الشيخ محمد
٦٥	A 20469	L40415	فرنسية	أحمد مطلق حميد، ملك إبراهيم الحاج أسعد
٦٦	K 72724	K 72724	فرنسية	رشيد أبو عرب، ملك عبد محمد الشحادة
٦٧	L 70704	L 70704	فرنسية	كمال علي الحاج
٦٨	R 90874	R 58463	فرنسية	عبد الرؤوف الشيخ خليل
٦٩	R 55543	R 55543	فرنسية	محمد توفيق أحمد
٧٠	Q 8347	D 46744	فرنسية	حسين مصطفى عيد
٧١	P 54980	T 54980	فرنسية	داوود صالح محمد
٧٢	A 99210	R 34583	فرنسية	كمال سليمان عبد المعطي
٧٣	83015	---	أف. أم	سعيد صالح عبد الهادي
٧٤	8351	8351	إنجليزية	سليمان إبراهيم أسعد
٧٥	826	154477	ألمانية	سعيد حسن عباس، ملك محمد رشيد فاعور
٧٦	F 544	R 5329	ألمانية	علي مصطفى الشيخ علي
٧٧	B 10151	Z 19	إنجليزية	حسن سعيد أحمد
٧٨	---	H 29703	إنجليزية	علي أحمد المحمود
٧٩	H 2976	H 2976	إنجليزية	إبراهيم ياسين فاعور، عهدة مصطفى الطيار
٨٠	D 465554	ERA445554	إنجليزية	فضل حمد الخطيب، عهدة مصطفى الطيار
٨١	B 7558	B 7558	فرنسية	منصور عبد منصور
٨٢	223340	12340	أف.أم	عمر محمد عبد الحليم
٨٣	V 7670	V 7670	إنجليزية	ركاد صالح حسن، ملك حسن فياض حسن

جيش الإنقاذ في قضاء عكا

وقد توزع لواء اليرموك الأول في المنطقة بحسب التقسيم الذي تم للمنطقة، كما جاء في كتاب خالد علي فلاح «الحرب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٤٩ وتأسيس إسرائيل»:[٢٢]

«..بالنظر لوضع المنطقة الطوبوغرافي هذا، فقد قسمت إلى أربعة قواطع شغل كل قاطع منها قسم من قوات لواء اليرموك الأول على الشكل التالي:

١- قاطع مجد الكروم وشعب أشغله فوج اليرموك الثاني وجماعة أبو إسعاف من أهالي شَعَب بإمرة الرئيس كمال كانوكا.

٢- قاطع سخنين أشغلته سرية الملازم محسن يعش من فوج اليرموك الثاني.

٣- قاطع كفرمندا وكوكب وعيلبون وسبانة أشغله فوج اليرموك الرابع بإمرة وصفي التل.

٤- قاطع ياقوق وكفر عثمان والسموعي أشغله الفوج اللبناني ناقص سرية..».

ولإحقاق الحق لا بد من التوضيح أن عناصر ورتباء جيش الإنقاذ تعرضوا لظلم كبير من قبل أهالي المنطقة الذين ألقوا اللوم عليهم، غير أن الأمر بالانسحاب كان أكبر منهم وكان يبدو كأن أمراً دُبِّر بليل يدور في أوساط القيادات السياسية العربية، بل إن بعض القادة الذين تلقوا أوامر الانسحاب أخفوا الأمر عن جنودهم، لأنهم لم يكادوا يصدقوا، ولم يتخذوا أي تدبير تجاه هذا الأمر، إلى أن تلقوا أوامر شفهية صارمة. وقد بدا واضحاً مما ذكره شهود عيان أن بعض جنود جيش الإنقاذ كانوا يجهشون بالبكاء لدى تلقيهم أوامر الانسحاب.

وفي هذا الموضوع، سألت الأستاذ ممدوح رحمون[٢٣]؛ أحد رموز العمل القومي، وكان من المقربين لقائد جيش الإنقاذ، فوزي القاوقجي، الذي كتب مذكراته وأوراقه وروى فيها هذه الأحداث.

قال رحمون: ما الذي يجبر رجلاً مثل القاوقجي على المجيء من ألمانيا للقتال إلى جانب الفلسطينيين، وتحدث عن مؤتمر درعا ١٩٤٧، وهو المؤتمر الذي تمت فيه مؤامرة تنصيب (الإنكليزي!) غلوب باشا قائداً على الجيوش العربية بإصرار من الملك عبدالله. وأن القاوقجي منع أكثر من مرة من الدخول إلى فلسطين. وفوزي القاوقجي مجاهد شارك في ثورة رشيد عالي الكيلاني في العراق، وتعرضت مجموعته للقصف بالطيران في دير الزور، وأصيب هناك وأحضر إلى حلب حيث حملته طائرة فرنسية تابعة لحكومة فيشي إلى ألمانيا للعلاج. ويقول الأستاذ ممدوح أن من لا يعرفه عن قرب ينقاد في هرج الشتّامين، ولكن حقيقة الأمر أن القيادة السياسية العربية هي التي فرطت بفلسطين وتسببت بالكارثة، وأن القاوقجي بقي في منزله بالشياح في ضاحية بيروت يقول هذا الكلام حتى وافته المنية فقيراً.

وهذا الكلام يؤكده أكثر من شخص عاصر تلك الأحداث. ففي شهادة كمال سليمان عبد المعطي لنافذ نزال[٢٤]:

انضم إلى حامية القرية خمسة عشر عنصراً من جيش الإنقاذ، بقيادة أبوعلي العراقي،

حيث قرروا ترك مراكزهم والانضمام إلى حامية القرية.

وهـذا ما أكدناه في معارك الحامية، والصحيح أنهم عشـرون، كمـا أن مدافع جيش الإنقاذ ومصفحتهم كان لها الأثر الكبير في النصر الذي تم تحقيقه مرتين في البروة.

لإلقـاء نظـرة عامة على الوضع وأسـباب الانسـحاب المهزلة الذي قام بـه جيش الإنقاذ في المنطقة، يمكن الاطلاع على التقرير الذي رفعه قائد اللواء، وفيه:[٢٥]

نظرة عامة

١- كان اللـواء يشـغل منطقـة لواء الجليل على شـكل قـوس دائرة في مجد الكروم وشـعب وسـخنين وكوكـب وكفرمندا وعيلبـون وياقوق وكفرعنان والفرادة والسـموعي، وهـذه المواقع تقع علـى مدخل الطرق الرئيسـية التي تأتي من مراكز عسـكرية يهودية مثل عـكا والناصرة وطبريا وصفد ومنطقة الحولة.

٢- صد اللواء هجمات عديدة شـنها اليهود قبل هجومهم الأخير على جميع مواقعنا تلك وأوقعنا فيهم خسـائر كبيرة في الأرواح والمعدات.. ومن جراء ذلك انخرط الكثير من شـباب هذه المنطقـة فـي صفـوف قواتنا كجنود، فضلاً عن التشـكيلات التي أخذت تتألف على شـكل سـرايا محلية مثل سرية أهالي شَعَب بقيادة أبو إسعاف وغيرها[٢٦].

٣- تلقـى منتسـبو اللـواء أمر الانسـحاب بدهشـة عظيمة لضيـاع هذه المنطقـة المهمة من الناحية الأدبية والمادية والعسكرية. خاصة وهي منطقة مهمة يمكن أن تتخذ قاعدةً للهجوم على اليهود فيما بعد لقربها من مواقعهم العسكرية ومراكزهم المهمة، وقد أشرت إلى هذه الأهمية في مناسبات وتقارير سابقة، وأخيراً في محادثاتي الصباحية يوم التاسع والعشرين من أكتوبر ١٩٤٨ مع سعادتكم وسعادة الزعيم حسني الزعيم رئيس أركان الجيش السوري.

٤- لا يملك اللواء من وسـائل النقل في جميع وحداته غير ثماني سـيارات تعطل معظمها في أول مراحل الانسحاب، ولعدم وصول السيارات التي وعدتمونا بها ولبعد المسافات بين مواقع الوحدات والمواقع الجديدة التي خصصت لها لم تتمكن هذه الوحدات من الوصول إلى مواقعها في الوقت المناسب.

٥- سـقطت سعسـع في ليلة ٢٩/ ٣٠ من الشـهر العاشر، وسـقطت ترشيحا صباح ٣٠/ ١٠ ولا تزال معظم وحدات اللواء تسير على الطريق بين الراما وسحماتا، فاضطر البعض منها إلى شق طريقه بالقتال والبعض الآخر إلى تجنب الطريق العام وتسـلق التلال في شـرقي سحماتا. وفي هذه الحالة لقد أسدت مدفعية القدسي وسرية عبد المجيد من الفوج اللبناني وفصيل اليرموك الرابع مساعدة جلّى في تسهيل عبور بعض القطعات من مفرق سحماتا.

٦- لقـد اخترنـا منطقتي رميش وعـين إبل داخل الأراضي اللبنانيـة محلاً لتجمع وحدات اللـواء، وقـد وصلـت بصورة متجمعة ومنفردة إلـى محل التجمع في ٣٠ و٣١ تشـرين الأول وهي

منهوكة القوى من السير المتمادي وطول المسافة التي تتراوح بين ٦٠ و٧٠ كيلومتراً، خاصة وقد قطعت المسافة سيراً على الأقدام في حراجة مثل هذه.

٧- تعتبر عملية الانسحاب من أصعب العمليات العسكرية ولا سيما انسحاباً إجبارياً مثل هذا، وقد أجرى لواء اليرموك الأول هذه العملية بشكل لا يقل عن شكل الانسحاب الذي تجريه القوات النظامية ذات التدريب العالي إن لم يكن مثله، ويعود الفضل في ذلك إلى آمري الفوج وإلى الضباط القليلي العدد.

٨- لو تم تأمين الأربعين سيارة لاستطاع اللواء القيام بهجوم مقابل ميرون وشق طريق انسحابه وإحباط هجوم اليهود في الوقت نفسه. وربما كان ذلك يؤدي إلى تغيير الموقف إلى صالحنا.

٩- لو تدخل الجيش السوري بالهجوم من الشرق باتجاه صفد والجيش اللبناني من الشمال على جانب الأرتال اليهودية المتقدمة من نهاريا وعكا نحو ترشيحا لتغير الموقف أيضاً لصالحنا.

وأخيراً، أرفع لسعادتكم تقريراً بالخسائر في الأرواح والأسلحة..».

شهداء شَعَب عام ١٩٤٨

وقد سقط لشَعَب عدة شهداء في عام النكبة، وفي مناطق مختلفة وأساليب متنوعة. وقد بلغ عدد الشهداء حوالي ثلاثة وعشرين شهيداً توزعوا على احتلال القرية الأول ومعركتي البروة وميعار ومجزرتي مجد الكروم والعائدين إلى القرية، يضاف إليهم ما يناهز سبعة عشر شهيداً من المسنّين غرقوا في مجزرة وحل زبوبا. أن مجمل عدد الشهداء بلغ حوالي أربعين شهيداً سقطوا أثناء النكبة.

عند احتلال شَعَب الأول، حيث نزل إليها اليهود من ميعار المشرفة عليها، وأقاموا فيها ثلاثة أيام، قام اليهود بقتل بعض كبار السن الباقين في القرية، وكان ذلك بين ١٩-٢٠ تموز ١٩٤٨، وعند ساعة الإفطار في رمضان، فقتلوا كلاً من:

١- زهرة الموسى (الشيخ محمد).
٢- أبو الوحش حسين العلي (الخوالد).
٣- الحاجة آمنة الخالد.

عندها أقام المدنيون من أهل القرية في البعنة والدير ومجد الكروم. وبدأت تدور لقاءات واجتماعات بين أهل شباب القرية في القرى المجاورة إلى أن قرروا الهجوم، وحرروها من اليهود وبدأ السكان يعودون لجلب حاجياتهم. فيما تمركز اليهود على التلال المشرفة على القرية من جهة ميعار. وبدأوا يقنصون على القرية.

واستشهد بالقنص من التركيب كل من:

٤- فاطمة صالح الموسى (الحاج علي).

٥- فاطمة سعيد حميّد.

٦- حسين حميد.

وقد استشهد في معركة البروة كل من:

٧- كايد محمد سليم أبو الهيجا.

٨- مصطفى الحاج عبد حمزة.

أما في معركة ميعار فقد استشهد كل من:

٩- محمد أحمد عبدالله دلة (ذكر عارف العارف في كتاب النكبة- الجزء السادس أنه سقط في معركة حيفا في ١٩٤٨/٤/١٨، والصحيح أنه سقط في معركة ميعار).

١٠- سعيد أحمد طافش.

١١- مصطفى الصفي.

وفي مجد الكروم ارتكب العدو مجزرة ذهب ضحيتها تسعة رجال وامرأتان، وكان بين الرجال ثلاثة من شَعَب، وبين النساء امرأة وهم:

١٢- لطفية علي العايشة، كانت في بيت تحضر العجين وتلقت رصاصة من قناص.

١٣- محمد العرابي (وكان له ولد عمره ١٢ يوماً فقط، خرج مع أمه في النكبة وسكن في مخيم برج الشمالي في صور جنوب لبنان).

١٤- محمود محمد طه الخطيب.

١٥- علي أسعد عبد الشيخ محمد.

ونقل د.سلمان أبو ستة في تقريراً لضابط من مراقبي الهدنة يروي فيها وقائع شهادات من مجزرة مجد الكروم، ويذكر فيها أن عدد الشهداء من رجال شَعَب أربعة، غير أن ذلك يعود إلى خلط في الأسماء لصاحب التقرير، وقد لوحظ اختلاف الأسماء بسبب الترجمة كما ذكر أبو ستة في نهاية اقتطافه للشهادة (التقرير). فقد ذكر التقرير الذي أغفل اسم (لطفية على العايشة) أسمَي شهيدين لشخص واحد هما: علي أسعد عبد أسد وعلي محمد أسعد.. [٣٧]

وخروج الناس متفرقين جعل جمع عدد الشهداء صعباً، فهناك مجموعة خرجت عن طريق سحماتا وقصفتها الطائرات الإسرائيلية فقتل فيها:

١٦- أمين حميد، وجرحت ابنته التي ما زالت حتى اليوم يظهر أثر الإصابة في مشيتها.

وحين قيل للناس أن النزوح سيكون لبضعة أيام، خرجت الناس بما خفّ حمله وغلا ثمنه، ولما طالت رحلة النزوح، بدأ الناس يعودون إلى القرية لجلب الحاجيات التي لم يظنوا أنهم سيحتاجونها، وعاد بعضهم حين قيل إن اليهود يعطون بطاقات لمن يريد أن يستقر. وكان العدو يقتل البعض ويلقي القبض على البعض الآخر، وكان يلقي بمن يعتقلهم في منطقة نابلس.

وقد استشهد من العائدين كل من:

١٧- محمد عبد الرزاق الخوالد (أبو لافي).

١٨- محمد عبد عباس.

١٩- يحيى محمد الحاج أسعد فاعور.

٢٠- عطا محمد الأسدي.

٢١- سعيد رشيد الشيخ محمد (رعيدي).

٢٢- محمد أسعد خزنة الخوالد.

٢٣- محمود الخوالد (أبو فخري)، قتله اليهود في القرية لأنه كان ينتعل البسطار (حذاء عسكري يهودي)، وكانت قد جرت العادة أنه كلما قتل أحد من اليهود كان يتم سلب حاجياته ويغنمها من يأخذها، ويبدو أن أبو فخري لم يكن يدرك الأمر جيداً، وحين رآه اليهود قتلوه. بالإضافة إلى الذين قضوا في مجزرة زبوبا..

مجزرة زبوبا وشهداؤها

أما في وحل زبوبا فقد قتل العدو عشرين من كبار السن، وأنقل هنا ما كتبه إلياس خوري في روايته باب الشمس بين الصفحات ٢٢٦-٢٢٨، مع الإشارة إلى أن بعض الأسماء مستعارة، ولم يكن كل الذين سقطوا فيها من الرجال:

..

يومها اتخذ أبو إسعاف القرار، وقال ننسحب، الجميع ينسحب، نبقى وحدنا، هذا لا يجوز، قال ننهزم ثم نعود.

قلت له إننا إذا انهزمنا فلن نعود.

وانسحبنا. كل المقاتلين انسحبوا بأسلحتهم.

لكن الكهول رفضوا الانسحاب.

قال حسين فاعور، الذي سيموت بعد ذلك في وحل زبوبا، خذوا سلاحكم واذهبوا، نحن سنبقى في قريتنا، لن يستطيعوا أن يفعلوا بنا شيئاً، نحن اختياريّة، ولن يستفيدوا من قتلنا.

لكنهم قتلوهم.

.. دخل الضابط الإسرائيلي إبراهام، وأمر الجميع بالتجمع قرب البركة، وقف فيهم متفقداً، كأنهم طابور عسكري. حتى الحاج موسى درويش، المقعد أمر بجلبه من بيته، الحق على زوجته. الزوجة قالت للضابط الإسرائيلي إنها تركت زوجها في البيت لأنه مقعد، أخبرته عن زوجها، لأنها خافت أن يقوموا بنسف البيوت، كما فعلوا في البروة. أمرها الضابط بجلبه، قالت إنها لا تستطيع حمله وحدها، تطوع رجل لمساعدتها، لكن الضابط شهر بندقيته في وجهه وقال لا. تذهب وحدها. وعادت وهي تجرجر زوجها على الأرض، كانت تبكي وتجرّه. المرأة تجرّ رجلها، والضابط يبتسم مزهواً بنفسه، رأينا أسنانه البيضاء، كانت أسنانه بيضاء بشكل غريب، وحين أوصلت المرأة زوجها أمام الضابط، شخر الحاج موسى درويش بصوت مرتفع، تدفق الماء الأسود من فمه، ومات.

الضابط لم يرَ، كأنه لم ير موت الرجل. فبدأ ينتقي الرجال بإصبعه. من تقع عليه الإصبع، عليه الذهاب إلى الجهة الثانية. انتقى حوالي عشرين شيخاً، ثم رفع إصبعه نحو أبو يونس الأعمى. لم ير الرجل الأصبع، فشهر الضابط مسدسه. صرخت أم يونس، لا، وتقدمت نحو زوجها وقادته إلى حيث الباقون، وعادت إلى مكانها ثم جاءت شاحنة، أمرهم الضابط بالركوب..

انقطعت أخبار الرجال العشرين الذين أركبتهم إصبع الضابط في الشاحنة، إلى حين ظهور مروان فاعور

في الأردن، ومروان فاعور هو الوحيد الذي نجا من مذبحة الوحل، كما سنسميها فيما بعد.

روى مروان فاعور عن المطر.

«كان المطر كثيفاً، والشاحنة تسير تحت المطر. وصلنا إلى زبوبا قرب جنين، وعند الحدود الأردنية، أنزلونا من الشاحنة، وأمرونا بالعبور إلى الجانب العربي، وبدأ إطلاق النار فوق رؤوسنا».

كانت مسيرة المطر والموت والوحل.

الوحل يغطي الأرض، والمطر كالحبال. برد وظلام وخوف. عشرون رجلاً يمشون، ينزلقون، يتمسكون بحبال المطر المدلاة من السماء، ويقعون. يحاولون النهوض، يلتصقون بالوحل.

عشرون رجلاً يتعلقون بحبال المطر، نشيج وسعال، ومحاولات مشي وانزلاق والتصاق بالوحل.

صار الوحل مثل الصمغ.

التصقوا بالأرض، سقطوا وابتلعهم صمغ الوحل.

وبدأت خيوط الماء الهابط من السماء، تصبح وحلاً.

وبدأ الموت.

وهكذا مات رجال شَعَب في مذبحة الوحل، التي جرت في تشرين الثاني ١٩٤٨[٢٨].

يشير أهل القرية كما قال في الرواية مروان فاعور، أنهم أجبروا الشيوخ والعجائز على السير في السهل الموحل، وبدأوا بإطلاق النار عليهم كي لا يحاولوا العودة إلى فلسطين، وأنه مات من أهل القرية عشرون شخصاً، منهم:

١-حسين فاعور.

٢- مصطفى فاعور.

٣- عبدالله إسماعيل الخطيب.

٤- حلوة الناصر (فاعور).

٥- خزنة عبد الحليم (حسين).

٦- عائشة المنصورة (الأسعد).

٧و٨- الشقيقتان من آل شحيبر آمنة الحسنا وخزنة الحسنا.

٩- فاطمة المسلمانية.

١٠- محمد الخليل (كان حادي القرية).

١١- عبد محمد الخطيب.

١٢- محمود ياسين فاعور (مات قرب جنين، ولكن من غير المؤكد أنه كان ضمن ضحايا مجزرة زبوبا).

١٣- حشيش (أم علي عبد الجليل).

١٤- محمد أيوب.

١٥- نفيسة أيوب.

١٦- أمينة الخطيب.

١٧- زهرة الشاهينة (الأسعد).

وينقل نافذ نزال شهادة نمر أيوب في مخيم برج البراجنة عن الحادثة:

«بقي أهل نمر أيوب في القرية تحت الاحتلال الإسرائيلي حتى كانون الأول/ديسمبر ١٩٤٨. إبراهيم الفارس وزوجته[٢٩] بقيا معهم حتى الدقيقة الأخيرة. وقد أخبروا نمر أيوب أنه في أحد الأيام أمر الاحتلال كافة القرويين (بمن فيهم أهل نمر) ليصعدوا في شاحنة مكشوفة. وقاد العدو الشاحنة بالقرويين تحت المطر إلى قرية زبوبا، قرب جنين. وعندما وصلوا الحدود، أمرهم اليهود أن يعبروا إلى الجانب العربي. كان الكثيرون من القرويين مرضى لدرجة أنهم لا يستطيعون المشي، فتركوهم تحت المطر. ولا أحد يعرف ماذا حصل لوالد نمر»[٣٠].

طرق النزوح

سنترك الحديث عن المعاناة في طرق النزوح للشهادات الملحقة بالكتاب، ولكننا هنا نثبت هذه الطرق لتكوين صورة واضحة عن صعوبة الطرق (راجع ملحق الخرائط).

١- طريق الحامية: اختصرت الحامية طريقها بعد البعنة، بعبورها طلعة المَحوز، وهي طريق صعبة على غير الشباب المدربين نفذوا من خلالها مباشرة إلى قرية كسرة دون المرور بقرية دير الأسد ليتجنبوا الوقوع بيد اليهود. ثم وصلوا إلى البقيعة، وقطعوا شارع سعسع باتجاه الحدود اللبنانية إلى رميش.

٢- لا يلتقي خط النزوح الثاني بخط الحامية إلا في مكانين، في قرية البعنة ثم في قرية كسرة، حيث يسير هذا الخط في طريق أسهل، فيصل إلى قرية البعنة من قرية مجد الكروم، حيث كان يقيم بعض أهل البلد أثناء المعارك. وينطلق إلى قرية دير الأسد، ثم قرية كسرة، فقرية كفر سميع، فسحماتا، إلى دير القاسي، ثم وصلوا إلى رميش، حيث التقوا بمعظم نازحي الجليل. وهذا الطريق سلكه أيضاً نازحو قرية البروة.

٣- أما الخط الثالث، ففيما عدا قرية البعنة، لا يلتقي بالخطين السابقين إلا في لبنان. فينطلق من البعنة باتجاه نحف، سجور، الرامية، ويقطع طلعة الجرف (جبل صعب التسلق)، ليصل إلى بيت جن، ويقطع مسافة طويلة من بيت جن عبر وادي الحبيس إلى حرفيش، ومن هناك يقطع شارع سعسع إلى الحدود اللبنانية الفلسطينية، حيث يلتقي باقي النازحين في رميش.

٤- في اتجاه معاكس تماماً، قامت الشاحنات اليهودية بحمل عدد من عجائز القرية باتجاه جنين، حيث غرق هؤلاء في وحل زبوبا.

العودة إلى القرية

بعد سقوط شَعَب لم تنته القضية، بقي هناك اللاجئون في وطنهم وعددهم ٥٧٤ تفرقوا على القرى، والمطاردون في أرضهم، وقد تحدث الناس عن قصة فخري محمود الخوالد كنموذج

للمطاردين من المتبقين، الذي لم يستطع الانسحاب من القرية مع الحامية، لعدم وصول أمر الانسحاب إليه، بسبب تفرق أفراد الحامية في المواقع، وأطبق اليهود الطوق على القرية، وبقي متخفياً في منازلها، وقتل اليهود والده كما ذكرنا سابقاً، إلى أن استطاع الخروج من القرية والانسحاب فيما بعد.

كما أن قصة سعيد صالح عبد الهادي (الأسدي)، الذي حيّر اليهود لعودته عدة مرات، ومداهمة اليهود لمنزل أهله أكثر من مرة، وذلك لسبب طريف، وهو أن زوجته منيرة كانت تحمل وتلد وهي في فلسطين وزوجها في لبنان، وفي الحقيقة إنه كان يذهب إلى هناك ويزور أهله دائماً. وكان يلجأ إلى مغارة قريبة من منزله مراقباً قدوم اليهود المفاجئ إلى بيته.

وعن قصة عوداته كتب إلياس خوري روايته «باب الشمس» وهو اسم المغارة التي كان سعيد صالح عبد الهادي يلتقي فيها زوجته في فلسطين.

كما أن موسى مطلق إبراهيم كان يزور فلسطين لعدة أسباب نضالية، وكان يحضر معه بعض حاجيات أصدقائه كالأوراق الرسمية من المنازل أو من مأذون البلد الشيخ رفيق الذي بقي في فلسطين، حيث كانوا كثيراً ما يحتاجونها بسبب بعض الإجراءات القانونية.

وكثيراً ما يتحدث أهل القرية عن بطولات وعمليات أبو نبيل محمود عبد السلام أبو الهيجا، الذي كان لا يعرف للهدوء طعماً، وكان لا يقيم في لبنان قدر إقامته في فلسطين، حيث كان يقوم بالعمليات العسكرية هناك.

مجزرة مجد الكروم [٣١]

توزع أهل البلد (أثناء وجود اليهود في ميعار) على القرى المجاورة.. وبقي الناس تحت الاحتلال في مجد الكروم..

سقطت بلدنا في الأول من تموز.. قبل أن تسقط البلد، رحت من البيت إلى الطابون أحضر الصواني. في تلك الليلة من رمضان طلعنا من البلد، ارتحنا في آخر الزتون ثم مشينا إلى «بير الخشب» وقعدنا حتى طلوع الشمس، وصلنا إلى مجد الكروم قبل الظهر، وأقمنا تحت الزتون في مجد الكروم، كنا ننزل إلى البلد (البلد كانت سقطت، ثم هاجمها رجال الحامية فخرج اليهود منها)، المسلحون كانوا موجودين في البلد، كنا ننزل بالليل نحضر حاجاتنا من طحين وعدس وزيت وفراش، وبقيت الحالة هكذا حتى تشرين الأول والبلد صامدة أربعة أشهر.

في ٢٩-١٠-١٩٤٨ سقطت الجليل من جهة الشمال الشرقي، وتركّز الهجوم على سعسع والصفصاف والجش، وقطع خط الإمداد، فخرج المسلحون مع جيش الإنقاذ من المنطقة.. ونسوا فرقتين في البلد من ضمنها أخي أبو علي (أحمد الخالد) في الكروم مقابل ميعار، كل فرقة من الفرقتين المتروكتين تتكون من ٢٥ نفراً تقريباً.

عند عودتهم للبلد أخبرهم عجائز البلد أن المسلحين انسحبوا، فقد ورد كلام عن ضابط

في جيش الإنقاذ «إن الجليل سقط.. أخبروا حامية شَعَب»، فوصل الخبر للحامية التي انسحبت فرقُها منفردة، لأنهم ظنوا أن الجميع قد وصله الخبر.. وانسحب المقاتلون إلى البعنة، وطلعوا على دير الأسد وشمّلوا حتى وصلوا على لبنان..

ثم عدنا إلى مجد الكروم وبقينا هناك واحتل اليهود البلد، ولم يقتلوا أحداً فيها، ولكن بعد شهر بدأ مسلسل الإرهاب الإسرائيلي، فقتلوا الناس في قرية نحف وفي الدير وفي مجد الكروم.

كنا جالسين في مجد الكروم، فجاء ابن خالتي (زوجة أبي) يطلب المفتاح من أمه ليحضر الفرشات من البيت في البلد. فأرسلت أمي معهم أختي الصغيرة نجمة معهم إلى شَعَب، فجاء أخي محمد (١٣ سنة)، فطلبت منه أمي أن ينزل لئلا تضيع نجمة على الطريق.. فقطع زتون مجد الكروم ووصل الوعر، طوّق اليهود مجد الكروم وظهر الطيران..

واعتقلت اليهود كل الرجال في مجد الكروم (مجادلة وغيرهم)، وجمعوهم عند العين.

ودخل البلدة (مجد الكروم) فاطمة ومحمود (محمد طه) وعلي أسعد عبد أسعد، مروا في الزتون ونَهَرهم اليهود في أرض سليخ (من دون شجر)، ولحقهم محمد وسمع الحديث أنهم سألوهم (من أين أنتم؟) فقال محمود: من شَعَب. فرفع اليهودي سلاحه ورشّ محمود وعلي أسعد في الطريق، فكانوا أول شهداء مجزرة مجد الكروم.

فقال محمد لنجمة: لا تقولي نحن من شَعَب، ورآه اليهود فنَهَروه وسألوه، فأجاب: من مجد الكروم، فسألوه أين كنت؟ فقال: كنا عند أشجار التين.. فتركوهما، ولما دخل البلد ووصل البيت نهرته الفرقة الثانية، وأوقفوه وأرادوا قتله، وتركوا نجمة..

فرفع اليهودي السلاح ليقتله، وفي آخر لحظة (في الوقت الذي وجه الفتى وجهه للقبلة منتظراً الرصاصة) جاء شخص يقول للجندي: أترك هذا الولد! وقال له اذهب إلى ذلك البيت، مشيراً إلى بيت تجمعت فيه نساء البلد، فدخل واختبأ بين النساء..

جمعوا الناس عند العين، وصار اليهود يختارون الشباب ويخرجونهم واحداً واحداً، ليقفوا عند حائط العين. وقد أخرجوا محمد العرابي وأبو معيوف (مجدلي، فتح مضافته لأبو إسعاف). فقتلوهم عند حائط العين ومعهم حوالي ١٥ شخصاً، ثم أطلقوا النار بكل الاتجاهات، وقتلت بهذا الرصاص لطفية علي العايشة وهي تعجن العجين.

وأثناء هذه البلبلة، تشاور الناس وهم تحت البنادق اليهودية عند العين، فقاموا جميعاً يصرخون: لا إله إلا الله.. لا إله إلا الله..

عندها نهرهم اليهود، فقالوا لهم: اقتلونا كلنا معاً بدل قتلنا واحداً واحداً، لا نريد هذه الحياة إذا كنا سنرى موتنا هكذا..

فأخذ اليهود كل الناس وجمعوهم بين بيتين ولغّموهما ليفجّروهما بالناس ويهدموهما بموت جماعي عليهم. في هذه اللحظات رأى شفيق أبو عبدو (سمسار أراضٍ من الدامون) ضابطاً يهودياً قادماً يعرفه فركض إليه وأخبره بما يجري، فأشار للناس أن يأتوا إليه، وما لبث أن انفجر

البيتان بعد خروج الناس منهما وأنهدما دون أن يتضرر أحد..(٣٢)

بعد ذهاب القوة اليهودية، أراد الناس دفن موتاهم، وكانت التربة (المقبرة) شرقي البلد عند الشارع الرئيسي، وكنا نقف نحن البنات – والكلام للحاجة أم أنور- حول القتيل (محمود)، وكانت تمر الفرق اليهودية قرب المقبرة، فيهرب الناس تاركين الشهداء مكشوفين في المقبرة، خوفاً من أن يكرر اليهود مجزرتهم فينا.. ولم ندفن الشهداء إلا بعد المغرب..

عند ذلك، لم يبقَ أحد في البلد، فقال أبي لأمي: ضبّي الأغراض والأولاد والبنات لنرحل، حيث اقترح أن نغيب عن البلد مدة خمسة عشر يوماً ثم نعود بعد أن تهدأ الأمور، فطلبت أمي منه أن تبقى هي وأخواتي نجمة وصبحية (أثناء حديث أم أنور تلقّت اتصالاً من فلسطين وكانت من أختها الصغرى، فقد كان عندهم مناسبة عائلية..)، وخرجت أنا وأخي محمد مع أبي على أساس أن نعود للبلد بعد خمسة عشر يوماً.. ولحد الآن ما زلنا نعيش في هذه الخمسة عشر يوماً، آآآآآآآآه.. ما أطول هذه الأيام!!!

خرجنا من مجد الكروم، من طريق البعنة، الدير، المحوز، كسرة، كفر سميع، شرقي سحماتا، شرقي دير القاسي، وادي الحبيس، ثم الحدود إلى رميش اللبنانية.

وإلى اليوم ما زلنا ننتظر.. فهل سنرى يوم عودتنا.. الله كريم..

* * *

(١) نجيب الأحمد: فلسطين تاريخاً ونضالاً، دار الجليل للنشر-عمان، ط١، آذار ١٩٨٥، ص ٥١٠.

(٢)عارف العارف: النكبة - نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود (١٩٤٧-١٩٥٢) - منشورات المكتبة العصرية – صيدا – بيروت – الجزء الثاني – الصفحات ٤٢٥-٤٢٦-٤٢٧.

(٣) التاريخ ليس دقيقاً، فالتاريخ الحقيقي لسقوط البروة هو ١٢ حزيران.

(٤) من الجدير ذكره هنا أن نسْب الأحداث إلى فوزي القاوقجي يقصد به جيش الإنقاذ، وليس القاوقجي بشخصه، بل إن القاوقجي لم يكن في هذه الأثناء في منطقة عكا، وكان مسؤولاً عنها المقدم عامر حسك.

(٥) محمود الكيال، مصدر سابق.

(٦) احتلها لواء كرملي الصهيوني.

(٧) من مفكرة الأستاذ نجيب الطيار.

(٨) علي الخالد (أبو أنور)، سجلناها في الجلسة الثانية في بيته في صبرا بتاريخ ٢٢-٦-٢٠٠٥. وهذا المقطع أدخلناه مع الذي يليه (هوشة والكساير) ضمن مقال موسى مطلق إبراهيم.. الذي يعود مقاله من مقطع (احتلال شَعَب).

(٩) دخلوا البروة في ٢٥ حزيران.

(١٠) مصدر سابق.

(١١) علي الخالد (أبو أنور)، سجلناها في الجلسة الثانية في بيته في صبرا بتاريخ ٢٢-٦-٢٠٠٥.

(١٢) جلسة في بيتها في وادي الزينة يوم السبت الواقع في ١٦-٧-٢٠٠٥.

(١٣) حرب فلسطين الرواية الإسرائيلية الرسمية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، ترجمة أحمد خليفة، نيقوسيا، قبرص، ١٩٨٤.

(١٤) ديفيد بن غوريون: يوميات الحرب ١٩٤٧ – ١٩٤٩، مؤسسة الدراسات الفسطينية، بيروت، ط١، أيلول ١٩٩٣.

(١٥) المصدر نفسه ص٣٩٧.

(١٦) المصدر نفسه.

(١٧) المصدر نفسه ص٥٤٦.

(١٨) مصدر سابق.

(١٩) من أوراق نجيب الطيار.

(٢٠) راجع قصة الذخيرة الليبية من كتاب فلسطين تاريخاً ونضالاً ضمن الملاحق، وفيه أيضاً عن معركتي البروة وميعار، الذي أعتقد أن فيه بعض المبالغة، كما يحتاج إلى الدقة في الأرقام والتواريخ.

(٢١) هذا الإحصاء لم يتم داخل القرية، بل تم في جنوب لبنان في بداية عام ١٩٤٩، وقد كتبها نجيب الطيار في مفكرته من باب التوثيق وليس التأريخ بين ١/٢٩ و٤٨/٢/٤.

(٢٢) فلاح خالد علي: الحرب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٤٩ وتأسيس إسرائيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص٢٨٩.

(٢٣) تم اللقاء في فندق كراون بالاس في بيروت، على هامش المؤتمر القومي العربي في ١٠-١٠-٢٠٠٢.

(٢٤) مصدر سابق ص٨٨.

(٢٥) فلاح خالد علي: الحرب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٤٩ وتأسيس إسرائيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص٣٠١-٣٠٢.

(٢٦) لمزيد من الدقة، فإن في بداية المواجهات حدث العكس، انشق عناصر عن جيش الإنقاذ وانضموا إلى الحامية، ولكن ما ذكره هنا تم فيما بعد.

(٢٧) سلمان أبو ستة، حق العودة مقدس وقانوني وممكن... المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ص١٤٣.

(٢٨) إلياس خوري: رواية باب الشمس، دار الآداب، ط٢، ١٩٩٨، ص٢٢٧-٢٢٨.

(٢٩) كان إبراهيم الفارس رجلاً مسناً وكان ضمن مجموعة المسنين الذين ألقوا في زبوبا، ولكن زوجته ببنيتها القوية استطاعت أن تحمله وتجتاز به وحل زبوبا والنجاة.

(٣٠) Nafez Nazzal - The Palestinian Exodus From Galelee 1948- Institution For Palestine Studies - 1978 - P90

(٣١) شهادة الحاجة فاطمة حسين طه الخطيب (أم أنور) في بيتها في صبرا بتاريخ ٢٢-٦-٢٠٠٥.

(٣٢) كانت الفرقة التي تقتل قادمة من صفد، والفرقة التي منعت القتل قادمة من عكا.

الباب الرابع
الملاحق والشهادات

الفصل الأول
مشاهدات حية من يوم النكبة

«..ومشينا عدة ساعات حتى وصلنا «سجور».. كنا خائفين، وكانت الطريق مليئة بالناس، حيثما نظرت.. كان الجميع في عجلة للوصول إلى لبنان..»

كمال سليمان عبد المعطي

«.. كانت الطريق مليئة بالمهاجرين، نساء وأولاد وأطفال وبهائم، الكل يتحرك صامتاً أو مولولاً نحو الشمال. المرأة لا تجد زوجها والولد بلا أمه».

نصر الأسدي

ارتأينا في هذا الفصل أن لا نجمع كل شهادات البلد مع أنها كثيرة، إلا أننا راعينا أولاً أن تكون تجربة الشخص مميزة.. وراعينا ثانياً أن نجمع شهادات عن كل الرحلات، فرحلات العذاب لم تقتصر على العائلات فقط، بل هناك قسم من المسلحين في الحامية. وقد كانت طرق الهجرة أربع طرق وليست طريقاً واحدة.

فصحيح أنها كانت رحلة النكبة واحدة، وسميت باسم واحد هو اللجوء، ولكنها حملت تحت مسماها مئات آلاف التجارب. وقد أوردت معظم الكتب المماثلة لمنهج كتابنا شهادات عن هجرة الفلسطيني ولجوئه والمرارة التي يعيشها في الغربة بعيداً عن وطنه، وليس فقط ما حدث في العام ١٩٤٨.

نعمات ماهل الخطيب (أم شوقي)[1]

مواليد شَعَب ١٩٤٠
شهادة خاصة للكتاب بخط يدها
من سكان لبنان - بيروت

كنت في سنة ١٩٤٨ ما بين الثامنة والتاسعة من عمري. في سنة النكبة، تلك السنة المشؤومة، حيث خرجنا من قريتنا شَعَب، ثم من فلسطين، أتذكّر أن رجال القرية ألّفوا فرقاً قتالية ليحموا القرية وأهلها من اليهود، حيث دارت معهم عدة معارك خارج القرية، وأخرجوهم أكثر من مرة من قرية البروة، ودارت المعارك أيضاً في قرية الدامون وقرية ميعار، حيث كانت هذه القرى محيطة بقريتنا.

وأتذكر أنه دخل القرية جيش من الدول العربية، وطلبوا من الجميع الخروج من القرية وقالوا إنهم هم الذين سيدافعون عن القرية، وأخرجونا منها عند المساء، حيث أقمنا في كروم الزيتون حتى الصباح. وبعد ذلك ذهبنا إلى قرية مجد الكروم المجاورة، وبعد أيام قليلة احتل اليهود كل فلسطين، وتفرغوا لمن تبقى في فلسطين، لينزلوا الرعب في قلوبهم، حيث جاؤوا بعد مدة بسيطة وحاصروا قرى مجد الكروم ودير الأسد والبعنة، وطلبوا من جميع السكان الخروج من البيوت والتجمع في مكان خارج القرية، وإذا بهم يجمعون الرجال وحدهم والنساء والأطفال معاً ويضعون حولهم الشريط الشائك.

اختار اليهود أحد عشر شاباً من الموجودين، وقتلوهم جميعاً، ثم أحضروا باصات وشاحنات، وبدأوا يحضرون الرجال وأمروهم قائلين لهم: كل واحد يحضر عائلته، ويدفعون الناس للصعود إلى الشاحنات، وقبيل أن يحلّ المساء تحركت السيارات ولا أحد يعرف إلى أين كانت ذاهبة بهم؟ وما هو المصير الذي ينتظرهم؟ وبعد أن قطعنا مسافة أخبرنا والدي أننا متجهون إلى الضفة الغربية، ووصلنا في الليل إلى مرج ابن عامر، فأنزلونا من السيارات وقالوا لنا اذهبوا عند الملك عبد الله، ومشينا مسافة كبيرة حتى تعبنا، وكان ذلك في فصل الشتاء، وكنا لا نملك إلا الثياب التي علينا، وقرر الناس أن نمكث حتى الصباح حيث وصل بنا المسير (ولم نكن ندري أين وصلنا بالضبط، وما الخطورة أو السلامة في المنطقة).

عند الفجر سمعنا صوت رجلين ينادون الناس: اطمئنوا أنتم في منطقة تحت سيطرة جيش عربي. وعند الصباح حضر ضابط من الجيش الأردني، ومعه آخرون من الجيش العراقي، وطلبوا منا أن ننتقل معهم إلى داخل الأرض التي يسيطرون عليها، فذهبنا معهم وكان العدد كبيراً، ولا أذكر بالضبط كم كنا، وجلسنا هناك تحت شجر الزيتون، وأحضروا لنا الخبز والتمر والماء، وعند الظهر نقلونا إلى مدينة جنين، ووضعونا في الجوامع والفنادق، وبقينا هناك عشرة أيام ثم نقلونا إلى مدينة نابلس، فوجدنا في جانب المدينة خيماً صغيرة محضرة مسبقاً فأسكنونا بها، وبعد أسبوع هبت عاصفة ثلجية عمت كل بلاد الشام (قيل فيما بعد أنها من أقوى عواصف القرن العشرين).

فـي هـذه العاصفـة، كرر اليهود مـا فعلوه بنا مع مـن تبقى من أهل البلد فـي مجد الكروم ومنهم الشـيوخ والنسـاء الذين بقوا في شَـعَب، فأحضروهم إلى مرج ابن عامر، وكان علو الثلج قد وصل إلى أكثر من متر، فلم يسـتطع بعض كبار السـن أن يمشـوا فيه، فمات أكثر من عشـرة أشخاص، أذكر منهم عمة والدي أمينة علي الخطيب، وبعد مضي أربعة أشهر قرر والدي وبعض أربـاب العائـلات الموجـودة معنـا الذهاب إلـى لبنان، حيث إن الأمـل كان كبيراً عنـد الناس بأنهم سـيرجعون إلى وطنهم بعد مدة، وحدود لبنان أقرب إلى قريتنا شَـعَب من حدود الضفة الغربية. واسـتأجروا خمسـة باصات توجهت بنا إلى الأردن، وعند جسر اللنبي لم يُسمح لنا بالدخول إلى الأراضي الأردنية، وبقينا في السـيارات يومين كاملين، وبعد أخذ وردّ سُـمح لنا بالدخول، فدخلنا إلى مدينة الزرقاء.

بقينـا في الأردن عشـرة أيام، أقمنا في مقهى لشـخص من مدينة القـدس، وبعد أن أتممنا المعامـلات، ذهبنـا إلى لبنان حيث توجهـت كل عائلة إلى المدينة أو القرية التي لها فيها أقارب، أو يسكن فيها أهل بلدتها، حيث كان هؤلاء الأقارب قد توجهوا إلى لبنان مباشرة.

في ذلك الحين، بحثنا عن أقاربنا، وتوجهنا إليهم حيث سكنّا في القرية التي كانوا يسكنون فيها في الجنوب اللبناني، إلى الجنوب من صيدا، وهي قرية الغازية.

سعاد أمين حسين حميد (أم علي) [٢]

مواليد عام ١٩٤٢

تاريخ المقابلة: ذكرى النكبة الـ٥٥؛ ١٥-٥-٢٠٠٣

مكان السكن: مخيم برج الشمالي - جنوب لبنان

قبل اشتعال المعارك في البلد، أخذَنا والدي إلى بيت جدي (سيدي أبو إمي) في سحماتا، وهو أسعد نمر موسى، على أساس أن سحماتا كانت أسلم لنا. أخرجنا والدي على فرس كانت عنده مع أختي وأمي وبعض أغراض المنزل.

كنت في الخامسة من عمري، وما أذكره قليل من كثير، تغيب بعض التفاصيل عن بالي إلا أني أذكر عندما بدأت الطائرات اليهودية تحوم في الأجواء، وأخذنا والدي وجدتي تحت التين في سحماتا، تركنا منزل جدي واختبأنا بين الأشجار، وكانت معنا (جميلة أسعد نمر موسى، وأختي نجية وكان عمرها ثلاث سنوات).

لا أدري سبب قصف سحماتا، لم تكن المعارك قد نشبت بعد، ربما حدث هذا في النصف الأول من عام ١٩٤٨. وعند القصف قُتلت جدتي على الفور (على الدخانة)، ولكن والدي -رحمه الله- لم يظهر منه سوى بعض اللحم المحروق. أما أختي فقد أصيبت في خدّها ورجلها، وأتت بها أمي إلى بيروت. أراد الأطباء قطع رجلها إلا أن توسُّلات أمي جعلتهم يعدلون عن ذلك، وأجروا عملية جراحية لها. ولم يكن لدى أمي مال، فعملت في المستشفى، وكانت تخدم وتنظف هناك لقاء بقاء ابنتها والعلاج.

وما زالت أختي حتى اليوم تعرج قليلاً (تاخذ من رجلها)، أما خدّها فقد تمزق يومها وبات الأكل الذي تأكله يخرج من خدها، وقد التحم خدها لاحقاً، وإن كان بعض أثر الجرح لا يزال بادياً عليه.

أما خالتي فقد أصيبت من الخاصرة إلى الخاصرة، ونتأت (مصارينها) من بطنها، لكنها لم تمت رغم إصابتها الخطيرة. فقد لفّوا وسطها (عصّبوا بطنها) بحطّة وأخذوها، وكُتب لها عمر جديد وبقيت حية.

لا أتذكر تفاصيل يوم الهجرة والخروج. أنا اليوم أرى مشاهد متفرقة فقط. كنت طفلة لا أعرف الطريق، قد أكون نِمْت أثناء الخروج، ولكني أذكر أننا أقمنا هنا في مسجد البرج الشمالي. ومما أذكره أننا التقينا مع أهل البلد هنا (يمكن أن نكون قد خرجنا مع أهل بلدنا عبر رميش وبيت ياحون.. إلى هنا، ولكن ما أذكر أننا تواجدنا هنا يومها..).

وهنا، في تلك السنة، حصّبنا (أنا وأختي وصبحي وصبحية وْشاح..)، وأذكر أننا يومها ببراءة الأطفال -رغم اللجوء والمصيبة- طالبْنا بحلوى الهريسة.

ثم علمنا أن أعمامي وعائلاتهم في عنجر، فنقلتنا أمي وخالتي (زوجة أبي) إلى هناك، واختلطت مسيرتنا بمسيرة الباقين، والتحمنا بأهل البلد من جديد.

في شَعَب من جديد

في السبعينات، ذهبت إلى فلسطين عن طريق الأردن، وتوجهت إلى شَعَب عند الأقارب، وأقمت هناك، وكنت أزور الأقارب في مجد الكروم والبعنة، كانت الكهرباء لا تزال على الموتور أو اللوكس، أما عندما ذهبنا في المرة الثانية عبر الناقورة -بعد عشر سنوات- كان الوضع قد تحسن كثيراً.

وجدنا في الزيارة الأولى، الكثير من غير أهل البلد، من الدوامنة (الدامون) المياعرة (ميعار) ومن عرب البقّارة والغنّامة، الذين قصد اليهود أن يخربطوا خريطة البلد بنقلهم إلى البلد بالقوة. وأسكنوهم على الطرق الرئيسية وفي مدخل وصدر البلد، وقد سكن من بقي من أهل البلد في البيوت البعيدة، وقد سكن دارنا عائلة من آل المصري، وهم عائلة من البدو يمتازون بتديّنهم والتزامهم الديني.

وعلى سيرة التدين، فقد اختلف كثيراً الالتزام، ولاحظت الفرق الكبير بين ما سمعته عن أهل بلدنا قبل النكبة وما رأيته في السبعينات، والتطور الذي استجد في التسعينات، ولمسته بنفسي؛ حيث كنا نصوم الاثنين والخميس ونصلي النوافل ونزور المسجد الأقصى..

كان يترأس بلدية شَعَب عفو فاعور ويتناوب على نيابته عدد من أعضاء المجلس البلدي، فالرئيس شبه ثابت، أما نائبه فهو يتغير كل دورة تقريباً.

صحيح أنني لا أتذكر البلد قبل عام ١٩٤٨، ولكني استدلّيت على معالمها من الأقارب، وفي الحقيقة لم أكن متلهفة كثيراً عندما زرتها في السبعينات، حيث انتظرت عشرين يوماً في الأردن، ولما طالت المدة فكرت بالعودة إلى لبنان بسبب التأخير، ولكني تأكدت أنني لم أضيّع وقتي بعد مقامي في شَعَب، وكان اشتياقي في التسعينات أكبر بكثير.

الحاجة حنيفة صالح حسين (أم أكرم الجمّال) [٣]

مواليد عام ١٩٣٦

تاريخ المقابلة: ذكرى النكبة الـ٥٥؛ ١٥-٥-٢٠٠٣

مكان السكن: مخيم برج الشمالي - جنوب لبنان

يوم خرجنا من فلسطين بتنا ليلة في زتونات عُبِيب، ثم خرجنا حوالي أربعة أشهر إلى البعنة، وعدت إلى البلد عند ستّي وسيدي، وبقيت أخدمهم وأطبخ لهم، وكان في البلد رجال الحامية، وكان يطلّ علينا الأخوة والأقارب، ثم نقلوا ستّي وسيدي للسكن معنا في البعنة، وتوفي سيدي هناك (١١٠ سنوات).

وقبل أن نقيم أربعينه سقطت البلاد، واجتمع الكبار في البعنة وقرروا الرحيل مع الراحلين، اللحاق بمن سبقونا إلى لبنان. وفي البعنة جمّعوا الناس على البِرْكة، أخذوا بعض الرجال الشباب باتجاه العين وقتلوهم، وتجوّلوا في الأحياء يحملون السلاح (ستينّات)، ويهددون الناس ويطلقون النار في الهواء وهم يصرخون فيهم: يللا على لبنان يللا..

خرجنا ونمنا في عين سجور، بعضهم اقترح العودة وبعضهم اقترح الخروج إلى لبنان، وبقيت عمتي أمينة وعمتي فاطمة في عين سجور (عادوا لاحقاً إلى البعنة)، وخرجنا نحن إلى لبنان.

عندها وضعنا أختي الصغيرة (هديّة) على دابّة، وأثناء الخروج والمسير الطويل وشدة هول النكبة، وقعتْ أختي عن الدابّة من غير أن ننتبه للأمر. وجلسَتْ في الطريق والناس تمرّ دون أن يسألها أحد أو ينتبه لها، إلى أن مرّت عمتي مريم فوجدتها وأخذتها معها.

وفي قرية حرفيش، تجولنا على بعض بيوت أهلها وشحذنا منهم قليلاً من الخبز والماء.

كانت معنا لبيبة الحاج حسن، ولّدت على الطريق أثناء الخروج ووسط الضجيج، أخذوا جانباً من الطريق، اهتم بها عدد من النساء، شلحت امرأة زنارها وزنّرتها به. وعندما وضعت طفلتها، وضعوا المُصران (الحبل السّرّي) على الحجر وقصّوه بحجر ثانٍ، وسحبوا من الثوب خيط وربطوه به.

في الصباح نزلنا إلى رميش في لبنان، ووجدنا حامية شَعَب هناك، لم نجد ماء لنشرب فيها، فأخذَنا رجال الحامية (كان معهم سيارات وسلاح) إلى بيت ياحون، فأطلقوا النار على «سْكورة» الآبار لنشرب، وأقمنا في بين ياحون سبعة أيام.

بعد ذلك، جئنا إلى صور، وبقينا في الشوادر أربعة أشهر. بعدها ذهب أهلي إلى عنجر عام ١٩٥٠، أما أنا فكنت قد عدت إلى فلسطين عام ١٩٤٩.

العودة إلى فلسطين

بقيت ستّي في فلسطين، وأرسلتْ لأبي تسأله أن يرسل إحدى بناته لتقوم بخدمتها في آخر حياتها. فسألَنا أبي: من يذهب إلى فلسطين، فقدّمت نفسي لذلك.

ذهبت مع رجل من قرية نَحِف، اسمه موسى النحفاوي وعائلة دار قاسم العابد من البعنة، وهم جيران بيت عمتي في البعنة. وحين قررنا الذهاب، بقينا في رميش منتظرين الانطلاق بسبب غزارة المطر.

بعد أربعة أو خمسة أيام، وعندما خفّت غزارة المطر، حملت ثيابي في البقجة[٤] وانطلقت مع الدليل، وكان مسيرنا مشياً على الأقدام وفي الليل فقط. ووصلنا مع شروق الشمس إلى البعنة، واستقبلتنا عماتي وأقاربي، وسكنت مع ستي أخدمها.

وذات يوم أرادوا أن يذهبوا إلى جمع الحطب (التحطيب)، استأذنت ستّي وذهبت مع الأقارب، وهناك قرصتني حيّة، ودخّلوني إلى المستشفى في الناصرة. نقلوني إليها عبر الرامية على دابة، وبقيت في المستشفى عشرة أيام.

وعندما خرجت من المستشفى ووصلت إلى عكا جاءنا خبر وفاة ستّي، وذهبنا إلى البعنة، ووجدناهم قد غسّلوها وكفّنوها وينتظرون قدومنا. ودّعنا ستّي ودفنّاها، وبدأت انتظار الرحيل من جديد إلى لبنان، وبهذا قضيت عشرة أشهر في فلسطين تحت الاحتلال.

وذات يوم، فيما كنا هناك، قيل إن اليهود سيعطون للناس هويات جديدة، فإذا بالأقارب والناس تتدفق إلى فلسطين من لبنان للحصول على هويات. فإذا باليهود يطوّقون القرية (البعنة) لاعتقال من ليس معه هوية أو شمله الإحصاء الذي أُجري عند الاحتلال. يومها اختبأنا في بئر البلد، وكان في البئر حافة غير ظاهرة اختبأ فيها معنا ثلاثة عشر شخصاً. وأطلّ على البئر جندي يهودي وصرخ عند بابه: هون في مخربين، وشرب من البئر ورمى السطل بقوة فظننا رمى قنبلة، ولم نطمئن حتى رشقتنا الماء التي ارتطم بها السطل في البئر.

وكان من جملة من قدم يومها من لبنان عمتي ليلى وزوجها الحاج داوود، فعدت معهم إلى لبنان في الرحيل الثاني من فلسطين. وكان الخروج الثاني لي من فلسطين، ومشينا في الليل بعيداً عن الطرق الرئيسية وبين الوعر. ووصلنا إلى بيروت، وسألت عن أهلي فقيل لي إنهم في عنجر، واستدليت على الطريق، ووصلت إلى خيام أهلي. واستقبلوني بالترحاب بعد أن كان قد وصلهم الخبر أن قرصة الحيّة قتلتني.

العودة الثالثة

كانت العودة الثالثة عام ١٩٨٨، ذهبت هذه المرة إلى شَعَب، واستقبلني صلاح ابن عمي، وأمضيت أسبوعاً وذهبنا إلى البعنة عند أولاد عمتي (حامد، محيي الدين، صلاح، حسن، علي وغيرهم).

كان عندي هدف أن أزور بيت أهلي، الذي لم أجد منه سوى سنسلة (جدار) لبعض الغرف الداخلية. وفي مكان البئر سجدت وقبلت التراب وبكيت هناك، وذهبت إلى الجامع وإلى حدود شَعَب وأطرافها، ولم أترك زاوية من البلد إلا وزرتها.

الأمر المهم الذي حصل هناك، أن اليهود عندما احتلوا البلاد، أجروا إحصاء للموجودين وثبّتوا كل واحد في مكان إحصائه، يعني مَن تمّ إحصاؤه في بلدنا بقي فيها متملّكاً أرضه، أما من أحصي في غير البلد، فإنه لو عاد إلى بلده فإنه لا يستطيع استعادة أملاكه، بل عليه -إذا أراد- أن يشتري من «الدولة» أو يستأجر.

والبلد صار كله طرقات كبيرة واسعة الآن. وزرت التركيب (دار برق الليل)، وزرت دار عمتي (فيها ناس من ميعار). أما من بقي من أهل البلد في داره فهم: كل دار طه، وأهل مصطفى العرابي وإخوته وأولاد أعمامه، دار محمد الخليل، بيت علي عزيز، وابنه محمود وعبد العزيز، دار خالي عوض، ودار فاعور، وغيرهم..

وقد استذكرت في يعنين شجرتَيْ تين وخروب، ما زالتا هناك، كنت آكل منهما قبل النكبة.. وفي خلة بكار وجدت شجرات دار سعيد عودة ما زالت كما هي. أما السقاية، فاليوم تسقى الأراضي ومستوطنة كرمائيل من أرض عبيب، وقد كنا نسمع منها قبل النكبة أصواتاً نشبّهها بدويّ إنسان تحت الأرض، وعندما احتل اليهود المنطقة اكتشفوا الماء فيها كأنه نهر يجري تحت الأرض.

كانت إقامتنا في هذه الرحلة في البعنة ومجد الكروم، وزرنا أكثر القرى المجاورة، وزرنا القدس وعكا وحيفا وتل أبيب وترشيحا وغيرها..

ولقد تغيرت البلد كثيراً، ما زال هناك «شوية بيوت قديمة» والمعالم القديمة (البيدر والخلاّت والعبهرة والعين) ما زالت معروفة حتى الآن..

أخيراً، زرت فلسطين أكثر من مرة، وما زلت أحلم بالعودة كل يوم، ولا بد أن نلتقي أهلنا هناك ونرجع ونتشارك بالأفراح فوق الأرض التي حُرمنا منها أكثر من خمسين سنة.

* * *

(١) تتميز هذه الشهادة بما يمكن أن تحمله ذاكرة طفل عاش النكبة وويلاتها، حيث يمكن تحسس براءة الطفولة إزاء الحدث الجلل، وخبرة مرور أكثر من خمسين عاماً من التجارب.

(٢) شهدت صاحبة هذه الشهادة استشهاد عدد من أفراد عائلتها أثناء قصف الطيران الصهيوني عليهم بعد خروجهم من القرية.

(٣) عادت صاحبة هذه الشهادة بعد النكبة إلى فلسطين مرتين يفصل بينهما أربعون عاماً.

(٤) ثوب تربط أطرافه وتوضع فيه الثياب ويستخدم كحقيبة للثياب.

الفصل الثاني
مقتطفات عن شَعَب

.. واستشهد أبي متأثراً بجراحه قبل الوصول إلى البلد، وجاء بعد ليلتين أخي يحمل جثة أبيه وبندقيتين.. وبعد العزاء قام أخي وسلمني البندقية الثانية، بدا الأمر وكأنه إعلان عن المقاومة في البلد..

من مقال (مع الاعتذار أنا مع التوطين) – مجلة الأمان

انضم إلى حامية القرية خمسة عشر عنصراً من جيش الإنقاذ، بقيادة «أبو علي» العراقي، الذين قرروا ترك مراكزهم والانضمام إلى حامية القرية.

من كتاب نافذ نزال (النزوح الفلسطيني من الجليل)

مع الاعتذار.. أنا مع التوطين[1]

هـذا الكلام الذي أكتبـه الآن ليس من اختراعي أو بنات أفكاري، وهو في الصفحة الثقافية لاعتباره قصة واقعية التفاصيل أخبرنيها هذا الأسـبوع سـبعينيّ فلسـطيني، ببسـاطته وخبرته التي غذّتها السنون الطويلة الحبلى بالأحداث. فبعد تنهدات عديدة بدأ كلامه من الآخر:

إنهم يسـاعدوننا، إنهم يعملون جهدهم كي لا ننسـى فلسـطين، وكيف ننسـاها بعد كل هذه السنين، هل جفت دماؤنا وسُدّت شرايينُنا وانقطعت أنفاسنا؟.. وبدأت القصة.

ولدتُ في العام ١٩٣٤، في قرية فلسطينية وعت أسماعي فيها على بطولات أهلها، الذين لم يتركوا مجالاً للجهاد إلا ودخلوه، فمنهم قاتل مع عز الدين القسام، ومنهم من رافق أبو إبراهيم الكبير، ومنهم من كان صديقاً لشهداء سجن عكا (عطا الزير ومحمد جمجوم وفؤاد حجازي).

وأول مـا أذكـر من هذه الحياة أنني كدت أقع عن ظهر أخي الأكبر عندما ركض هرباً من أول طائرة رأيتها في حياتي، قيل لي فيما بعد أنها طائرة حربية إنجليزية أغارت على بلدتنا بسـبب مشاركة أهلها الفعالة في ثورة ١٩٣٦ الكبرى. ولم يُصب يومها أحد بأذى غير أنه نفَقَ قطيع ماعز ظنه الطيار من المقاومين.

وقبيـل العـام ١٩٤٨، كنـا في عكا مع أبـي فتعرضنا في طريق العودة إلـى القرية لكمين من عصابـات العدو، فأسـروا أبي وأخي الأكبـر وتركونا نذهب إلى البلد، وتواتـرت إلينا الأخبار فيما بعـد عـن محاولتهم الهرب وقتلهم عدداً من اليهود، واستشـهد أبي متأثراً بجراحه قبل الوصول إلـى البلـد، وجـاء بعد ليلتين أخي يحمل جثـة أبيه وبندقيتين.. وبعد العزاء قام أخي وسـلمني البندقية الثانية.. بدا الأمر وكأنه إعلان عن المقاومة في البلد، وهو في حقيقته إعلان انخراطي بديـلاً عـن أبـي فيها، واجتمع شـيوخ البلد وأسسـوا حامية أخـذت على عاتقها مسـاعدة البلاد المجاورة، وكان أن أصبحت فيما بعد الحامية الأقوى في قرى قضاء عكا. وقد شـاركتْ في معارك القـرى المجـاورة، الأمر الذي أثار غضب العصابات اليهودية وقوات الجيش العربي للإنقاذ. فبعد كل معركة كانت هذه الحامية تحرر القرى فيأتي الجيش العربي ليتسلمها وما يلبث أن ينسحب منها تنفيذاً لأوامر عليا، مما دعا أهل البلد إلى عدم التعاون معهم.

وحدثـت النكبـة، في المعـارك الأخيرة قبل النزوح، كان عمري أربعة عشـر عاماً، أصيب أخي إصابات بالغة بقي إثرها معطوباً حتى وفاته. ونزحنا إلى لبنان، حيث تنقلنا بين المناطق والخيم مـن عنجـر (حيث جاورنا الأرمن في تجمعات كانت لم تزل مخيمات)، ونزلنا إلى صور في مخيم الرشـيدية على حدود فلسـطين، ثم تزوجت عام ١٩٥٩، وانتقلت إلى بيروت لتوفر العمل اليومي وسـكنت في البداية في منطقة المسـلخ، في بيوت من التنك في تجمعات عرب المسـلخ، وأنجبت عدداً من الأولاد وما لبثت أن انتقلت إلى مخيم تل الزعتر لتَوافر مدارس الأونروا فيه.

في تل الزعتر افتتحت دكاناً استطعت من خلاله جمع بعض المال لتعليم أولادي، واشتريت

شقة قرب المخيم في الأول من نيسان ١٩٧٥، واندلعت الحرب اللبنانية في الثالث عشر منه. وفي العام التالي كان القرار بإسقاط المخيم قد اتخذ، فعدنا إلى المخيم من جديد وحوصرنا فيه حتى أُصبت فيه وخرجت مع الصليب الأحمر وخرجت عائلتي في ١٢ آب ١٩٧٦، اليوم الذي قتل فيه أكثر من ألف شخص، وكانت الهجرة الثانية وبدأنا الحياة من جديد؛ يعني من الصفر.

وللمصادفة فإن الشقة التي اشتريتها لم تكن مسجلة بعد، وذلك لحاجة الفلسطيني أن يثبت أنه لا يملك في باقي المحافظات أي عقار (للتأكد أن هذا العقار هو للسكن فقط)، وحين ذهبت إلى زحلة (عاصمة محافظة البقاع) سُدّت الطريق قبل وصولي إليها فلم أجلب من الشهر العقاري الدليل، وبقيت الشقة بدون تسجيل.

وخلال اجتياح ١٩٧٨ توفيت والدتي في مخيم الرشيدية، فلم أستطع الوصول إليها، إلا بعد ثلاثة أيام، أي بعد دفنها.. وفي اجتياح ١٩٨٢ أرسلت عائلتي إلى بيت أخي في البقاع، وبقيت في بيروت حيث كنت قد آليت على نفسي أن لا أقاتل في الحرب الأهلية، وكنت أشارك في لجان العمل الشعبي للحفاظ على النظام والنظافة في الحي الذي سكنت فيه.

في هذه المرة كنت قد ناهزت الخمسين، كان حلم العودة الذي لا يفارقني يبتعد شيئاً فشيئاً، ففي السنوات العشرة الأولى من النكبة كان في استطاعتنا التسلل إلى فلسطين والعودة متى نشاء، إما لزيارة الأقارب أو للعمل العسكري، وفي العشرة الثانية وقد تزوجت، كان المدّ القومي الذي بنى الحلم العربي يتعاظم إلى أن كان صرحاً فهوى في هزيمة ١٩٦٧، وفي العشرة الثالثة كانت تسجل المقاومة الفلسطينية الإنجازات التي أعادت الأمل إلى شعبنا، فخرج الأمل مع صانعيه وبائعيه بعد ١٩٨٢.

وبعد ١٩٨٢ تعرضت لمضايقات لا تحصى، وتركت عملي بعد قانون (الوزان -الجميل)، وعملت حارساً لأحد المباني. وحوصرت عائلتي في حرب المخيمات وهربت من عملي، وبدأت نغمة (إنهم يساعدوننا). إلى أن قامت انتفاضة فلسطين التي أعادت الأمل للأمة، وفكت الحصارات التي حصدت خيرة شباب الجيل الذي هاجر من لم يقتل فيه، وتركت شباباً عاطلاً عن العمل وشعباً تأخر أبناؤه سنتين من عمر الحضارة عن الدراسة.

وفي التسعينات حين عاد الهدوء إلى لبنان، لم نبخل على أحد بالخبرة والدعم فكان أبنائي من المبادرين إلى العمل المقاوم، حتى كاد يستشهد أحدهم ولم يعلن عن هويته الفلسطينية، وظن المراقبون أنه لبناني في المقاومة. هذا رغم ما تم من إغراء لأولادي للذهاب إلى أرض سلطة أوسلو.

والآن، ابني الجريح لم يتلقّ معاملة الجرحى اللبنانيين، وعائلتي الجريحة تعتمد على ما يرسله من الدانمارك ولداي المهاجران اللذان اشترى كل منهما شقة يكاد ينتهي من تقسيطها. وشعبي الجريح ما زال من مخيم إلى مخيم ومن تشريد إلى تشريد.

إنهم يساعدوننا، فلم يعطونا الجنسية، وقد أخذها وخُصّصت مقاعد نيابية لمن جاورناهم في عنجر من الأرمن، رغم أن قضيتهم حُلّت وأرضهم عادت. ومن جاورناهم من عرب المسلخ،

حازوا على الجنسية ومثلهم عرب وادي خالد لهم أكثر من نائب.

إنهم يساعدوننا، فمنعونا من العمل في أكثر من سبعين مهنة في لبنان، وحرمونا من أدنى الحقوق الاجتماعية والإنسانية. بل وحاصرونا وهجروا نصف شعبنا إلى أوروبا.

إنهم يساعدوننا، فمنعوا على ابنيّ تسجيل شقتيهما باسمهما، كي لا ينسيا فلسطين!، وحرموهما مما ضمنته لهما المنظمات الدولية التي أصدرت عدداً من قوانينها في شعبنا نظراً لما يتعرض له من تمييز عنصري على يد العدو.

إنهم يساعدوننا، ويسدّون علينا كافة السبل للعيش الكريم، لأن من يرتاح منا بنظرهم سينسى فلسطين ولن يعود إليها. وبناء على هذا المنطق كيف سيذكرها من لا يجد لقمة إلا إذا عمل وكَدّ بعيداً عن عيون الرقباء؟. وكيف يذكرها من يرى الأشياء طعاماً والهواء لباساً والسماء سقفاً، ومن لا يجد في المساء ما يأتي به إلى عائلته؟

إنهم يساعدوننا؟ ما هذه النظرية البائسة التي لا حلّ لها إلا بأن نهاجر أو نموت أو نأخذ الجنسية أسوة بالأرمن وعرب المسلخ والسوريين والمسيحيين من أهل بلدنا؟

إنهم لا يساعدوننا، لذلك فأنا مع التوطين والجنسية طالما لا أنال الحقوق المدنية والإنسانية والاجتماعية. مع الاعتذار من جميع من يعملون لأجلنا.

والآن أعذرني فقد أخذت من وقتك ما يكفي وعلي أن أذهب لأعدّ العدة لعرس ابني الأصغر في نهاية الأسبوع، ورغم كيد الجميع لن تتوقف الأفراح ولو بلغت أتراحنا عنان السماء.

انتهى كلام صاحب القصة، الذي مسح دموعه ورحل تاركاً قهوته باردة على الطاولة.

شهادات من كتاب نافذ نزال «النزوح الفلسطيني من الجليل» [٢]

شَعَب

قرية شَعَب تبعد حوالي ١٧ كلم إلى الجنوب الشرقي من عكا. عدد سكانها ١٧٤٠ نسمة، ومساحة الأراضي التابعة لها ١٧٩٩١دونم (١٧٨٧٠ دونم يملكها الأهالي، والباقي ١٢١دونم من الأرض المشاع).

فزع أهل شَعَب عندما سمعوا من جهازَي راديو عند محمد علي الخطيب والشيخ أمين حمزة مختاري القرية، أن عكا قد سقطت. كمال سليمان عبد المعطي، مساعد سائق باص شَعَب- عكا، وعضو حامية القرية (الميليشيا) يقول:

«لم أصدق أن عكا سقطت مع اليهود. كنت هناك قبل يومين من سقوطها. كيف يمكن لمدينة محاطة بسور وفيها الكثير من السكان، أن تسقط بسهولة؟».

القرويون راقبوا بقلق سقوط القرى المجاورة الغربية فقرروا تشكيل (الميليشيا) بقيادة إبراهيم علي الشيخ خليل، المشهور باسم «أبو إسعاف». تقدّر قوة الميليشيا (الحامية) بين ١٠٠-١١٠ رجال، مسلحين بمختلف أنواع البنادق، بندقيتي برِن، ورشاشين، وبندقية مضادة للدروع (tank rifle)، بالإضافة إلى ما بين ٣٠-٥٠ مخزن ذخيرة لكل رجل.

في ٢١ تموز، تموضعت الوحدات اليهودية المسلحة، في غرب القرية من جهة «البروة»، وبدأوا بقصف القرية. ثم تمددت القوات الإسرائيلية لاحتلال «ميعار» التي تقع إلى جنوب القرية وتشرف عليها، فتقدموا فيها واحتلوها.

يقول محمد مطلق حميد:

«بعد ذلك قصف اليهود القرية، فدمروا منازل علي موسى ورشيد علي الحاج حسن، وبدأ أهل القرية بالنزوح. بقي القليل منا في «العداسية»، أرض إلى الشمال الشرقي من القرية، آملين في استعادة قريتنا بمساعدة جيش الإنقاذ، المتمركز في تل الليات، مجد الكروم، المغار والرامة.. ستة أيام بعد احتلال القرية، أعدنا تجميع قوتنا وهاجمنا المواقع اليهودية. أحرقنا سيارتين مصفحتين وأجبرنا ست سيارات أخرى على الانسحاب».

كمال سليمان عبد المعطي قال:

«ريم محمد الحاج أسعد أرادت العودة إلى القرية لتحضر بعض حاجياتها الشخصية، وبعض المؤن لأطفالها المقيمين في حقول القرية. حاولنا منعها ولكنها لن تستمع.. أصرّت على الذهاب، حتى لو كلفها ذلك حياتها. كان لديها الشجاعة والتصميم لتدفعنا إلى تشكيل قوتنا ومهاجمة اليهود.. وقد خسرنا عدداً من أهل القرية.. واستعدنا قريتنا».

بقي رجال الحامية في القرية أكثر من ثلاثة أشهر، ولكن معظم أهل القرية بقي خارجها. كما أن اليهود في ميعار، المشرفة على شَعَب، فتحوا النار على كل من رأوه يدخل القرية، بقي

يخاطر الكثيرون بالدخول إلى القرية لإحضار الحاجيات من منازلهم. انضم إلى حامية القرية خمسة عشر عنصراً من جيش الإنقاذ، بقيادة «أبو علي» العراقي، الذين قرروا ترك مراكزهم والانضمام إلى حامية القرية.

وقال محمد مطلق حميد:

«هؤلاء الرجال حرموا من رواتبهم في جيش الإنقاذ بسبب انضمامهم إلينا بدون أوامر من القيادة العليا لجيش الإنقاذ. وكنا سعيدين باستقبالهم.. وقد رحبنا بهم أيّما ترحيب خلال إقامتهم بيننا».

اشتبكت الحامية مع العدو في عدة مواقف. خلال شهر تموز، حاولت اليهود إعادة احتلال القرية في ٢٦ و٢٧ منه، وفي آب، هاجموا في ١٦ و١٩ و٣١ منه، وفي أيلول في ٦ و١٥ و٢٩ منه. ومهما يكن من أمر، لم يستطع أي الطرفين تحقيق الغلبة على الآخر.

في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٤٨، أُخبر القرويون أن اليهود هاجموا قرى ترشيحا، الجِشّ، المغار، الرامة والبقيعة، وأن جيش الإنقاذ بدأ بالانسحاب باتجاه الشمال.

قال كمال سليمان عبد المعطي:

«لقد جاء شخص من قرية مجد الكروم وأخبرنا أن جيش الإنقاذ انسحب من مواقعه في تل الليات.. الذي بناء على معلوماتهم اقترحوا أن ينسحب القرويون في مجد الكروم والمسلحون في شَعَب قبل أن يقفل اليهود الحدود مع لبنان فيصبحوا محاصرين».

محمد مطلق حميد وصف تحركاتهم للمغادرة:

«وهكذا تركنا القرية. لم نواجه اليهود.. وحتى لم نرَهم، انسحبنا لأننا كنا خائفين أن ترحل عائلاتنا ونبقى وحدنا».

برحيل المسلحين شمالاً عبر قرى مجد الكروم، البعنة، دير الأسد، كسرة، كفر سميع، سحماتا، دير القاسي، التقوا بعائلاتهم، ورحلوا سوياً إلى لبنان. كان كمال سليمان عبد المعطي مع عائلته في البعنة عندما سقطت بيد اليهود.

«عندما احتل اليهود قرية البعنة ودير الأسد، كانت عائلتي في حقول البعنة في الشمال. جمعنا اليهود مع قرويين آخرين، وفصلونا عن النساء. وقضينا كل النهار في ساحة القرية.. كنا عطشى وجائعين. اثنان من القرويين طلبوا الإذن لجلب الماء للمسنين والأطفال. أخذ اليهود الرجلين لإحضار الماء، ولكنهم بدلاً من ذلك قتلوهما. وفتشونا وأخذوا المال القليل الذي بحوزتنا، خواتمنا وساعاتنا، واختاروا عشوائياً حوالي مائتي رجل وقادوهم بالشاحنات إلى الرامة. لم نعرف ماذا حدث لهم. أما من تبقى منا فتوجه إلى لبنان. كان قد حل الظلام.. سأل مختارُ البعنة اليهودَ ليسمحوا لنا بقضاء الليل، واعداً إياهم بالمغادرة صباحاً، بدلاً من السفر ليلاً بالشيوخ والنساء والأطفال. رفض اليهود طلب المختار وأعطونا من الوقت فرصة نصف ساعة للمغادرة.. وبعد مرور نصف الساعة بدأ اليهود بإطلاق النار في الهواء. فجرحوا ابني البالغ من العمر تسع سنوات في ركبته. ومشينا عدة ساعات حتى وصلنا «سجور».. كنا خائفين،

وكانت الطريق مليئة بالناس، حيثما نظرت.. كان الجميع في عجلة للوصول إلى لبنان. قررنا البقاء في حقول سجور. لم نستطع أن نجد الأرغفة القليلة من الخبز الذي جلبناه معنا ليأكله أطفالنا. ناموا جائعين تلك الليلة. وعند الفجر تابعنا طريقنا ومشينا طوال اليوم حتى وصلنا إلى «بيت جن».. وهي قرية لم يتركها سكانهم الدروز. أرسلت ولداي ليحضروا قليلاً من الطعام.. وقد كان أهل «بيت جن» الدروز مرحبين جداً وكرماء معنا. وعرضوا علينا الماء والطعام، ولم يعترضوا على قضائنا الليل في حقولهم. يومها أكل أطفالي كما لم يأكلوا من قبل. لم يسألوا عن طعام بعده حتى وصلنا إلى لبنان بعد يومين.. لذلك حمدت الله كثيراً.. أيضاً في طريقنا، ولّدت كنة إبراهيم الحاج حسن صبياً أثناء النزوح».

«بقي أهل نمر أيوب في القرية تحت الاحتلال الإسرائيلي حتى كانون أول/ديسمبر ١٩٤٨. إبراهيم الفارس وزوجته بقيا معهم حتى الدقيقة الأخيرة. وقد أخبروا نمر أيوب أنه في أحد الأيام أمر الاحتلال كافة القرويين (بمن فيهم أهل نمر) ليصعدوا في شاحنة مكشوفة. وقاد العدو الشاحنة بالقرويين تحت المطر إلى قرية زبوبا، قرب جنين. وعندما وصلوا الحدود، أمرهم اليهود أن يعبروا إلى الجانب العربي. كان الكثيرون من القرويين مرضى لدرجة أنهم لا يستطيعون المشي، فتركوهم تحت المطر. ولا أحد يعرف ماذا حصل لوالد نمر».

شهادات من كتاب الفلاحون الفلسطينيون: من الاقتلاع إلى الثورة [٣]

النـص التالـي نقلته في كتابها روز ماري صايغ كاملاً نظراً لأهميته وما يشـكله من وصف دقيق ومختصر لجوانب الحياة في القرية الفلسطينية. وقد أوردناه في بداية الفصل الثاني من القسم الأول. لذلك سننشر هنا مطلعه فقط..

ذكريات من قرية شَعَب

كانت شَـعَب قرية يسـكنها نحو ١٧٠٠ نسـمة، وتقع في منطقة عكا، وهي مشهورة بزيتونها. وقـد أعطانـي ز.ك.، الذي يمارس مهنة التعليم حالياً في لبنان ويدرس التاريخ في أوقات فراغه، وصفاً لقريته يستحق أن يقتطف بأكمله بوصفه سجلاً تاريخياً موثوقاً فيه:

«ولدت في مدينة عكا سنة ١٩٣٦ بعد أن كان والدي قد ترك شَعَب للعمل في مصنع للكبريت. وكان عادة يبيع السـمنة والزيت الذي يجلبه معه من القرية. وكان من تقاليد القرية أنه عندما يولد الطفل الأول، وخاصة إذا كان صبياً، أن يأخذه جداه للعيش معهما. كنت أحب القرية وأكره أن أعـود إلـى المدينة. كانوا يقولون لي على سـبيل المداعبة أنهم سـوف يعيدونني إلى عكا، فكنت أصرخ وأسبّ وأشتم لأعبر عن غضبي..

في القرية، كنت عادة آخذ الحصان ليشـرب، وأسـتمع إلى الناس وهم يتحدثون لأن منزل جـدي كان فـي وسـط القريـة، وكان هذا المنزل هـو «المهوى» أي المـكان الذي يجتمـع فيه الناس. وبالقـرب منـه خان ينزل المسـافرون فيه. وأذكر أنهم كانـوا يأتون من لبنان وسـوريا، وخاصة من برجا (قرية لبنانية في إقليم الخروب)، ومعهم بضائع ليبيعوها في القرى. وكانوا أحياناً ينزلون ضيوفاً في منزل جدي.. وأذكر أن منزل جدي كان أحد أوسـع منازل القرية: أقواس عالية ومكان لتخزيـن الزيـت والفواكـه المجففة، وموقد نجتمع حوله في الليل لنسـتمع إلـى الحكايات التي ترويهـا عمتـي وجدي وجدتي، وغرفة واسـعة منفصلة للضيوف؛ اسـمها «المضافة» يقابلها مكان الحيوانـات، مـن بقر وخيـول، ولعلف الحيوانات والتبن. وكان للمنـزل مدخل واحد فقط له باب يقفل بقضبان حديدية ضخمة..

يوميات في فلسطين - شَعَب الآن [٤]

عمر راشد /الجليل/فلسطين

بعد قضاء يوم جميل في عكا، بصحبة أطفالي، وبعد وجبة سمك شهية طازجة تناولناها في أحد مطاعم الميناء، وبعد إبحار هادئ في أحد المراكب المتواضعة، كان لا بد لنا أن نلملم حوائجنا عائدين إلى منطقة مرج ابن عامر، القريبة من صفورية والناصرة وأندور وغيرها، محمد ابن الست سنوات يتساءل: ليش ما في مثل قريتنا في عكا؟؟ دور وشوارع وسور وأشجار؟ فرددت عليه مبتسماً: وكذلك لا يوجد بحر. قال: آه صحيح ما في بحر بقريتنا. فقلت له لأننا في مدينة على الساحل، ولكن إن شئت أن ترى قرب عكا قرى مثل قريتنا، فبعد دقائق سأريك قرية اسمها شَعَب. شَعَب؟! قال محمد مستغرباً. ضحك إبراهيم ابن العاشرة قائلاً: شعب بني طالب؟ فقلت: الاسم قريب ولكن نلفظها بالفتحة على الشين، مع أن المعنى تقريباً واحد: شَعَب هو طريق جبلي وجمعه شعاب وتجمع أيضاً شعوب. ومنها جاء اسم شَعَب.

ها؟ كم مضى من الوقت يا إبراهيم؟؟ أخبرتك دقائق وسنصل إليها! ومررنا على آثار قرية مسوّرة وممنوع الدخول إليها، وبقي منها المقبرة وبضع بيوت خربة، إنها قرية «البروة».. هذه القرية التي يسكن أصحابها حولها، ويُمنعون من الدخول إليها، ومثلها الكثيرون في فلسطين «الناس جيران قراهم وبيوتهم».. لم يمضِ أكثر من عشرين دقيقة. أين هي القرية؟؟ تساءل إبراهيم. هل ترى ذلك المدخل؟؟ مدخل القرية؟؟ ها؟ ماذا كتب عليه؟ كتب عليه «قرية شَعَب ترحب بزائريها».

دخلنا قرية شَعَب من باب أن أعرّف أبنائي على قرية من قرى بلادنا التي حُرم من العودة إليها الكثير من أبنائها المهجرين في المخيمات الفلسطينية في لبنان وفي غيرها، فنحن الآن في منطقة تسمى الجليل الأسفل التي تبعد ثمانية عشر كيلومتراً عن مدينة عكا وترتفع ١٠٠ متر عن سطح البحر، كما أخبرني أحد الأخوة بعد أن عرض عليّ أن يصحبني في جولة في القرية.

يقول لي هذا الأخ الطيب الذي يصحبني وهو يريني خربة يعنين وخربة راس الزيتون وخربة جلون الواقعة بالقرب من القرية يقول: كان عدد سكان قريتنا عام ١٩٣١م ١٢٩٧ نفراً، ثم رفع بصره إلي ضاحكاً: إحنا فينا البركة بنخلف كثير صرنا اليوم خمسة آلاف (عدا عن الذين نزحوا إبان النكبة). قلت له: حسب معلوماتي كان في القرية ١٩ مسيحياً ويهودي واحد سكنوا القرية في تلك الفترة. فقال: نعم كلامك صحيح، اليهودي فرّخ يهود بس مش بشَعَب؛ حولها.

قلت للمضيف ونحن ما زلنا نتجول في القرية: ما شاء الله، البناء جميل ومتحضر في قرية شَعَب برغم التضييق على القرى العربية من ناحية مخططات بناء وبرغم الحالة الاقتصادية! قال: صحيح، وهل تعرف أن بيوت القرية في الفترة التي حدثتك عنها لم يتجاوز عددها أكثر من ٢٨٤ بيتاً؟ وأنه كان في القرية مسجدان للمسلمين الأول هو مسجد عمريّ، والثاني أقيم قبل

حوالـي ٤٠٠ عـام وما زال قائماً حتى اليوم، ويروي شـيوخ القرية أن الذي صمم جامع الجزار هو نفسه الذي صمم جامع شَعَب. بجانب المسجد يتواجد مقام (أحمد العليمي) الذي يقال إنه كان أحد المجاهدين، ويوجد أماكن مقدسة مختلفة لأولياء صالحين في عدة جهات من القرية.

قلـت: مـا شـاء اللـه، كل هذا في شَـعَب؟ والله إنتم مخبيين بقشـوركم يا أهل شَـعَب الخير عندكم! قلتها مبتسماً مازحاً.

طيب شـو هذا؟؟ مثل الحجارة الرومانية هنا وهناك؟؟؟ قال: هذه شـواهد تاريخية قديمة ففـي القريـة تنتشـر بقايا أثرية من العهديـن الروماني والبيزنطي، بل فـي القرية كذلك يوجد كنيستان الأولى شرق جنوب القرية والثانية شرق شمال القرية.

استمر الأخ بالشرح، والأولاد بالعرك في السيارة على الحلوى التي قدمها لنا الأخ الفاضل، بينما أنا شـردت في ذهني، وتجولت في بصري في أراضي شَـعَب وتاريخ شَـعَب وحاضرها بل في أصحـاب الأراضـي المغيبين عنها والمحرومين منها، بل فـي أصحاب البيوت التي تناثرت حجارتها وأبت إلا أن تبقى ملتصقة في الأرض تنتظر عودتهم.

أفقـت من شـرود ذهنـي على قول الأخ: تبلغ مسـاحة نفوذ المجلس المحلي في شَـعَب ٦٣٦٣ دونماً تقسم على النحو التالي:

كروم الزيتون مسـاحتها حوالي ٣٠٠٠ دونم، وعدد أشـجار الزيتون ٤٠٠٠٠ شـجرة. الأراضي الزراعية ومساحتها ٢٧٥٠ دونم.

القرية القديمة وقسائم البناء ٦١٣ دونماً.

قلـت في قلبي: سـبحان الله، هل هذا ما أبقوه لأهل شَـعَب؟؟ فأيـن أملاك المهجرين؟؟ من غصبها؟ بل ماذا أقيم عليها؟؟

قلت للأخ المرافق لنا: أسمع أن أهل شَعَب عندهم ثقافة ويحبون العلم! قال مفتخراً باسماً: إحنا عنّا مدرسة من زمن العثمانيين يابا! كان عنا مدرسة تركية أسسها العثمانيون عام ١٣٠٥هـ ولاّشو بتفكرنا؟ فضحكت من طريقة إجابته وأعجبني افتخاره بالعلم والثقافة بينما قد يفتخر البعض بغيرها.

حسب معلوماتي أنه ليس في شَعَب وحدها بل في كل فلسطين، أنه كان التعليم في البداية فـي الكتّـاب، قلت لمرافقنا! قال: صحيح! وأسـهب في الشـرح كأنما فتحـت قريحته ليتحدث عن الذكريـات الحلـوة ففـي تنهيدة قال: ..ومن الشـيوخ الذيـن علّموا في الكتاب في القرية الشـيخ حسـين علي الخطيب والشـيخ سـليم زيتون والشـيخ سـعيد أبو الهيجاء والحاج أمين شـحيبر والشـيخ طـه، وقد اقتصـر التعليم على القرآن الكريم والحسـاب، وكانت أجرة الشـيخ عبارة عن مواد غذائية مثل الزيت والقمح والبيض.

وفـي تلـك الأثناء التي كان فيها الأخ المضيف مسـهباً في الشـرح مررنا على بناية المدرسـة فقلت: منذ متى بنيت هذه المدرسة؟

قـال: فـي سـنة ١٩٤٤، قررت لجنة القريـة الممثلة لجميـع العائلات بناء مدرسـة في الجهة

الغربيـة مـن القريـة؛ قرب عـين القرية. وهـذا البناء موجـود حتى يومنـا هذا ويسـتعمل غرفاً للتدريس في مدرسة شَعَب الجماهيرية «ب».

خلال التجوال في القرية رأيت بعض المعالم التي تشـير إلى وجود سـلطة محلية، فبادرت بالسؤال عن كيفية إدارة شؤون القرية؟ قال: بين السنوات ١٩٤٨ – ١٩٧٤ أدارت شؤون القرية لجنة محلية ومختار القرية الذي ترأس اللجنة.

وأخـذ يعـدد لي الأسـماء وكأنني أعرفهم، فقلت: لا بأس، ربما سـمعت بعض هذه الأسـماء وربما تخلد الأسماء في الذاكرة. فإن كثيراً من أسماء الشخصيات الفلسطينية ارتبطت بأحداث جمة في فلسطين والعكس صحيح.

فأكمل قائلاً: تكونت اللجنة من مختار القرية محمد رشيد فاعور رئيس اللجنة، كامل علي سـعدة مدير مدرسـة شَـعَب «ب». كامل عمر خطيب – موظف، يوسف علي حجاج – تاجر، سليم يوسف هيبي – تاجر، أحمد عزايزة.

وفـي سـنة ١٩٧٥ تم تعيـين المجلس المحلـي الأول في القرية. فقاطعته: مـن أجل ذلك نرى اليوم شـوارع داخلية معبدة، وشـبكة الهاتف، وأثر من مدرسـة ابتدائية، وعيادة طبية عامة. قال مبتسماً متفاخراً مرة أخرى: شايف شايف (يهز رأسه).

قلت: حسب معلوماتي إن قرية شَعَب اعتاشت على الزراعة والمواشي، إلا أنني لا أجد أن الزراعة اليوم هي المصدر الرئيسـي للمعيشـة، فها أنا أرى في شـوارع شَـعَب؛ ولنقل في شـعابها، مكتبتين وعـدة حوانيـت يصل عددها إلى ١٨ حانوتاً و٤ ملاحم و٥ متاجر ومشـاغل كثيرة في القرية. فرد قائلاً: ونجد اليوم الكثير من الشـباب المثقفين الذين درسـوا في الجامعات المختلفة (٤ محامين، ٧ أطباء، ٤٠ معلماً ومعلمة، ٦٠ موظفاً تابعاً للسلطة المحلية، ٣ عاملات اجتماعيات).

مـن المضحـك أننـي ما دخلت قرية شَـعَب إلا رغبة في أن أجيب على تسـاؤل محمد، إلا أنه غطّ مع إبراهيم في سبات عميق في المقعد الخلفي للسيارة، فاضطررت أن أودع مضيفنا وأشكره على حسن الضيافة وجزالة الشرح.

الحقيقة إنني خرجت من قرية شَـعَب على نية العودة إليها مرات ومرات، وما شـعرت كيف وصلـت قريتنـا حيـث كنت أفكر في شـعور أهلها المهجرين عنهـا المحرومين منهـا، محاولاً تفهم مشـاعر أقاربـي في المخيمات الفلسـطينية في الشـتات، وفي نظرة إلى الطريـق أمامي وأنا أقود السـيارة عائداً إلى قريتي تعقبها نظرة إلى أبنائي في سـباتهم أتسـاءل في نفسي هل سيعي هذا الجيـل ما حصل لأجداده؟ وهل سـيدرك أمثالهم من أبناء وأحفـاد المهجرين ما نحاول أن نفتح أعينهم عليه؟؟

غابت الشمس ودخلت القرية وانتظرت الصباح الذي هو قادم لا محالة.. شاء من شاء وأبى من أبى.. لأنه وعد الله.

كيف يعيش فلسطينيو الجليل في شَعَب ودير الأسد وترشيحا؟[٥]
شهادات ومشاهدات

شَعَب:

هناك في جنوب شرق القرية، كنيسة مهجورة يتميز بناؤها عما حولها، ولكنها من دون برج أو أجراس أيضاً، يبدو أنها مسكونة، طرقنا الباب المصفح بألواح الزنك.. فإذا بفتاة يافعة تفتح الباب وخلفها عجوز يبدو عليه الإعياء، رحب وقدم قهوة سادة حاضرة عند الموقد، لكنه رفض الحديث وكان يكرر جملة واحدة «أهلاً وسهلاً في بيتي». ويؤكد أنه ليس بالإمكان تصوير المكان إلا بتصريح من البوليس. البيت الكنيسة مليء بقضبان الحديد ومواد البناء يحتفظ بها منذ عشرات السنين للوقت الذي تسمح له الحكومة «الإسرائيلية» بالبناء.

ماذا في تصويرها إنها ليست ثكنة عسكرية؟ أسأل. «لا أعرف، ولكنها ملكي. لا أستطيع البناء على أرضها. معي شهادة من الحاكم العسكري إني ما تركت شَعَب، وبعد خمسين سنة ما بقدر أعمّر. أنا مش قد الحكومة.. بالزمان كانوا يركضوا على الخيل أو بالسيارة يخبروا الحكومة، اليوم بالتليفون! البيت بيتكم بس بلاش تصوير.. فيه كنيسة قاحلة.. روحوا صوروها». يبدو أن العجوز ليس الوحيد الذي يخاف. فلا أحد هنا يثق سوى بأبناء قريته القديمة التي عاشوا فيها قبل الهجرة.

الكنيسة الثانية، تهدّم جزء منها وانكشف داخلها، و«لا أحد يهتم»، والجواب: «لم يعد هناك مسيحيون في شَعَب». بهذه الكلمات أجاب عجوز يسكن بالقرب منها اسمه خليل طه، وله قصته مع جنود الاحتلال.

عام ١٩٤٨ هرب طه مع من هرب إلى لبنان، بينما لجأ أهله إلى البعنة.. تسلل عائداً فأُمسك به. كان يُطرد إلى الحدود ويعود، مرة إلى لبنان ومرة إلى أطراف مرج بن عامر. سجن ثلاث مرات وعذّب كي لا يعود، ولكنه عاد، فكيف لا يعود وقد ترك زوجته وبنتاً رضيعة؟ وأخيراً بعد إحدى عشرة سنة حصلت له زوجته على جمع شمل وعاد ليبقى، ولكن ليس في بيته، وإنما في بيت آخر استأجره من حكومة «إسرائيل» لمدة ٤٩ عاماً.

بيوت شَعَب ليس فيها قديم إلا القليل، معظمها حديث لا يشبه بعضه البعض، جزء من حجر وجزء من طين. شوارع ضيقة بعيدة عن الخط المستقيم بالكاد تمر السيارة.

لا ذاكرة لسكان شَعَب عن شَعَب، فهم إما من بدو الحولة أو لاجئون من قرى أخرى إليها. فغالبية أهل شَعَب في البعنة أو دير الأسد، وأهل البصة تحولوا لاجئين في فسوطة أو ترشيحا، وأهل ترشيحا في شَعَب. والقرية التي كان يسكنها مسيحيون طُرد إليها مسلمون وبالعكس. فوضى عارمة زرعتها حكومة الاحتلال في ظل صراعها على الأرض..

يوم النكبة

سكان شَعَب الحاليون لا يستأمنون إلا أهل قريتهم الأصلية. والشخص الوحيد الذي لم يخف وتحدث هو طه (السالف الذكر)، فروى ما حصل ليلة الهجوم على شَعَب وكأنه يستعيد حادثة حصلت بالأمس «كيف أنساها، وأنا أعيش فيها(..) كلما رحت من ناحية البروة أتذكر كيف هجم اليهود ساعة المغربية والناس على مائدة الإفطار. الله لا يعيده من يوم. كانت الدنيا رمضان. أطلقوا الرصاص ألقوا قنبلتين على منزل علي موسى ورشيد حسن فدمرا. دخلوا بيوت القرية بيتاً بيتاً وأخرجوا من فيها. أمرونا بالتجمع حول البركة. أخذونا بالشاحنات إلى حدود لبنان بعدما صاحوا في النساء أمروهن بإخلاء القرية».

انتصار سعيد الأسدي، من قرية شَعَب سابقاً التقيناها في دير الأسد فأكملت الحكاية: «لملمتْ أمي وجدّتي بعضَ الأغراض ووضعتها في صرة. هربنا إلى حقول مجد الكروم تحت الشجر. مكثنا هناك يومين. كنا جوعانين وعطاشاً. أكلنا أوراق الشجر. كان عمري ١١ سنة وأخوتي أعمارهم أربع وثلاث سنوات، والصغير خمسة أشهر. شهدنا القرية من بعيد وهي تحترق. وبعد يومين هدأت الأمور. أرسلتني أمي مع نساء القرية لإحضار الطعام من البيت. مكثنا في الأحراش أكثر من شهر. نصبنا الخيام من أغطية الفراش والحرامات. عشنا فيها حتى سقطت البعنة ودير الأسد. حاصرنا اليهود وأخذونا هناك».

وفي منحدر البعنة – دير الأسد، قال نصر الأسدي، «جمعونا نحن وأهل القرية، فتشونا وسرقوا كل ما نملك، ساعات وخواتم ونقوداً. لوّح الجميع بخرق بيضاء، ولكن اليهود اختاروا أربعة شباب اثنين من دير الأسد واثنين من البعنة بينهم مسيحي. أطلقوا الرصاص عليهم وقتلوهم. ثم فصلوا الرجال عن النساء. بقينا طوال النهار في ساحة القرية. أخذوا نحو ٢٠٠ شخص أسرى. أعطونا مهلة نصف ساعة فقط لمغادرة المكان. مشينا بضع ساعات حتى وصلنا إلى سجور. كانت الطريق مليئة بالمهاجرين، نساء وأولاد وأطفال وبهائم، الكل يتحرك صامتاً أو مولولاً نحو الشمال. المرأة لا تجد زوجها والولد بلا أمه».

قصة «العروس» لغسان كنفاني [٦]

عزيزي رياض،

لا شك أنك تقول الآن أنني قد جننت، فهذه ثاني رسالة أكتبها لك في يوم واحد ولكنني في الواقع أكتب لك هذه الرسالة الآن كي أوضح لك أمراً، لقد اكتشفت أنه محض جنون أن أكتب وأقول لك: ابحثْ معي حيث أنت، عن رجل طويل جداً، صلب جداً، لا أعرف اسمه، ولكنه يلبس بدلة خاكية عتيقة، ويلوح لأول مرة كأنه مجنون.

ماذا يمكن أن تفهم من هذا كله؟ لا شيء طبعاً، فالمرء يصادف في اليوم الواحد، إذا ما سار في الطريق، مئة رجل يحملون هذه الصفات، فأي واحد منهم تراني أقصد؟

إنني على يقين أنك ستكتشفه بنفسك، فهو شيء آخر، متميز.. كيف؟ لا أستطيع أن أقول لك فأنا نفسي لا أعرف ولكن يخيل إليّ الآن أنني حين شهدته أول مرة كان محاطاً بما يشبه الضوء، نعم، كان محاطاً بشيء يشبه الغبار المضيء، وأعترف لك أنني لم أتأكد من ذلك تماماً حين استوقفني لحظة واحدة في الطريق، إلا أنني أكاد أكون متيقناً الآن، أن ذلك الرذاذ المضيء الذي كان يحوط جسده الضخم هو الذي رسخ صورته في ذهني، وإلا كيف تفسر أنني ما زلت أذكره، وما زال يلحّ عليّ، من بين مئات الرجال الذين يقابلهم الإنسان في الطريق كل يوم ثم يذوبون في رأسه وينعدمون؟

ورغم ذلك فأنا أعرف، هذه اللحظة، أنك ما زلت تعتقد أنني شبه مجنون، فحتى الآن لم يتضح أي شيء، وما زلنا حيث كنا في الرسالة الأولى: ابحث معي حيث أنت، عن رجل طويل جداً، صلب جداً، لا أعرف اسمه، يلبس بدلة خاكية عتيقة ويبدو لأول وهلة أنه مجنون.

كل الذي أضفته لهذه الصفات تلك الصفة المعقدة الجديدة: أنه محاط بشيء يشبه الغبار المضيء!

معك حق، ولكنني أكتب لك هذه الرسالة الثانية في يوم واحد لتعرف القصة بكاملها، ذلك أنني رأيت أنه صار من حقك، وقد طلبت منك مشاركتي في البحث عنه، أن تعرف ما أعرفه.

لست أذكر بالضبط متى رأيته لأول مرة، ولكني أذكر تماماً كيف رأيته: مثل إنسان ضيع شيئاً كان يسير محنياً بعض الشيء، بكفين مفتوحتين متحفزتين، وعينين تنقبان وجوه الناس كأنهما محراثان عتيقان، لقد بدا لأول وهلة وكأنه مجنون، وحين مرّ بي نسيته ولم أذكره إلا حين رأيته مرة ثانية: اقتلعتني عيناه فجأة وأحسست نفسي أطوف فوق موجة تستعصي على الرؤيا، ولست أدري الآن ما إذا كنت أنا الذي ذهبت إليه مسوقاً بذلك النداء العميق المنبعث من عينيه كتيار لا يقاوم أم أنه هو الذي جاء إلي، وعلى أي حال فقد وضع كفه الكبيرة على كتفي وسأل:

- هل رأيتها؟

- رأيت ماذا؟

- العروس!

وطبعاً تيقنت لحظة ذاك أنه مجنون، وأن ما انتابني أمام عينيه القاسيتين هو ما ينتاب أي إنسان يجد نفسه هدفاً لعيني رجل مخلوع عن العالم والمعقول، ولذلك اخترت الهروب الأسهل فقلت له:

- كلا لم أرَ العروس..

وعندها سقطت يده من تلقائها إلى جنبه واستدار، إلا أنني سمعته يقول، كأنما لنفسه:

- كلكم تقولون هذا، منذ عشر سنوات.

وحين ابتلعه الزحام، يا رياض، شعرت بأن جسده الضخم كان محاطاً بذلك الشيء الذي يشبه الغبار المضيء، كما رسمه فنانو النهضة حول جسد الإله وهو يقدم عونه للفقراء، على بطاقات الأعياد التي كنا نتلقاها معاً.

وعبثاً حاولت اللحاق به: إن مثل هذه الأمور لا تحدث إلا كلمح البصر، لقد نقبت الشارع صعوداً ونزولاً، قابلت مئات من الرجال الذين يشبهونه تماماً، ولكنه هو نفسه كان قد اختفى! عنه، أبحث الآن، وعنه أيضاً أطلب منك مشاركتي البحث، أعرف أنك تبعد عن هنا أكثر من ألف ميل، ولكن ما الذي يمنع ذلك الرجل أن يسير، محاطاً بذلك الضوء أكثر من ألف ميل وهو يبحث عن العروس؟

* * *

قبل أن أسألك سألت غيرك، لم ألجأ إليك إلا لأنني، منذ رأيته، ألجأ إلى كل من أعرفه، أستوقف كل من تربطني به أدنى علاقة وأسأله عنه. وأصارحك القول يا رياض، لقد مضى بي الأمر إلى أبعد من ذلك.

ذات ليلة قلت لنفسي: إذا كان الرجل قد دأب على سؤال الناس عن العروس منذ عشر سنوات، كما قال، فإن الشيء المؤكد تماماً أن كثيراً من أولئك الناس الذين سألهم ينتابهم الآن ما ينتابني. وكنت أسير ذات يوم في الطريق حين التقت عيناي عيني عابر لا أعرفه، ودون أن أعرف ما الذي أنوي عمله مضيت إلى الرجل فاستوقفته، وضعت يدي على كتفه وسألته:

- هل رأيت العروس؟

سمَّني مجنوناً ولكن هذا الذي حصل، وقد استطعت، عن هذا الطريق أن أعرف الكثير عن هذا الرجل، وعن «العروس» الضائعة، إلا أنني ما زلت غير قادر على التخلص من تلك القسوة المجهولة التي تدفعني نحو عيون العابرين لأسألهم عن العروس الضائعة.

الآن دارت الدورة، أو أنا الذي أدرتها، لست أدري، ولا بد أن أعود إلى نقطة البدء، إلى ذلك الرجل المحاط بما يشبه النور، والذي من شفتيه وعينيه وتحت كفه الثقيلة، سمعت ذلك السؤال لأول مرة في حياتي، نعم، يا رياض لا بد من رؤيته.. فلدي أخبار جديدة عن العروس!

* * *

كان من قرية شَعَب شاباً لم يكن قد ضيع شيئاً بعد، ولكنه لم يكن عند ذاك قد وجد أي شيء أيضاً.

لا بد أن قصته قد بدأت في يوم ما من أيام حزيران الأولى عام ١٩٤٨، كان القتال الدموي قد استمر دون انقطاع طوال أكثر من ستة أشهر، وكان هو -وأنا ما زلت أجهل اسمه- سيد الذين يندفعون إلى القتال، هجوماً كان أم نجدة أم دفاعاً، إلا أنه كان يشترط أن يعرف موعد العمل قبل بدئه بساعتين على الأقل، كي يكون أمامه متسع من الوقت للتفتيش على من يقبل أن يعيره سلاحاً، بندقية خديوية، أو إنكليزية، أو حتى قنبلة يدوية.

وكانت الأمور على هذه الشاكلة، مقبولة عند كافة الأطراف، فغالباً كان يأخذ معه إلى الرجل الذي ينوي أن يستعير منه سلاحاً رفيقاً يتعهد أمامه بأن يعيد السلاح إلى صاحبه إذا ما مات صاحبنا أثناء العمل، كان حريصاً على أن يتعامل معاملة مصارف محترمة، رغم أنه لم يشهد في حياته مصرفاً محترماً أو مصرفاً، وهكذا فإنه لم يواجه، طوال الشهور الستة مشكلة حقيقية في هذا المجال، ولذلك لم يفكر بالحصول على سلاح خاص، وربما امتنع عن التفكير بالحصول على السلاح الخاص بسبب عجزه عن شراء سلاح.

لم أعرف بعد من الذي زرع في رأسه، في أحد تلك الأيام الأولى من حزيران، أن عليه الحصول على سلاح، وكان الرأي سليماً تماماً، فقد تركز القتال بصورة جادة في الجليل، وألقى العدو ثقله هناك، وابتدأت أنهار المهاجرين تسيل من التلال نحو الشمال، وبدا كل شيء وكأنه يقف على الحافة.

لا شك أنه كان أصلب من أن يتردد كثيراً، فقبل أن ينتهي الأسبوع الأول من ذلك الحزيران كان قد عقد عزمه بصورة ليس بالوسع زحزحتها، لقد سلم سلاحه في معركة لم أهتدِ إلى اسمها بعد لأحد رفاقه ومضى يزحف تحت غيوم راعدة من النار، كان على يقين بأن بعض جنود العدو في خطوطهم الأمامية قد قتلوا، وأنه لو انتظر إلى نهاية المعركة لفقد فرصته، كان يعرف أنهم يسحبون جنودهم بالحبال بعد انتهاء القتال.

وقد استطاع أن يصل بالفعل إلى الخنادق المحروقة، كانت العتمة ثقيلة، ولكنه أسقط نفسه في إحدى الحفر، وبأسنانه فك يد القتيل عن بندقيته، وتفحصها هناك على ضوء الحرائق والانفجارات، ومضى عائداً إلى رفاقه.

وسرى الخبر في كل القرى سريان النار، ليس لأنها كانت الحادثة الأولى من نوعها ولكن لأن البندقية التي جاء بها كانت بندقية نادرة.

لن أطيل عليك كثيراً، لقد استدعي في اليوم التالي إلى القيادة التي كانت تعسكر في قرية مجاورة، وكان الضابط قد سمع عن البندقية، وحين شهدها أمامه بين كفي الرجل فتح عينيه على وسعهما:

- هذه مرتينة تشيكية!

وانحنى الواقفون ينظرون إلى البندقية الجديدة والتي كان فولاذها يلتمع تحت قنديل

الغرفة: كان ذراعها ذا لون بني كامد، وكان حزامها الخاكي جديداً تماماً، مجدولاً بعناية لا تصدق، وكان مشطها الكبير يعلو زنادها كأنه التاج.

وجاء صوت من طرف الغرفة الأخرى:

- يبدو أنهم تلقوا شحنة سلاح جديدة من الشرق، القيادة يجب أن تعرف ذلك.

وهزّ الضابط رأسه موافقاًعلى ذلك الرأي وقرر:

- يجب أن آخذ هذه المرتينة إلى القيادة.

تستطيع يا رياض، أن تقدر ما حدث: لقد تمسك صاحبنا ببندقيته ولكن الأوامر، كما تعلم كانت أقوى: ألا يصدقونكم دون أن تأخذوا البندقية؟ ألا تستطيعون تقدير قيمة الوقت؟ إذا شئتم ذهبت أنا مع البندقية!

ولكن ذلك كله لم يكن يجدي، وكي يطمئن على بندقيته أقسم له الضابط أن يعيدها له، بأمشاط إضافية، خلال يومين.

ومر اليومان، ومر الأسبوع، في ذلك الشهر الذي تتطاول دقائقه ويموت ناس وتسقط بلاد وتحترق مزارع وتولد في كل دقيقة حادثة جديدة: من مركز القيادة إلى الدار، ومن الدار إلى مركز القيادة، ضارباً في الوعر والشوك، انتظر الآن، وتعال غداً، ولكن الأحداث كما لا شك تذكر، في ذلك الشهر الحاسم، لم تكن تنتظر.

وقد تساقط فوقه حدثان في يوم واحد: في الصباح قيل له إن الضابط قد نقل مركز قيادته إلى الشمال حيث لا يعرف أحد، وفي المساء تلقت شَعَب الضربة الأولى، وحرثت قنابل المورتر بيوتها الطينية، وأحرقت أغراس الزيتون، في لحظة كانخطاف البصر.

من الذي سيُعيره بندقية في ذلك الطوفان الذي لا تنفع فيه إلا البندقية؟ هي وحدها التي كانت تستطيع أن تحمل الإنسان عبر ذلك الموج، إلى شاطئ النجاة أو إلى شاطئ موت شريف ولذلك لم يكن أمامه في ذلك الطوفان الغارق إلا .. إلا ماذا؟ إلا الجنون، طبعاً، إذا صدقت أنه لم يكن ليختار الفرار.

ولكنه لم يقبل الجنون ولا اختار الفرار. وكان الموت هو الذي تبقى له، ولكن حتى الموت خسره هو الذي صرف كل أيام الحرب مقاتلاً في أول صف، بسلاح معار، بين أسنان موت حقيقي، جلس هناك في شَعَب على حجر، وسط الساحة، ينظر إلى البيوت تحترق، وإلى الرجال يموتون إلى أهله ينسربون مع من انسرب تحت ظلمة ذلك الليل، إلى حيث لا يعرف أحد حتى الآن.

وقد شاهدوه حين احتلوا شَعَب، وحسبوا كما حسبت أنا أنه مجنون، فضربوه بأعقاب البنادق كي يغذّ الخطى في الوعر، إلى الشمال.

في طول ما تبقى من الجليل مضى ليل نهار يبحث عن بندقيته: من قرية إلى أخرى ومن مقاتل إلى آخر، ينقب وجوه الناس والأشياء متعقباً أخبار البندقية التي لم يشهدها إلا ساعات، والتي كانت محشوة بالرصاص ولكنه لم يطلق منها رصاصة واحدة.

أنت لا تعرف ما الذي حدث في شَعَب، قليلون هم الذين يعرفون ذلك ولكنه شيء ضروري

أن تعرف ما الذي حدث هناك كي تدرك حقيقة القصة. لقد مضى هو صعوداً، في قيظ لا مثيل له، إلى البروة، ومن هناك إلى مجد الكروم إلى البعنة، إلى دير الأسد، إلى كسرة، إلى كفر سميع، متعقباً أخبار بندقيته خطوة، خطوة، من قصة إلى أخرى، ومن رجل إلى آخر، وحين وصل إلى ترشيحا جاءته أخبار جديدة من شَعَب: إن الأربعين مقاتلاً الذين تبقوا في شَعَب ذهبوا إلى قيادة جيش الإنقاذ في الشمال ليعرضوا أنفسهم كمقاتلين في صفوفه، وحين علموا أن خطة زحف الجيش لن تمر في شَعَب عادوا إلى هناك، وفي ليلة واحدة انقضوا على قريتهم من جديد، واسترجعوها.

ستبدو لك الحادثة غريبة ولكن هو ما حصل، لقد عاد الأربعون مقاتلاً فاسترجعوا قريتهم المحروقة وتعقبوا عساكر العدو إلى قرب مفرق «الدامون»، ودفعوا ثمن ذلك عشرة رجال.

لقد حدث ذلك، يا رياض، في بقعة محاطة بالعدو من كل جانب، واستطاع الرجال الثلاثون أن يبقوا وراء جدران قريتهم المهدمة يردّون الهجمات المتكررة ليلاً نهاراً، ولكنه هو، في ترشيحا، كان يشم بندقيته قريبة كأنها في متناول يده، واعتقد أنه لو انتظر يوماً فقط لاستطاع استرجاعها، ولعاد معها، إلى شَعَب.

قلت لك إن الأحداث لا تنتظر، ففي اليوم التالي اكتسح العدو شَعَب مرة أخرى، وفر الرجال الذين فقدوا خمسة من مقاتليهم، إلى التلال المجاورة حيث يستطيع ابن البلد أن يضيع قطيع ماعز.

وقيل له يومها، إن بندقية تشيكية جديدة شوهدت مع رجل عجوز في قرية صغيرة تقع على بعد ساعتين إلى الشمال من ترشيحا. وقد ذهب إلى هناك في الليل، وهناك قيل له، وهو يكاد يفقد وعيه، إن مقاتلي شَعَب الخمسة والعشرين قد انحدروا إليها تلك الليلة بالذات وقاتلوا ببنادقهم وسكاكينهم حتى الصباح وأنهم، مرة أخرى، استرجعوا قريتهم المزّعة، وتركزوا وراء الركام على مداخيلها وفقدوا ثلاثة رجال.

وراء أخبار البندقية، من باب إلى باب قيل له أن العجوز الذي شوهد يحملها قد مضى، في الليل، وتسلق الهضبة ذاهباً إلى الجنوب، وربما ليلتحق بالمقاتلين الذين بدأوا يتجمعون إلى الجنوب من ترشيحا بانتظار هجوم حاسم. ودون أن يضيع لحظة تردد واحدة، كرّ عائداً إلى ترشيحا، فرجال شَعَب الثابتون وراء استحكامات الدمار في قريتهم الصغيرة المعزولة ينتظرونه. ثم أنها، لو تعلم، قريته التي لم يستطع، حين اجتيحت، أن يطلق في سبيلها رصاصة واحدة.

ولكن أخبار شَعَب سبقته إلى ترشيحا، حيث لم يستطع أن يعرف أخبار البندقية: لقد فوجئ المقاتلون المنهكون بهجوم ثقيل ماحق، وفقدوا وهم يتراجعون سبعة رجال، وحملوا معهم أربعة جرحى، واختفوا في التلال.

وفيما كان هو على حافة الجنون يتسقط، كما لو أنه بين نَصليْ مقص، أخبار بندقيته من جهة وأخبار شَعَب من جهة أخرى، انحدر ما تبقى من مقاتلي تلك القرية الصغيرة، بعد ساعتين من تراجعهم، واكتسحوا القرية مرة ثالثة مثل لمح البصر، زمرة ثالثة أيضاً تمركزوا فيها بعد أن

ألحقوا خسائر حقيقية بالعدو وغنموا ما خلفه سلاحاً وزاداً.

لست أدري من الذي قال له في ترشيحا أنه لو استطاع العودة إلى شَعَب بكفيه العاريتين، لاستطاعوا هناك تزويده بالسلاح الذي يريد، ولست أدري إن هذا القول قد راقه أو لا، ولكن الذي أدريه هو أنه، تلك الظهيرة القائظة، شاهد بندقيته على كتف رجل في الساحة.

وكما تمسك بها يوم انتزعها بأسنانه من قبضة القتيل شدّها إليه وهي لما تزل معلقة على كتف الرجل، وحين استدار هذا الأخير مذهولاً، وشهد أمامه ذلك الرجل الطويل الصلب ذا النظرات القاسية والوجه المنهك، واكتشف، أغلب الظن، أنه على أبواب عراك، فثنى كوعه حول حزام البندقية، ومدّ ذراعه الأخرى لتحول دونه ودون العملاق.

أما هو فقد كان غير قادر على الكلام، قيل لي أنه كان يبكي وكان يرتجف كالمحموم، لقد مضت شفتاه الجافتان تتمتمان كلاماً ليس بالوسع فهمه، وأمامه كان الرجل الآخر بلحيته الدقيقة وعينيه الغائرتين قد عقد العزم على المضي بالعراك إلى إحدى نهايتيه.

- هذه مرتينتي!

قالها بعد جهد لا يصدق بصوت مبحوح محشرج وطفقت عيناه تحدقان إلى الرجل العجوز كأنهما تنتظران الاعتراف، إلا أن العجوز الصعب صرخ بوجهه:

- مرتينتك أيها النصاب؟، لقد دفعت ثمنها من حلالي قبل يومين فقط!

وتساءلت العينان في وجهه، فقد كان مستحيلاً، بعد، أن يتكلم، وجاءه الجواب:

- من حلالي، اشتريتها أمام خمسة شهود من ضابط باعها لي، وهو يتجه إلى الشمال، بمئة جنيه.

وارتخت قبضتاه عن جسد البندقية إلا أنه لم يتركها تماماً، وبدا أنه، في لحظة واحدة، سيتهاوى ولكنه بذل مزيداً من الجهد وهمس:

- أريدها لأعود إلى شَعَب.

- شَعَب؟! لقد احتلها اليهود قبل قليل.

ترك البندقية، فضمها العجوز إلى صدره بقوة وتراجع خطوتين، وحين اطمأن تماماً إلى أنه لن يفقد سلاحه سأله:

- هل كانت المرتينة لك؟

وهزّ رأسه يائساً إلى النهاية.

دفعت بها مئة جنيه مهر ابنتي الوحيدة، لقد رفضت كل عمري أن أزوجها لذلك العجوز النتن، ولكن ماذا تريدني أن أفعل الآن؟ لقد دفعت مئة جنيه، دفعتها بعد ربع ساعة فقط ثمناً لهذه التشيكية.

وبهدوء استدار كشيء محطم، ومضى. كانت تلك هي آخر مرة شوهد بها في ترشيحا وليس يدري أحد إلى أين ذهب، وعلى أي حال فإنه لو ذهب شمالاً لكان من المؤكد أنه سمع، قبل أن تتيسر له مغادرة الحدود، أن رفاقه العشرة الذين تبقوا من مقاتلي شَعَب قد هبطوا التلال بعد

يومين، وبسلاحهم اليسير استرجعوا تلك القرية الصغيرة المهدمة، مرة رابعة.

* * *

لم أهتدِ بعد إلى اسم العروس التي بيعت ثمناً للبندقية، ولم أعرف بعد ماذا فعل العجوز بتلك البندقية الجديدة، وكذلك فأنا لا أعرف كيف أنتهت قصة شَعَب، وكيف انتهت أخبار أولئك الرجال الأربعين الذين ذابوا بالتدريج، كما تذوِّب النارُ قطعة دهن.

أهو الرجل الوحيد الذي تبقى من مقاتلي شَعَب؟ ربما، لست أدري في الواقع، ولكن يخيل إليّ أن هذا هو السبب الذي جعل منه رجلاً غريباً ينتابه إحساس ثقيل بأنه ما زال يبحث عن بندقية ضائعة ليلتحق بالرفاق الذين كانوا ينتظرونه في القرية المهدمة.

ولكن يا عزيزي رياض لماذا لا تفتش معي عن ذلك الرجل؟ إنه رجل طويل جداً، صلب جداً، لا أعرف اسمه، ولكنه يلبس بدلة خاكية قديمة، ويبدو وكأنه محاط برذاذ مضيء، ويلوح لأول وهلة، حين يستوقفك ليسألك: «هل رأيت العروس؟» يلوح كأنه مجنون.

ابحث معي عنه، حيث أنت، فلدي أخبار جديدة عن العروس..

بيروت - ١٩٦٥

من رواية «باب الشمس» لإلياس خوري [٧]

ص ١٨٨

«نحن شو عملنا بعد سقوط البروة؟ انحصرنا في شَعَب، شَعَب لم تسقط، كل قرى الجليل سقطت في الحرب، ما عدا شَعَب. وبقينا حتى نهاية عملية حيرام ليلة ٢٨ تشرين الأول، والتي انتهت خلال ستين ساعة، بسقوط الجليل بأكمله»

ص ١٩٢-١٩٣

قال يونس:

«اسمعي يا بنتي، احتلوا القرية، فانسحب المقاتلون، والتحقوا بنسائهم في الحقول في القرى المجاورة. وناموا وقاموا تحت شجر الزيتون وهم ينتظرون الفرج. ثم ضربهم الجوع، فقرروا استرداد قريته. اليهود احتلوا القرية يوم ١٠ حزيران ١٩٤٨، ونحن انتظرنا في الحقول أسبوعين، ثم بدأنا بالتجمع، من البروة وشعب والبعنة ودير الأسد، وقررنا تحرير القرية. القمح والذرة في الأرض، والناس لا يجدون رغيفاً يابساً يأكلونه.

تجمع المقاتلون في تل الليات، وهناك وقف فيهم الضابط العراقي جاسم خطيباً، وقال إن جيش الإنقاذ لا يملك أوامر بمساعدتهم، لكنه معهم، ويدعو لهم بالتوفيق.

وبدأنا الهجوم، هاجمنا القرية من ثلاثة محاور، جبل الطويل في الشمال، وشعب في الجنوب الشرقي، وتل الليات شرقاً، وانتصرنا.

انتصرنا لأنهم فوجئوا، فلم يحاربوا. وكما فعلنا فعلوا، بدل أن يقاوموا هربوا إلى أبو لبن فدخلنا القرية. طبعاً أطلقوا النار قبل هربهم، ولكن يبدو أن أعدادهم كانت قليلة جداً، فقرروا الانسحاب.

ص٢٠٨-٢١٠

لا أريد تاريخ القرية، أنا لا تهمني الطوشة التي جرت بين آل الفاعور وآل الخطيب، عام ١٩٣٥ وكيف تطورت خلال ثورة ٣٦، حين انتقم آل الخطيب لمقتل شاكر الخطيب، بقتل مختار الحارة الشرقية رشيد فاعور. وكيف قمتم أنتم، أنت كنت فتى، ولكنك جئت مع مقاتلي الثورة، وفرضتم المصالحة التي تمت على البيدر، حيث ذبحوا أكثر من أربعين رأس غنم، وجاء الناس من كل القرى المجاورة، يأكلون ويباركون.

ص٢١٠

هل قام أبو إسعاف بالترتيبات اللازمة مع المختار، كي يصبح لك بيت في القرية، وبهذا

ضمن قائد حامية شَعَب بقاءك إلى جانبه.

..بدأتم دورات عسكرية، شحدتم السلاح، وشاركتم السلاح، وشاركتم في معارك البروة والكساير والزيب (وميعار)، لكن التساقط المتسارع لقرى الجليل ودساكره، جعل حركتكم مستحيلة، وحوّلكم حامية صغيرة لا تتجاوز المئتي مقاتل، تتمركز في قرية صغيرة تدعى شَعَب. ثم انتهى مصير عناصر الحامية إلى السجن في سوريا (وقطنة والتسريح)، وتلاشت بطولاتها..

ص٢٢١-٢٢٤

.. سأبدأ بعد سقوط البروة، وحكاية مصطفى الطيار.

فبعد أن حشدتم كل ما تملكونه من رجال وعتاد، حررتم البروة، وغنمتم الأسلحة والعتاد والحاصدات. ثم جاء مهدي قائد وحدة جيش الإنقاذ، طوقكم وصرخ «كل شيء في الأرض». أراد مصادرة الأسلحة، والادعاء بأنه بطل التحرير.

كنتم كالمذهولين. فمعركة البروة كانت أول معركة هجومية تخوضونها، حاولتم تنسيق النيران، وتنظيم الاقتحام، وبذلتم جهداً كبيراً في الحشد، وكنتم مرهقين بالنصر. إنه النصر الأول الذي تذوقتموه، ويأتي هذا الضابط الذي لم يطلق جنوده رصاصة واحدة ليصرخ «كل شيء في الأرض».

قفز مصطفى الطيار، وهو مقاتل من البروة (تصحيح: إنه من شَعَب وليس من البروة، توفي في لبنان عام ١٩٧٩)، سوف يموت في المعركة الأخيرة التي حصلت على تلال الكابري بين المتطوعين اليمنيين والجيش الإسرائيلي.

قفز الطيار وصرخ «نحن العرب وأنتم اليهود» وانبطح أرضاً، حاملاً الميتشيغان، الذي كان علي حسن الجمّال قد سحبه من الاستحكام اليهودي، خلال المعركة.

..

جاء مهدي بعد ذلك وأقنعكم بمغادرة البروة، وتسليمها إلى جيش الإنقاذ. واقتنعتم! تركتم البروة لكي يجري تسليمها بعد ٢٤ ساعة لليهود دون قتال..

بعد سقوط البروة، لم يبقَ لكم غير شَعَب، تتجمعون فيها.

وشعب لم تصمد أيضاً.

فيوم ٢١ تموز ١٩٤٨، بدأ قصف شَعَب من ناحية البروة، ثم تقدمت وحدة مشاة من ميعار واكتسحت القرية. كان القصف الأولي متقطعاً، لكنه كان دقيقاً. فبعد عشر دقائق على سقوط القذيفة الأولى في البيادر، سقطت القذيفة الثانية على منزلَيْ علي موسى ورشيد الحاج حسن فدمرتهما. وبعد تدمير البيتين، بدأ هروب القرويين في كل اتجاه، ودبّت الفوضى. ووسط الفوضى، وجد الجميع أنفسهم خارج القرية، ولم يبقَ في داخلها سوى مجموعة صغيرة من المقاتلين تمركزت في العباسية، شرق القرية.

في ٢١ تموز سقطت شَعَب للمرة الأولى دون قتال!

..

انهارت القرية، قبل أن يطلق رجالها رصاصة واحدة وصار اليهود في داخلها.

«عشنا تلك الأيام الستة في الحقول ورأينا شَعَب عن بعد. كانت كأنها سقطت في الوادي، فشعب المحوطة بالتلال من كل جانب، تحولت وادياً للموت. فبعد احتلال البروة وميعار، صارت شَعَب تحت النار، ولم يعد من الممكن حمايتها، إلا عبر عمل عسكري منسّق. حاول أبو إسعاف تنظيم المقاتلين، قسمهم إلى أربعة فصائل، وأوكل إلى كل فصيل مهمة حماية أحد حدود القرية، لكنه لم يترك قوة مركزية متحركة تحسباً لأي مفاجأة.

عملياً، لم تحدث المعركة. القصف والصراخ أحدثا بلبلة هائلة بين الفلاحين والمقاتلين، فانتهت المعركة قبل أن تبدأ».

«لماذا لم تقل لي أن اليهود هاجموا شَعَب لحظة الغروب في شهر رمضان، إذ كان كل الأهالي حول موائد الإفطار. بدأ القصف فانهارت دفاعاتكم وانهزمتم. هربتم جائعين إلى الحقول وسط الفوضى الهائلة التي ضربتكم. ثم شاهدتم، وأنتم تغادرون اللهب الذي اشتعل وسط القرية مما زاد في اضطرابكم، ودفعكم إلى الحقول المجاورة.

ص ٢٢٥

قال يونس، إنه حين التقى أبو إسعاف، بعد المعركة بأكثر من عشرين سنة، فوجئ برواية قائد حامية شَعَب عن الهجوم.

«أبو إسعاف أكثر من أخ، أنت تعرف، هناك شيء لا تمحوه الأيام اسمه رفقة السلاح، يأتي رفيق سلاحك بعد غياب عشرين سنة، فتكتشف أنه ما زال يحتفظ بمكانته في قلبك. جاء أبو إسعاف وجلسنا، وشربنا الشاي، وعاد بنا الكلام إلى أيام الـ ٤٨.

..فأبو إسعاف مناضل حقيقي، وأنا والله أضعه في عيوني..

«كنا مثل الجن» قال أبو إسعاف. «مثل الجناني الذين يطلعون من قلب النار، وكانوا يتراجعون أمامنا ويهربون، تاركين أسلحتهم في أرض المعركة».

ص٢٢٦

قال يونس: «الحقيقة أننا بعد تحرير القرية، دفنّا الشهداء الأربعة، واجتمعنا في البيدر، وقررنا أن على النساء والأطفال والشيوخ مغادرة القرية، ولا يبقى فيها سوى رجال الميلشيا. وافق الجميع، أخذوا مؤونتهم وغادروا في الصباح. كل النساء والشيوخ والأطفال غادروا ما عدا أبي وأمي ونهيلة».

وهكذا صارت شَعَب مكاناً للمقاتلين ومأوى للعجزة. حوالي مئتي مقاتل وأكثر من مئة رجل وامرأة من المسنين.

انتظرنا ثلاثة أشهر، النساء يأتين ليلاً إلى القرية من أجل أخذ المؤونة، والأشياء الأخرى، ونحن نحرس. انتظرنا هجومهم، لكنهم لم يهاجموا بشكل جدي. كانوا يشنون هجمات محدودة. الهجوم الأول كان في ٢٧ تموز، أي بعد يوم واحد على تحرير القرية، وتوالت الهجمات خلال شهري آب وأيلول، لكنها لم تكن هجمات اجتياح، كانوا يطلقون النار، دون أية محاولة للتقدم. كنا نتحرش بهم في الكثير من الأحيان، رغم نقص ذخائرنا. ثم انسحبنا.

«..انسحبنا لأن البقاء لم يعد ممكناً. ففي ٢٩ تشرين الأول ١٩٤٨، قصف اليهود ترشيحا بالطيران، ثم توسع قصف الطيران، ليشمل الجش والمغار والبقيعة. وبدأ جيش الإنقاذ انسحابه إلى لبنان. وجاء جاسم إلى شَعَب وقال يا جماعة باعوكم وباعونا، حامية شَعَب تنسحب قبل إقفال الحدود اللبنانية، وفهمنا أن كل شيء سقط.

يومها اتخذ أبو إسعاف القرار، وقال ننسحب، الجميع ينسحب، نبقى وحدنا، هذا لا يجوز، قال ننهزم ثم نعود.

قلت له إننا إذا انهزمنا فلن نعود.

وانسحبنا. كل المقاتلين انسحبوا بأسلحتهم.

لكن الكهول رفضوا الانسحاب.

قال حسين فاعور، الذي سيموت بعد ذلك في وحل زبّوبا، خذوا سلاحكم واذهبوا، نحن سنبقى في قريتنا، لن يستطيعوا أن يفعلوا بنا شيئاً، نحن اختياريّة، ولن يستفيدوا من قتلنا. لكنهم قتلوهم.

..

الضابط لم يرَ، كأنه لم يرَ موت الرجل، فبدأ ينتقي الرجال بإصبعه. من تقع عليه الإصبع، عليه الذهاب إلى الجهة الثانية. انتقى حوالي عشرين شيخاً،..».

ص٢٢٨-٢٢٩

انطلقت الشاحنة، وبدأ إطلاق النار فوق رؤوس الناس، الذين تفرقوا في الحقول، بحثاً عن قرى جديدة أو عن الحدود اللبنانية.

«حكاية زبوبا يا ابني، هي التجسيد الحقيقي لمأساتنا». قال يونس.

انقطعت أخبار الرجال العشرين الذين أركبتهم إصبع الضابط الإسرائيلي في الشاحنة، إلى حين ظهور مروان الفاعور في الأردن. ومروان هو الرجل الوحيد الذي نجا من مذبحة الوحل، كما سنسميها في ما بعد.

روى مروان عن المطر.

«كان المطر كثيفاً، والشاحنة تسير تحت المطر. وصلنا إلى زبوبا قرب جنين، وعند الحدود الأردنية، أنزلونا من الشاحنة، وأمرونا بالعبور إلى الجانب العربي، وبدأ إطلاق النار فوق

رؤوسنا».

كانت مسيرة المطر والموت والوحل.

الوحل يغطي الأرض، المطر كالحبال. برد وظلام وخوف. عشرون رجلاً يمشون، ينزلقون، يتمسكون بحبال المطر المدلاة من السماء، ويقعون. يحاولون النهوض، يلتصقون بالوحل.

عشرون رجلاً يتعلقون بحبال المطر، نشيج وسعال، ومحاولات مشي وانزلاق والتصاق بالوحل.

صار الوحل مثل الصمغ.

التصقوا بالأرض، سقطوا وابتلعهم صمغ الوحل.

وبدأت خيوط الماء الهابط من السماء، تصبح وحلاً.

وبدأ الموت.

هكذا مات رجال شَعَب في مذبحة الوحل، التي جرت في أحد أيام تشرين الثاني ١٩٤٨.

تجمعت حامية شَعَب وانسحبت بانتظام في اتجاه الحدود اللبنانية.

تجمعت حامية شَعَب في بيت ياحون وعين إبل، وبدأت تقوم بعمليات إغارة انطلاقاً من جسر المنصورة.

قامت وحدة من الجيش بتطويقهم وتجريدهم من أسلحتهم، أمرتهم بالالتحاق بفوج أجنادين، قرب دمشق، وهناك أدخلوا السجن.

ومن السجن، جاء يونس إلى مخيم عين الحلوة، وقف وصرخ بين الخيام: «نحن لسنا لاجئين». والبقية تعرفها يا سيدي..

ص٢٣٣ - ٢٣٤

قال عبد المعطي: «بعد شَعَب هربنا إلى أحراش البعنة وأقمنا فيها. حوّلنا حراماتنا خيماً. نرمي الحرام على غصن الشجرة، ونربطه بالأرض، فيصبح نصف خيمة. عشنا في أنصاف الخيم أكثر من شهر. ثم سقطت البعنة ودير الأسد. علمنا بسقوطهما حين جاء اليهود وأخذونا إلى ساحة البعنة. والبعنة لا ساحة لها. لا أعرف قرية تشبهها في العالم، ساحة البعنة مشتركة بينها وبين دير الأسد، كأنهما قرية واحدة. جمعونا في قرية واحدة. جمعونا في الساحة وتركونا مصلوبين تحت الشمس..».

«..في ساحة البعنة - دير الأسد، شمّسونا كل النهار، بعد أن فصلوا نساءنا عنا. أمروا النساء بالذهاب إلى لبنان، وتركونا نحترق.

رجلان لا أعرفهما، طلبا إذناً لجلب الماء، فقال لهما الضابط اتبعاني، خرجا من الساحة ومَشَيَا في اتجاه النبع، وسمعنا صوت رصاصتين. عاد الضابط ولم يعد الرجلان، ولم يعد يملك

أحد يملك جرأة على إعلان عطشه.

..ثم فتشونا، وسرقوا كل شيء، المال والساعات والخواتم. وبعد انتهاء التفتيش ابتعد الجنود، ورأينا يد الضابط ترتفع وتهبط، والجنود يجرّون الرجل الذي تسقط عليه يد الضابط. سقطت اليد على أكثر من مئتي رجل. أَركبوا الرجال في شاحنات ذهبت بهم في اتجاه الرامة. وحتى الآن لا نعرف ماذا حل بهم. ثم أمرونا بالذهاب إلى لبنان. وبدأ الرصاص. وجدنا أنفسنا في الحقول مع نسائنا وأطفالنا، ومشينا ساعات لا تنتهي. مشينا حتى وصلنا إلى قرية ساجور، نمنا في حقولها، وتابعنا سيرنا في الصباح إلى بيت جن، وهناك أطعمنا الدروز، ومشينا أكثر من يومين، قبل أن نصل إلى لبنان..».

(سقوط) قرى عكا [٨]

بعد أن احتل اليهود عكا (١٦ أيار ١٩٤٨) بأسبوع هاجموا قرية (البروة). ورغم أن سكانها قاوموهم مقاومة عنيفة. إلا أنهم اضطروا حيال ضغط اليهود وقواتهم الكبيرة إلى الانسحاب منها (٢٣ أيار). فانسحبوا إلى (مجد الكروم).

وتابع اليهود تقدمهم فراحوا يزحفون صوب قرية شَعَب. وكان على رأس هذه القرية رجل يدعى (أبو إسعاف). فاستنجد هذا بفوزي القاوقجي. إلا أنه لم ينجده، وكانت قوات القاوقجي يومئذ معسكرة في (المغار). عندئذ راح أبو إسعاف يستنفر المناضلين في: الجديدة، والمكر، وكفر ياسيف، وسائر القرى المجاورة. فلبوا نداءه. وراحوا يقاتلون اليهود مجتمعين. إلى أن تمكنوا من إخراجهم من البروة. وتعقبوهم حتى (بير العياضية)[٩] الواقعة على بعد سبعة كيلومترات من عكا إلى الشرق. ومن هناك راحوا يرسمون الخطط لاسترداد عكا. وكانت هناك، في عكا، جماعة تعمل في الخفاء لمقاومة اليهود، يقودها ضابط سوري هو (إبراهيم الحسيني). وكان بيد أفراد هذه الجماعة مئتان وخمسون بندقية من أسلحة جيش الإنقاذ.

وبات الأمل قوياً في استرداد عكا. لولا أن الريح سارت باتجاه معاكس. إذ وقع خلاف بين القاوقجي الذي جاء إلى (بير العياضية) من جهة وبين أبو إسعاف قائد المناضلين من الجهة الأخرى. الأمر الذي أدى أولاً إلى انسحاب أبي إسعاف وإبراهيم الحسيني من الميدان، ثم انسحب القاوقجي من هناك. انسحب إلى المغار، ولما ينقضِ على وصوله إلى (بير العياضية) سوى ليلة واحدة.

عندئذ جاء اليهود وهاجموا قرية (البروة)، واحتلوها ثانية. وكان معهم يومئذ عدد كبير من الدروز.

وبعد البروة هاجم اليهود قرية (شَعَب). فاحتلوها، وهدموا عدداً من منازلها، ثم ساروا إلى الأمام، فاحتلوا (الدامون). وهدوها، فجعلوا عاليها سافلها...

وجاءت قوات يهودية أخرى من ناحية صفد. فاحتلت (المغار). وكان القاوقجي قد انسحب منها قبل ساعات. وما كاد القاوقجي يسحب مدافعه من (الليات) حتى سقطت هذه أيضاً بيد اليهود.

وانسحب القاوقجي بعدها إلى ما وراء الحدود.

جيش الإنقاذ والمناضلون في الجليل [١٠]

بعد انسحاب جيش الإنقاذ من المثلث في فلسطين بعد ١٥ أيار ١٩٤٨ حيث دخلت القوات العراقية والأردنية صدرت الأوامر من القيادة العربية إلى فوزي القاوقجي بنقل قوات جيش الإنقاذ إلى منطقة الجليل شمال فلسطين لدعم الجيش اللبناني هناك، وبعد طرد الصهاينة من بلدة المالكية وضواحيها التي اشتركت فيها قوات جيش الإنقاذ مع القوات اللبنانية والسورية تقدمت قوات جيش الإنقاذ حيث رابطت في مناطق مختلفة في الجليل وأكثر مواقعها تقدماً للجنوب كانت مدينة الناصرة.

كان يدافع عن منطقة شمال فلسطين المناضلون من أبناء تلك القرى وتقدم لهم المساعدات من سلاح وذخائر ضمن طاقتها الهيئة العربية العليا، وكان في مقدمة هؤلاء أبو إبراهيم الذي كان يقود حوالي (٢٥٠) مناضلاً ومنهم إبراهيم الشيخ خليل (أبو إسعاف)، وكان أبو إسعاف هذا من قادة المناضلين في حيفا (كان قسامياً) وذهب مع وفد يرأسه صبحي الخضرا إلى ليبيا لشراء أسلحة لأبناء حيفا بمعرفة الحاج أمين الحسيني، ولما عاد من ليبيا وحين كان في ميناء صور كانت مدينة حيفا قد سقطت في يد الصهاينة، فصدرت التعليمات من الحاج أمين الحسيني لإبراهيم الشيخ خليل (أبو إسعاف) بالتوجه بأسلحته التي أحضرها من ليبيا من صور إلى قرية شَعَب بقضاء صفد (قضاء عكا) حيث يكون مشرفاً على الدفاع عن تلك المنطقة وتوزيع السلاح على المناضلين.

وصل أبو إسعاف إلى قرية شَعَب ومعه أربع قاذفات ضد الدروع وستة رشاشات بُرن وذخائر وقنابل يدوية وثلاثة مدافع هاون، وقد عاونه في تلك المنطقة كل من مصطفى الطيار ونمر الخليل وأحمد الخطيب وطه اليوسف ومنيب فاعور وموسى الشيخ محمد ومحمود رشيد حمزة وعبد الملك الفاعور ومحمد موسى الأسدي وسعيد صالح الأسدي ويوسف الكيالي.

القوات الإسرائيلية تحتل قرية البروة

في ١١ حزيران ١٩٤٨ قامت القوات الإسرائيلية بهجوم صاعق على قرية البروة الواقعة شرق مدينة عكا بحوالي عشرة كلم، وتمكنت من احتلالها بعد أن تغلبت على المقاومة العنيفة التي أبداها المناضلون من أبناء القرية القليلي العدد والسلاح، وفي ١٣ حزيران ١٩٤٨ قام المناضلون من أبناء القرى المجاورة وفي مقدمتهم مناضلو قرية شَعَب بقيادة إبراهيم الشيخ خليل (أبو إسعاف) بهجوم معاكس وعنيف على الصهاينة في قرية البروة ودارت معركة استمرت لمدة يومين متتاليين أسفرت عن استشهاد ٢١ مناضلاً عربياً وإصابة ٣٥ عربياً آخر بجراح وقتل من الإسرائيليين ٢٦ إسرائيلياً بقيت جثثهم في أرض المعركة.. وتم تحرير قرية البروة.

وفي ١٤ حزيران ١٩٤٨ وصلت قوة من جيش الإنقاذ بقيادة النقيب سعدون ومساعده الملازم

مشهور حيمور.. وقال إن جيش الإنقاذ سيدافع عنها وهو المسؤول عن حمايتها.. وفي ٢٤ حزيران ١٩٤٨ قامت القوات الإسرائيلية بهجوم جديد على قرية البروة وطردت جيش الإنقاذ منها وأتمت احتلالها.

معركة ميعار

بعد احتلال الصهاينة لقرية البروة هاجمت القوات الإسرائيلية قرية ميعار واحتلتها بعد مقاومة شديدة من أبنائها، ولما كانت قرية شَعَب تقع قرب قرية ميعار وبعد أن شاهد أهلها احتلال الصهاينة لقرية ميعار تركوا قريتهم شَعَب وخرجوا إلى الجبال المجاورة، وما إن شاهد الصهاينة أن أهالي شَعَب قد تركوها تقدموا نحوها واحتلوها بدون عناء.

وعلى الأثر قام المناضلون بقيادة أبو إسعاف بهجوم معاكس تمكنوا من خلاله السيطرة على قرية شَعَب، مما اضطر الإسرائيليين إلى الانسحاب من القرية إلى الهضاب المجاورة والمحيطة بقرية شَعَب وأقاموا حولها حصاراً وأصبحوا يطلقون النار على المارة في الطرق الموصلة إلى القرية.

وهنا تدخل مراقبو هيئة الأمم المتحدة الذين كان يرافقهم المقدم محمد صفا من ضباط جيش الإنقاذ المتمركز في مجدل الكروم وحاولوا إقناع الإسرائيليين بالانسحاب عن المرتفعات المحيطة بالقرية ولكن الصهاينة رفضوا الانسحاب.

بعد أن رفض الإسرائيليون الانسحاب قام المناضلون بقيادة أبو إسعاف بمهاجمتهم، لكن الإسرائيليين أحضروا نجدات وقاموا بهجوم قوي على المناضلين الذين كادت ذخيرتهم تنفد وأصيبوا بخسائر جسيمة ورغم طلبات النجدة لجيش الإنقاذ القريب من المعركة إلا أنه رفض التدخل بدعوى عدم وجود أوامر من القاوقجي، وكانت مقاومة المناضلين في طريقها إلى النهاية، وهنا هرعت جموع كثيرة من النساء والأطفال من أهالي شَعَب وميعار إلى مقر قيادة جيش الإنقاذ مستصرخة إياها بالنجدة، لكن المقدم شوكت صاح بهن: ما عندي أوامر ورفض النجدة، ومن خلال هذا المنظر تحمس حوالي مائة من أبناء حَماة الشجعان واعترضوا على المقدم شوكت وقالوا: هل تموت النساء ونحن نتفرج على المسرحية، نريد دخول المعركة، ولما رفض المقدم شوكت تمردوا عليه وحملوا سلاحهم ونظموا صفوفهم وهاجموا القوات الإسرائيلية، ودبّ الحماس في قوات المناضلين الذين أيضاً وزعوا عليهم ذخائر وزغردت النساء واشتبك هؤلاء الشباب ومعهم المناضلون مع القوات الإسرائيلية في معركة عنيفة أسفرت عن هزيمة الصهاينة وطردهم عن المرتفعات وإبعادهم عن قرية شَعَب تاركين خلفهم جثة قائدهم (سيغف) و٢٤ جثة معه عدا ما نقله الصهاينة معهم أثناء انسحابهم من القتلى والجرحى.

وحين عاد مراقبو الهدنة لوقف القتال كان الإسرائيليون يتمركزون على مرتفع مزروع بالأشجار يعرف باسم راس الزيتون ويشرف على منطقة تقدر مساحتها بعشرة كلم٢، وتم بواسطة مراقب الهدنة انسحابهم عن المرتفع والمنطقة مقابل تسليم جثة قائدهم سيغف وباقي الجثث المبعثرة في أرض المعركة وهكذا تم انسحاب الصهاينة عن منطقة شَعَب..

* * *

(١) مجلة الأمان اللبنانية، العدد ٤٥١، ١٣-٤-٢٠٠١، إثر صدور قرار الحكومة اللبنانية بمنع الفلسطيني من حق التملك في لبنان مخافة التوطين.

(٢) Nafez Nazzal - The Palestinian Exodus From Galelee 1948- Institution For Palestine Studies - 1978 - Pages 86 to 90

(٣) الفلاحون الفلسطينيون: من الاقتلاع إلى الثورة، روز ماري صايغ، مؤسسة الأبحاث العربية - ١٩٨٠، ترجمة خالد عايد، الصفحات ١٧-٢٠.

(٤) مجلة البراق، العدد الرابع، حزيران ٢٠٠٤، ص ١٦.

(٥) ريم عبيدو على موقع www.moqawama.net ، وذلك في الذكرى الخمسين للنكبة.

(٦) «عالم ليس لنا» مجموعة قصصية لغسان كنفاني، الطبعة الرابعة عام ١٩٨٤، صفحة ١٥١، كتب القصة في بيروت ١٩٦٥ كما يشير في تذييله لها.

(٧) هي رواية من ٥٢٧ صفحة، صدرت الطبعة الثانية عام ١٩٩٨، كذلك الطبعة الأولى.. استقى فيها الكاتب معلوماته من المصادر والمراجع والروايات الشعبية والمقابلات الحية، خاصة مع سعيد صالح عبد الهادي (الأسدي).. وكان من رجال حامية شَعَب. (انتبه إلى أنها رواية ممتعة، اقتضت أصولها تغيير بعض الأحداث أو تعديل سياقها أو تغيير مسمياتها، ولكنها تعتمد على معلومات حقيقية وموثقة..). وقد أنجزت هذه الرواية سينمائياً عبر شريطين من إخراج المخرج المصري يسري نصرالله، وسيناريو وحوار إلياس خوري ومحمد سويد.

أما الجمل التي يحيطها قوسان فهي ملاحظاتنا على الاقتباسات.. وأورد قصة شَعَب من الرواية لإظهار مدى اهتمامها بها، وإذا كان هناك ملاحظات أعقب بها.

(٨) عارف العارف: كتاب النكبة - نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود (١٩٤٧-١٩٥٢)، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الجزء الثاني - الصفحات ٤٢٥-٤٢٦-٤٢٧.

(٩) في هامش كتاب النكبة «عند مفرق الطرق المؤدية إلى كفرياسيف ومجد الكروم وطمرة وشَعَب».

(١٠) نجيب الأحمد: كتاب فلسطين تاريخاً ونضالاً- كتاب عن تجربة شخصية ووثائق - دار الجليل للنشر عمان - الطبعة الأولى ١٩٨٥ - ص٥١٠ حتى ٥١٣.

الفصل الثالث
رابطة عموم أهالي شَعَب[1]

لم ينسَ أهل شَعَب بلادهم وظلت الروابط العائلية بعد النكبة وثيقة بينهم، ويشهد لهم أن أفراحهم وأحزانهم تجمع شمل أهل البلد، بعد أن انشغل الناس بأعمالهم وتشتت شملهم وكثر عددهم، وقلّ تزاورهم..

كما شهدت الأعوام الأخيرة تخفيضاً في خدمات وكالة غوث وتشغيل اللاجئين الفلسطينيين، وازداد الفقراء فقراً والمحتاجون حاجة، مما أكد أن الحاجة باتت ملحّة لتشكيل هيئة تعاونية بين أهل البلد، تجمع شملهم وتلمّ شتاتهم وتساعد محتاجهم وتعود مريضهم وتقوم بواجبات الفرح والحزن..

لذلك تنادت مجموعة من أهل شَعَب في العام ١٩٩٨ للقاء، واجتمعوا في منزل المرحوم علي الحاج سعيد طافش في مخيم برج البراجنة، وحضر الاجتماع ما بين ٣٠ – ٤٠ شخصاً، وتشكلت من بينهم الهيئة التأسيسية الأولى من كل من (مع حفظ الألقاب): علي خالد – عمر حمزة – محمد محمود حسين – أحمد كمال حسين – سليم الخطيب – عمر حميد – نمر أيوب – بهاء حسون – سليم عبد اللطيف..

وقد جمّد محمد محمود حسين عضويته، واعتذر أحمد كمال حسين عن متابعة نشاطه بسبب انشغالاته، وحل كمال شحيبر مكان سليم الخطيب الذي اعتذر بسبب السنّ والمرض..

وقد تأسست الرابطة في الأول من أيلول من العام ١٩٩٨، على أساس العمل التطوعي للعاملين فيها والانتساب الاختياري لأهل البلد..

ولأن الروابط والجمعيات تحتاج إلى علم وخبر من الدولة اللبنانية، فإن الرابطة لا يمكنها العمل خارج المخيمات بشكل رسمي.. كما أن الرابطة لا تعتمد إلا على التبرعات والاشتراكات حيث نأت بنفسها عن الأحزاب والفصائل وكل ما يمكن أن يرهن قرارها لغير أهل البلد..

وقامت الرابطة بصياغة النظام الداخلي منذ البداية معتمدة على أكثر من نظام داخلي لعدد من الجمعيات المعتمدة رسمياً لدى الدولة اللبنانية..

وقد بلغ عدد أعضاء الرابطة في السنة الأولى (١٩٩٨) ١٥٢ عائلة، تدفع كل عائلة اشتراكاً شهرياً يبلغ خمسة آلاف ليرة لبنانية، أو سنوياً بقيمة ستين ألف ليرة لبنانية فقط لا غير..

وللاطلاع على طريقة عمل الرابطة، من المفيد أن نورد هنا بعض المعلومات التي أوردها التقرير السنوي الأول حول سير أعمالها وأموالها.

فقد أكد التقرير على أن عضوية الهيئة الإدارية عمل تطوعي لا مردود مالياً للمتطوع فيه، والانتساب إلى الرابطة عمل اختياري لا يلزم به أحد. وذكر التقرير أن النظام الداخلي تم استخلاصه من أنظمة داخلية موجودة ومعتمدة لدى الدولة اللبنانية، وقامت الرابطة بطبع وصولات القبض والدفع، وشراء كراسي، وأن محمود الغانم قد تبرع بمعاميل القهوة عن روح ابنه أكرم.. وأن محمد محمود أبو عرب تبرع بغرفة لوضع الأغراض فيها، أما عدد الكراسي فقد أكمله الأستاذ محمد الأسعد.

وفي العام الأول للرابطة، اقتصر عملها على: إصلاح ذات البين، حل بعض المشاكل بين أبناء البلد، المشاركة بالأفراح والعزاء، زيارة المرضى والمسافرين. ولم يكن قد بدأ التبرع للمرضى والمحتاجين، التزاماً بقرار اتخذته الهيئة الإدارية بعدم التبرع قبل توفّر مبلغ كاف لتسيير شؤون الرابطة.. ولم يصرف من المبالغ التي جمعت إلا الحاجات الضرورية فقط.

أما المنتسبون فكانت الغالبية من بيروت وضواحيها، وقد انتسبت عائلات جديدة، واعتذرت عائلات عن المتابعة، وتنتظر الرابطة ممن لم ينتسب بعد أن يسجل انتسابه فيها.

أما مالية الرابطة فقد حرص التقرير السنوي الأول (كما كل التقارير اللاحقة) على ذكر المبالغ الموجودة والداخلة والمصروفة، فكانت المبالغ على الشكل التالي:

مدخول السنة الأولى: ٨٧٨٢٠٠٠ ليرة لبنانية فقط لا غير.

مصروف السنة الأولى: ١٧١٩٠٠٠ ليرة لبنانية فقط لا غير (كراسي ومطبوعات ولوازم).

الباقي في صندوق الرابطة: ٧٠٦٣٠٠٠ ليرة لبنانية فقط لا غير.

هذا وقد أضافت الرابطة في السنوات التالية بند مساعدة المرضى والمحتاجين في العمليات الجراحية وحالات الفقر الشديد..

أما الرابطة اليوم – يختم الأستاذ علي الخالد (أبو أنور)- «بالنسبة لوضع الرابطة، ما دام الخير في الناس موجوداً فستبقى مسيرتها مستمرة وطريقها مضيئة..».

النظام الداخلي
لرابطة عموم أهالي شَعَب[٢]

بسم الله الرحمن الرحيم

قال تعالى: (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

وقال أيضاً: (وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعانوا على الإثم والعدوان ومعصية الرسول).

صدق الله العظيم

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (إن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه).

انطلاقاً من أواصر الأخوة والمحبة التي تربط أهالي شَعَب وإدراكاً لخصوصية الوضع الذي نعيشه والذي يربطنا بعلاقات اجتماعية متينة، وإيماناً منا بأنه لا يمكن أن نحافظ على هذا الترابط والتماسك والتواصل إلا من خلال تشكيل رابطة اجتماعية، فقد تنادت العائلات المكوِّنة لأهالي شَعَب وأعلنت تشكيل رابطة اجتماعية لأهالي شَعَب، هدفها تعميق أواصر المحبة والتراحم والتعارف والتواصل والتعاون وعمل الخير لجميع أهالي البلدة ضمن إطار المبادئ الآتية:

١- إن الرابطة غير مسيّسة ومستقلة بأهدافها وآرائها وقدراتها وغير مرتبطة بالتبعية لأي هيئة أو فئة سياسية أو أي شخص يشار إليه.

٢- إن الرابطة تلتزم وتحترم جميع قوانين البلد المضيف.

٣- تتكون الرابطة من جميع الأشخاص المنتسبين إليها ويطلق عليها اسم الجمعية العمومية.

٤- يحقّ لكل ربّ أسرة الاشتراك بالرابطة عن طريق الانتساب، على أن يكون موافقاً وملتزماً بالنظام الداخلي التأسيسي للرابطة.

٥- الرابطة ليست شركة تأمين، وليست مسؤولة عن أي عمل مشين أو أهداف مفتعلة من أي منتسب، إذ تعود هذه الأعمال والأحداث بنتيجتها على المنتسب ولا تعود على الرابطة.

٦- الرابطة غير مسؤولة من النواحي المادية عن أي عمل ينتج عنه أي جرم قضائي، خاصة إذا كان متعمداً مهما كبر حجمه أو صغر.

٧- أنشئت الرابطة في الربع الأخير من سنة ١٩٩٨، وبذلك فهي غير مسؤولة عن أي حادث أو مشكلة حصلت قبل هذا التاريخ، ولا تتحمل مسؤولية عن أي تقصير نتج عن ذلك.

الهيكلية التنظيمية الإدارية

أولاً:

الجمعية العمومية: وتضم جميع أعضاء الرابطة العاملين فيها والمنتسبين لها. وتجتمع الجمعية العمومية في كل منطقة مرة كل سنتين من أجل انتخاب لجنة المنطقة.

ثانياً:

لجـان المناطـق: وهي اللجان المنتخبة في جميع المناطق من قبل الجمعية العمومية في كل منطقة، وتجتمع هذه اللجان مرة كل سنتين لانتخاب الهيئة الإدارية للرابطة.

عملهـا: تقـوم كل لجنـة منطقـة بتصريف أعمـال الرابطة ضمـن المنطقة المتواجـدة فيها وضمن إطار الصلاحيات المعطاة لها من قبل الهيئة الإدارية، وتجتمع كل شـهر مرة وحيث تدعو الحاجة.

ثالثاً:

الهيئـة الإداريـة: تتكون من ممثلين عن لجـان المناطق عن طريق الانتخـاب، وتكون المرجع الأول لإدارة شؤون الرابطة على أن يتميز أعضاؤها بالإخلاص، الأخلاق، الصدق والأمانة، وتكون مدة عملها سنتين من تاريخ الانتخاب.

عـدد أعضائهـا: تتكـون من خمسـة عشـر عضواً مـن جميع المناطق حسـب الكمّ السـكاني للمنتسبين. ويتألف منها عدد من اللجان:

١- لجنة مالية.

٢- لجنة اجتماعية – إصلاح.

٣- لجنة ثقافية – رياضة.

تجتمع الهيئة الإدارية مرة كل ثلاثة أشهر فيما عدا الحالات الطارئة حيث تدعى للاجتماع من قِبل الرئيس.

تكـون الهيئـة الإداريـة مسـؤولة مسـؤولية تضامنيـة عـن كل ما يعـود للرابطة مـن أموال وممتلكات ومصروفات وما شابه ذلك.

عمل اللجان

اللجنة المالية:

١- تشـرف اللجنـة الماليـة علـى جميـع أمـوال الصنـدوق والأمـوال العائـدة للرابطـة من الاشتراكات والتبرعات والمساعدات التي تقدم للصندوق.

٢- تقوم بالإشراف على جميع الاشتراكات من الأعضاء وتسليمها للمحاسب بعد التدقيق بالإيصالات المصدرة.

٣- تقوم بإيداع أموال الصندوق في أحد المصارف باسـم ثلاثة أشـخاص مختارين من قبل الهيئـة الإداريـة، ويكونـون مسـؤولين مسـؤولية كاملة تضامنية عـن مجموع الأمـوال التي تودع بأسـمائهم ولا يتم سـحب أي مبلغ من المال إلا بتوقيع عضوين من أصل ثلاثة، وذلك بطلب من الهيئة الإدارية.

٤- وتقوم اللجنة بتقديم تقرير مالي عن إيرادات ومصروفات وموجودات الصندوق كل ثلاثة أشهر، ويحق لكل عضو منتسب الاطلاع عليه وتقديم طلب خطي في حال وجود أي اعتراض من جانبه.

اللجنة الاجتماعية:

١- مهمتها التحري والاطلاع والتعرف على أوضاع العائلات المعيشية والصحية وتقديم تقرير للهيئة الإدارية مرفقاً برأي اللجنة حول أي وضع اجتماعي.

٢- تقوم اللجنة بإصلاح ذات البين في حال حصول أي خلاف بين أبناء البلد، وللهيئة الإدارية الصلاحية بتكليف أي شخص تراه مناسباً من خارج الهيئة الإدارية للقيام بهذا العمل مع اللجنة الاجتماعية.

٣- تقوم بجميع الأعمال الاجتماعية التي تسند إليها.

اللجنة الثقافية:

تقوم بجميع المهام التي تسند إليها من قبل الهيئة الإدارية، مثال:

١- إعداد كتيب عن تاريخ وتراث بلدة شَعَب.

٢- إعداد كتاب عن أسماء جميع أهل البلد.

٣- التعرف على الكفاءات العلمية ضمن أبناء أهل البلد والاستفادة من خبراتها.

٤- العمل على التوعية وبث روح المحبة والمعرفة ضمن أبناء أهل البلد، وذلك من خلال إصدار منشورات خاصة بذلك.

العضوية:

الواجبات والحقوق:

الحقوق:

يحق لكل منتسب الآتي:

١- الاستفادة من أموال الصندوق ضمن القوانين المنصوص عليها في النظام.

٢- أن يناقش بحرية تامة ضمن الأطر المنبثقة عن الرابطة.

٣- أن يَنتخب ويُنتخب في الهيئات المنبثقة عن الرابطة.

٤- أن يتوجه ضمن الأطر بأي شكوى أو سؤال أو اقتراح ويتلقى جواباً مقنعاً على ذلك.

٥- أن تدافع عنه الرابطة في حال تعرضه لأي ضرر (اعتداء).

٦- يحق لكل عضو ترك الرابطة ويعتبر تاركاً في حال امتناعه عن تسديد الاشتراك لمدة ثلاثة أشهر متتالية دون أي سبب وجيه، ولا يحق له في حال انسحابه بأي الطرق أن يسترجع الاشتراكات التي دفعت.

الواجبات:

١- أن يسدد الاشتراكات المقررة.

٢- أن يعمل على تدعيم تماسك الرابطة وأبناء البلد.

٣- أن يمارس الانتقاد والنقد الذاتي، ويكشف عن أي عيوب أو نواقص وأخطاء تضرّ بالرابطة وأبنائها.

٤- أن يطبق وينفذ ما يصدر عن الرابطة بكل أمانة واستقامة، ويقوم بتنفيذ أي تكليفات تحدد له.

٥- أن يحافظ على ممتلكات الرابطة ويكون أميناً عليها وأن يساهم في تنمية الموارد المالية لها.

أهداف الرابطة:

تسعى الرابطة لتحقيق الأهداف التالية:

١- العمل بكل جهد من أجل تعزيز أواصر القربى والمحبة واستعادة اللحمة بين جميع أبناء أهالي شَعَب ومزيد من التعارف والتعاون بينهم وخاصة جيل الشباب.

٢- إنشاء صندوق مالي يكون عماده وركيزته الاشتراكات الشهرية من الأعضاء والتبرعات الطوعية بدون أي شروط.

٣- تقديم المساعدات المالية لأي عائلة من الأعضاء تصاب بأزمة كبيرة ولا طاقة لها على تحملها نظراً لحالتها المادية السيئة... والمقصود بالأزمة الكبيرة: (مصيبة نتيجة: المرض – الوفاة – حصول كوارث طبيعية – أو لا إرادية)، على أن يتم ذلك بعد مضي سنتين على إنشاء الصندوق، وضمن إمكانية الصندوق للمساعدة.

٤- تقديم المساعدة للمقعدين والمقطوعين عن معيلهم والعجزة والعاجزين عن تحصيل قوتهم الضروري.

٥- شراء بعض الحاجيات الضرورية لاستخدامها في المناسبات العامة: شراء كراسي – طاولات – لوازم الضيافة.

٦- النظر من قبل الهيئة الإدارية في طريقة وشكل تقديم المساعدات للعائلات المحتاجة.

٧- إمكانية البحث مستقبلاً عن أي مشاريع إنتاجية قد تعود بالفائدة على الصندوق.

وعلى الأعضاء الكرام مراعاة التالي:

١- علـى أي منتسـب إلى الرابطة أن لا يتكل كلياً علـى إمكانياتها، ويجب طرق كل الأبواب للاستفادة منها أولاً، خاصة في حالات المرض ومن ثم اللجوء إلى الصندوق.

٢- علـى أي عضـو منتسـب أن يضـع جميـع إمكانياتـه وعلاقاتـه الاجتماعيـة فـي خدمة ومساعدة المصلحة العامة للرابطة.

٣- في حال تم حلّ الرابطة فإن كافة الممتلكات والأموال العائدة لها توزع على أكبر عدد من العائلات المحتاجة والأيتام الذين لا معيل لهم والأشخاص المقعدين والمصابين بأمراض خطيرة على أن تقرر النسبة من قبل الهيئة الإدارية قبل حلها.

انتهى النظام الداخلي لرابطة عموم أهالي شَعَب.

* * *

(١) مقابلة مع الأستاذ علي الخالد (أبو أنور) في منزله في صبرا مساء السبت ١٩-٣-٢٠٠٥.

(٢) منشور أصدرته «رابطة عموم أهالي شَعَب» بالعنوان نفسه.

قائمة المصادر والمراجع

الكتب العربية:

- إبراهيم فريد الدرّ: شفاعمرو- فسطاط صلاح الدين،، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨٨.

- إبراهيم يحيى الشهابي: لوبية - شوكة في خاصرة المشروع الصهيوني، دار الشجرة، دمشق، الطبعة الثانية ١٩٩٨.

- أحمد خليفة (ترجمة): حرب فلسطين الرواية الإسرائيلية الرسمية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، نيقوسيا، قبرص، ١٩٨٤.

- إلياس خوري: رواية باب الشمس، دار الآداب، الطبعتين الأولى والثانية ١٩٩٨.

- أنيس صايغ: بلدانية فلسطين المحتلة (١٩٤٨-١٩٦٧)، ضمن سلسلة كتب فلسطينية - ٩، مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت - لبنان، كانون الثاني (يناير) ١٩٦٨.

- بيان نويهض: القيادات والمؤسسات السياسية في فلسطين (١٩١٧-١٩٤٨)، موسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٨١.

- حسين علي لوباني: الدامون - قرية فلسطينية في البال، دار العربي، الطبعة الأولى، بيروت ١٩٩٩.

- خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، الطبعة العاشرة، بيروت، أيلول ١٩٩٢.

- ديفيد بن غوريون: يوميات الحرب ١٩٤٧ - ١٩٤٩، مؤسسة الدراسات الفسطينية، تحرير غيرشون ريفلين وإلحنان أورن، ترجمة سمير جبور، ومراجعة صبري جريس، بيروت، الطبعة الأولى، أيلول ١٩٩٣.

- روز ماري صايغ: الفلاحون الفلسطينيون من الاقتلاع إلى الثورة، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ١٩٨٠، ترجمة خالد عايد.

- زهير غنايم: لواء عكا في عهد التنظيمات العثمانية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى حزيران/يونيو ١٩٩٩.

- سلمان أبو ستة: حق العودة مقدس وقانوني وممكن، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ٢٠٠١.

- سميح حمودة: عز الدين القسام - الوعي والثورة، دار الشروق عمان، الطبعة الثانية ١٩٨٦.

- شكري عراف: القرية العربية الفلسطينية - مبنى واستعمالات أراض، الطبعة الثانية ١٩٨٢، مطبعة أوفست حسن أبو دلّو، بيت صفافا ٥١ القدس.

- صبحي ياسين، الثورة العربية الكبرى في فلسطين (١٩٣٦- ١٩٣٩)، دمشق، (د.ت).

- عارف العارف، كتاب النكبة: نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود (١٩٤٧-١٩٥٢)، منشورات المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، الجزء الثاني، (د.ت).

- غسان كنفاني: مجموعة القصص القصيرة (عالم ليس لنا)، مؤسسة الأبحاث العربية، الطبعة الرابعة، بيروت، ١٩٨٤.

- فلاح خالد علي: الحرب العربية الإسرائيلية ١٩٤٨-١٩٤٩ وتأسيس إسرائيل، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، سنة ١٩٨٢.

- الفيروزآبادي محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٩٨٧.

- قسطنطين خمّار: موسوعة فلسطين الجغرافية، مركز الأبحاث - منظمة التحرير الفلسطينية، بيروت، شباط ١٩٦٩.

- محمد محمد حسن شرّاب: معجم البلدان الفلسطينية، الدار الأهلية، الطبعة الثانية، عمان، الأردن، ١٩٩٦.

- محمد حسن عبد العال: الغابسية - الشيخ داود - الشيخ دنون، سلسلة «باقيات ما بقينا»، اللجنة الفلسطينية للثقافة والتراث - لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٩.

- محمد عمر حمادة: أعلام فلسطين من (القرن الأول حتى الخامس عشر هجري، من القرن السابع حتى العشرين ميلادي)، دار قتيبة، دمشق، ١٩٨٥.

- محمود عبدالله كلّم: ناجي العلي - كامل التراب الفلسطيني، مكتبة بيسان، بيروت، ط١، ٢٠٠١.

- محمود يوسف دكور: قديثا - بركان الجبل، سلسلة «باقيات ما بقينا»، اللجنة الفلسطينية للثقافة والتراث، الطبعة الأولى ٢٠٠١.

- مصطفى مراد الدباغ: بلادنا فلسطين، من مطبوعات رابطة الجامعيين في محافظة الخليل. نسخة صورتها الشركة الدولية للطباعة والنشر (عمان - الزرقاء - المنطقة الحرة). الطبعة الأولى صدرت سنة ١٩٧٤ عن دار الطليعة في بيروت على نفقة المؤلف الذي يملك جميع الحقوق.

- مصطفى العباسي: صفد في عهد الانتداب البريطاني (١٩١٧-١٩٤٨) - دراسة اجتماعية وسياسية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، الطبعة الأولى، بيروت، حزيران/يونيو ٢٠٠٥.

- موسى مطلق إبراهيم: شَعَب - قراءة جديدة في الإنجيل والقرآن، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٨.

- نجيب الأحمد: فلسطين تاريخاً ونضالاً، دار الجليل للنشر-عمان، الطبعة الأولى، آذار ١٩٨٥.

- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار صادر، الجزء الثالث، بيروت.

الكتب الأجنبية:

Nafez Nazzal, The Palestinian Exodus From Galelee 1948, Institution For Palestine Studies, 1978.

جرائد ومجلات:

- جريدة السفير، بيروت، الأحد ٢٦/١٠/١٩٨٠.
- مجلة الأمان اللبنانية، العدد ٤٥١، بيروت، ١٣-٤-٢٠٠١.
- مجلة البراق، العدد الرابع، بيروت، حزيران ٢٠٠٤.
- مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد ٤٦/٤٥، شتاء ربيع ٢٠٠١.

وثائق

- كتيب صدر عن فعاليات حفل التأبين ورسائل التعزية ولجنة تأبين سعيد صالح عبد الهادي في دير الأسد.
- نجيب الطيار: مفكرة يومية خاصة سجل فيها أحداث العام ١٩٤٨.
- منشور أصدرته «رابطة عموم أهالي شَعَب» بالعنوان نفسه.
- أوراق ووثائق من تراث الشاعر الفلسطيني يوسف حسون.

إنترنت

- ريم عبيدو، كيف يعيش فلسطينيو الجليل في شَعَب ودير الأسد وترشيحا، تقرير في ذكرى النكبة، على موقع www.moqawama.net على الإنترنت.
- موقع صابرون على الإنترنت www.sabiroon.org.
- موقع ذاكرة فلسطين على الإنترنت على الرابط التالي:
www.palestineremembered.com
- موقع مؤسسة فلسطين للثقافة على الرابط التالي:
www.thaqafa.org
- موقع شبكة فلسطين للحوار على الرابط التالي:
www.paldf.net

قائد حامية شعب «أبو إسعاف» إبراهيم الشيخ خليل.

مصطفى الطيار أمام منزله في شعب مع محمد ياسين فاعور ١٩٤٥.

نجيب الطيار يتوسط تلاميذه في مدرسة الدامون سنة ١٩٤٢.

الجلوس من اليمين في إحدى مقاهي عكا ١٩٤٧ مصطفى الطيار (أبو العبد)، كمال أحمد الحسين (أبو سمير)، أحمد الحسين (أبو أحمد).

وقوفاً: أبناء ياسين فاعور، فرج وفضل ومحمد

جلوساً: محمد فرج فاعور، ياسين فاعور، إبراهيم ياسين فاعور، جمال وياسين فاعور.

من اليمين وقوفاً: أبناء ياسين فاعور، فرج وإبراهيم ومحمد. جلوساً: أحمد ياسين فاعور.

مصطفى الطيار مع مجموعته التي ضمت أربعة من العرب واثنين من الإنجليز.

مصطفى الطيار في أثناء الخدمة بين زميليه ويتني وباتمان في ناتانيا في ٢٦-٥-١٩٤٤.

بطاقة البوليس الخاصة بمصطفى الطيار.

غلاف دفتر نجيب الطيار لسنة ١٩٤٨.

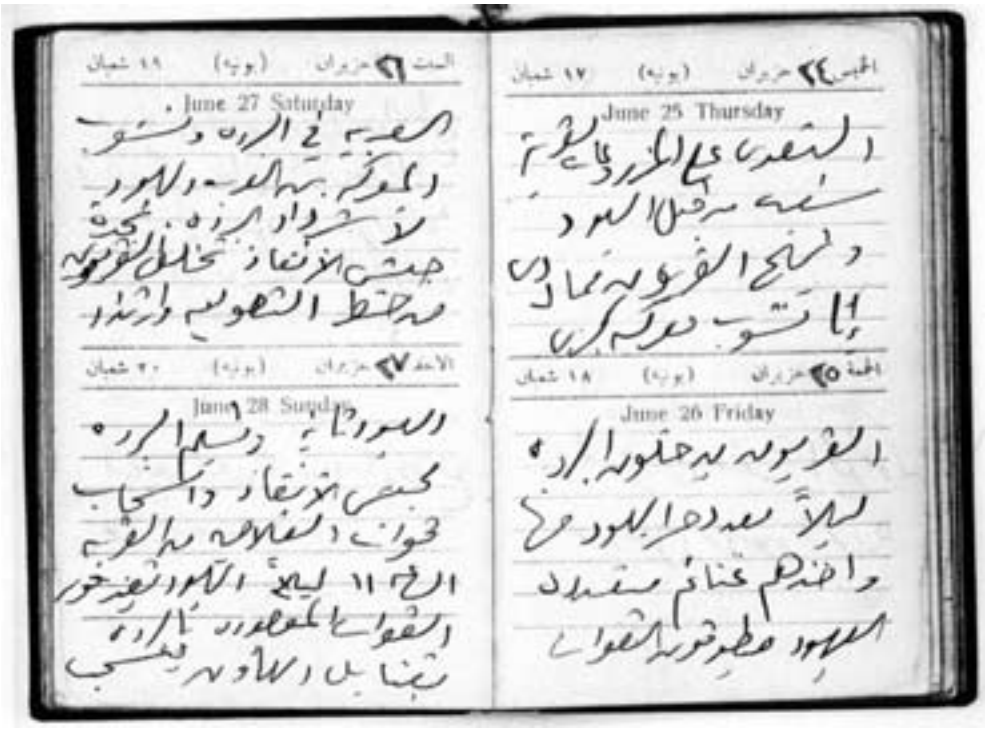

من مفكرة نجيب الطيار (٢٤-٢٧ حزيران ١٩٤٨) يوثق سقوط البروة.

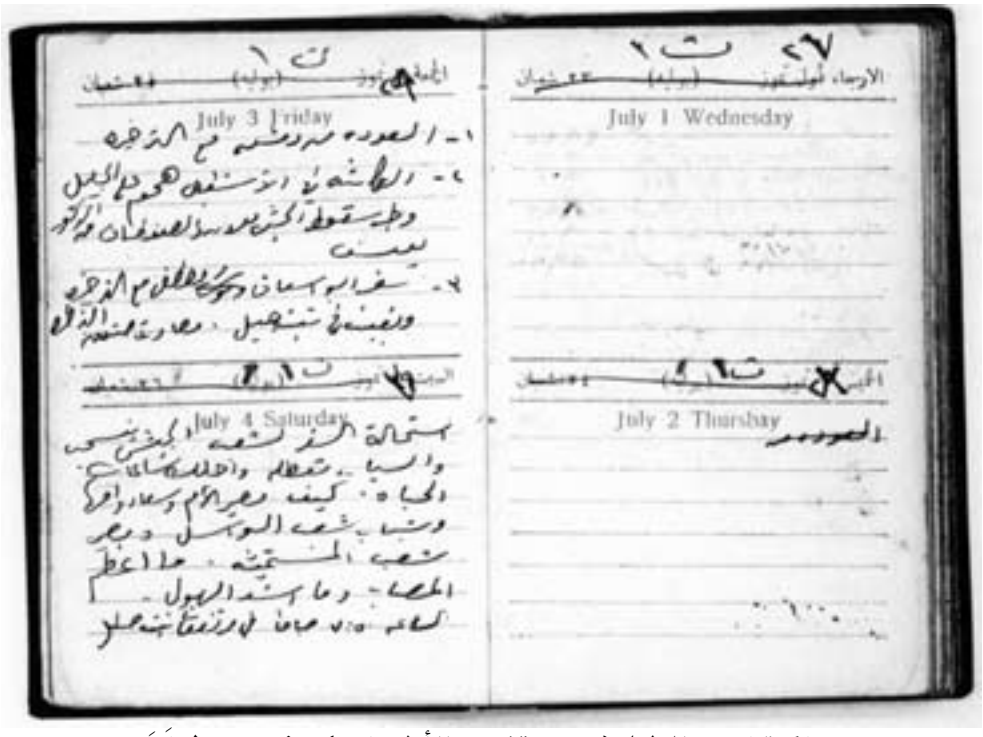

من مفكرة نجيب الطيار (٢٧-٣٠ تشرين الأول ١٩٤٨) يوثق سقوط شَعَب.

طريق النزوح - ١

وهو االطريق الذي سلكته حامية البلد (راجع صفحة ٢١١).

طريق النزوح - ٢

وهذا الطريق يلتقي بالطريق الأول في قريتين فقط؛ البعنة وكسرة (راجع صفحة ٢١١).

طريق النزوح -٣

ولم يلتقِ بالخطين السابقين إلا في قرية البعنة، وأصعب مراحله طلعة الجرف

(راجع صفحة ٢١٢).

طريق النزوح -٤: حيث أُلقي بعدد من المسنين في مرج ابن عامر ومات معظمهم غرقاً في وحول قرية «زبوبا» (راجع صفحة ٢١٢).

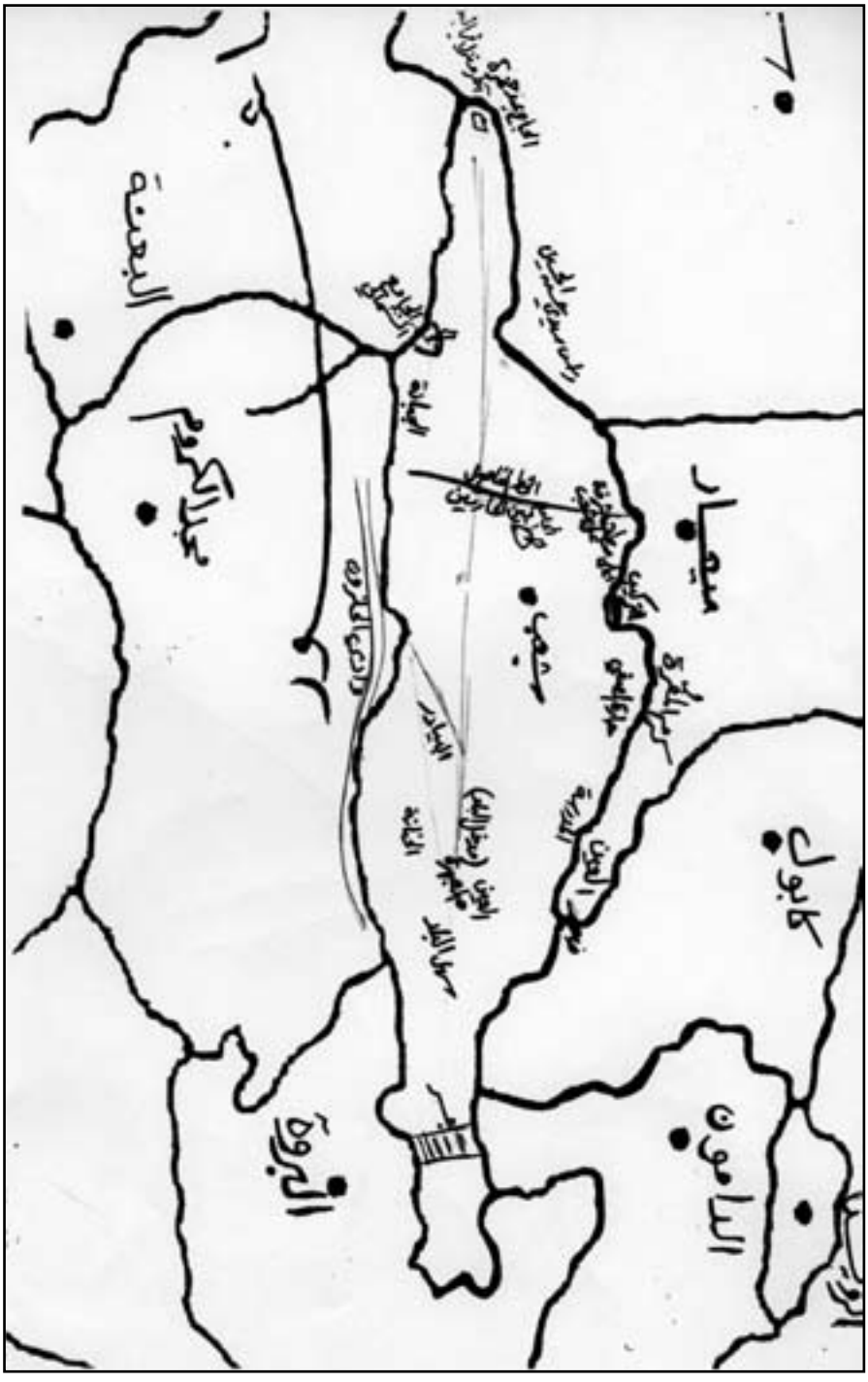

رسم تقريبي لمعالم شَعَب الرئيسية.

للتفاصيل يرجى الاطلاع
على الصفحتين التاليتين

راوي الكتاب أحمد محمد علي (أبو هاني)

راوية الكتاب سعاد صالح حسين (أم هاني)

الشاهدة سعاد أمين حميد (أم علي)

الشاهدة حنيفة صالح حسين (أم أكرم)

الشاهدة نعمات ماهل الخطيب (أم شوقي)

الشاهد علي طه الخالد (أبو أنور)

سعيد صالح عبد الهادي الأسدي (أبو صالح)

الشاعر يوسف حسون (أبو العلاء)

منظر عام لقرية شعب - مجموعة إبراهيم درويش

ساحل عكا في صورة لبرنامج غوغل إيرث

الطريق من عكا الى شَعَب في صورة لبرنامج غوغل إيرث

قرية شَعَب في صورة لبرنامج غوغل إيرث

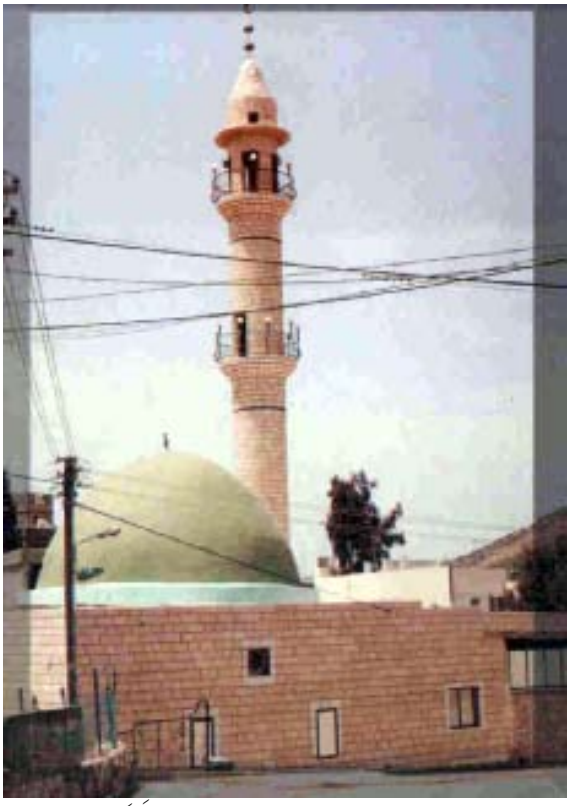

مسجد شعب - روزنامة رابطة شَعَب

بلاطة على باب مسجد شَعَب تدل على تاريخ بنائه ١١٦٢هـ في عهد ظاهر العمر
مجموعة إبراهيم درويش

من أراضي شعب - مجموعة علي عبد اللطيف

منظر عام لقرية شعب - من الإنترنت

جبال شعب المحيطة - من الإنترنت

بيت قديم منفرد في القرية - من الإنترنت

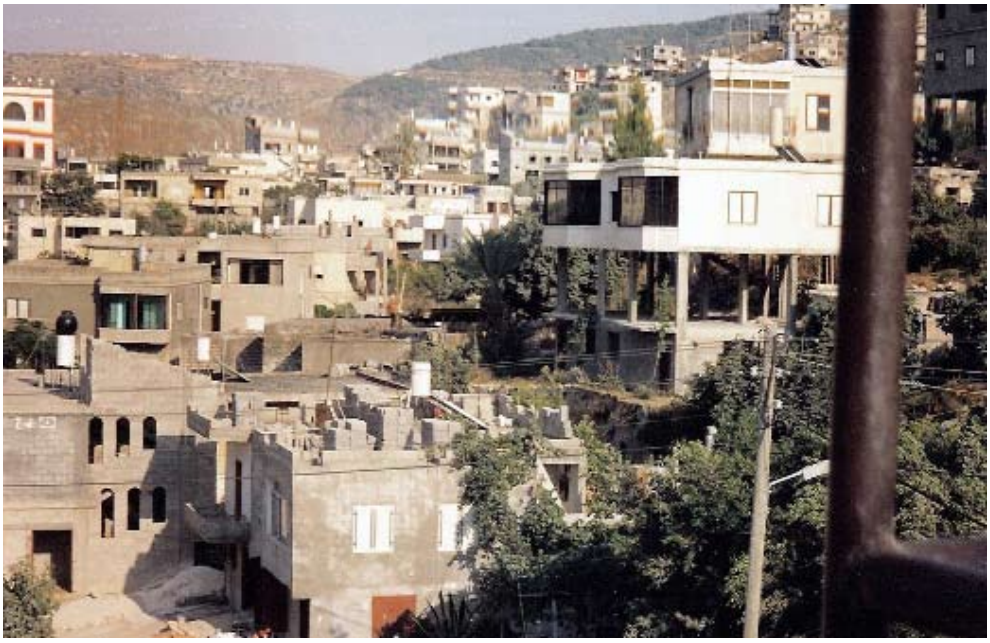

صورة عامة داخلية لشعب - من الإنترنت

سهل الزيتون وقلعة الشيخ كما تبدو من فوق بيوت شعب - من الإنترنت

مدخل شعب - من الإنترنت

زيتون من شعب - من الإنترنت

من آثار شعب - بير الحنانة (مجموعة يوسف محمد علي)

من محيط شعب - قلعة الشيخ (مجموعة يوسف محمد علي)

من أراضي شعب - زيرة عبيب (مجموعة يوسف محمد علي)

من أراضي شعب - مراح الغزلان (مجموعة يوسف محمد علي)

من أراضي شعب - الجلمة (مجموعة يوسف محمد علي)

من أراضي شعب - تلة يعنين (مجموعة يوسف محمد علي)

زيتون شعب وتبدو قلعة الشيخ في الأعلى - من الإنترنت

من أراضي شعب - من الإنترنت

...ختامه مسك

رحم الله والدي الذي كان يقول لي: «أللهْ لا يضوّعْ لَكْ تعبْ، بجاهْ مختار شَعَب..» يوم كنتُ طالباً في صف (البكالوريا) عام ١٩٥٨م... فهل كان لمختار (شَعَب) مكانة ما في الورع والتقى والكرامة، بحيث أصبح (المختار) ممّن يستُنجد به في زمن الضّيق والشدّة، فيصبح ممّن يستجار به فيُجير، بعون الله؟!

وأنا هنا أُجيّر دعاء والدي، لصالح ابن بلدة (شَعَب)، الابن البارّ الأستاذ ياسر أحمد علي، فهو أَوْلى بكرامات أهل قريته، من منظور: (إن الأقربين أولى بالمعروف..).. فما بالك إن كان الأستاذ ياسر قد تورّط في الحديث عن عملية أشقى من شاقّة. وهي مهمّة الكلام على تاريخ قريته سابقاً ولاحقاً، وسيرة بعض أبنائها التي ستسبّب له الإحراج إن كان متجرّداً، نزيهاً صادقاً؛ وكذا الحال عند التعرض بالحديث لأصول العائلات والحمايل..

ومن يدري فقد يستفيد الأستاذ ياسر من دعاء والدي، في ظل وجود أكثر من مختار في قريته (شَعَب)، فإن ضرّ أحدهما، نفَع الآخر.. فيحصل في النهاية على علاقة متوازنة، تؤهّله للنجاح، ولو بدرجة (مقبول).. على الأقلّ!

ولو قدّر للأديبة الأميركية الأصل، الدكتورة روشيل آن ديفيس أن تطّلع على مسودّة كتاب (شَعَب) العتيد، لأبدت إعجابها بالتأكيد، إن لجهة منهج البحث، وإن لجهة الصدق والتجرّد، اللتين توسّلهما ابن قرية (شَعَب): ياسر علي، وهو الذي ولد في زمن الشتات عام ١٩٦٩، فلم يقدّر له أن يكحّل عينيه بخضرة الروابي والهضاب، وبسندس السهول والحقول، ولم يشنّف أذنيه بسماع أغاني الأعراس، وأهازيج الفلاّحين، ولم يتمتّع بسهرات القرية الصيفية، حيث تنشط العجائز في سرد الحَكايا والخراريف، ولم يقدر أن يرى صبايا الحيّ غاديات إلى (عين البلد) وهنّ يحملن الجرار على رؤوسهنّ، أو أن يرى راعياً يرنّم على شبّيبته) أغاني الميجانا والعتابا والدلعونا والجفرة..

الدكتورة (روشيل) المدرّسة في جامعة (ستانفورد) سابقاً، وفي جامعة (جورج تاون) حالياً، التي قالت لي: إنّ كتاب (الدامون قرية فلسطينية في البال) هو من أفضل ثمانية وثلاثين كتاباً، كتبت عن (قرى فلسطين).. وهي سيكون لها رأي مماثل في كتاب (شَعَب) للأستاذ ياسر أحمد علي، بالتأكيد..

الأستاذ ياسر علي: عضو الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين في لبنان، بذل جهداً رائعاً، وقد اجتهد، فإن أصاب فله أجران، وإن اخطأ فله أجر واحد.. وأراه مصيباً..

حسين علي لوباني

(الداموني - الجليلي)

بطاقة الكاتب

ياسر أحمد علي

من مواليد ١٩٦٩ مخيم تل الزعتر – لبنان.

حائز على إجازة في المحاسبة.

حائز على ليسانس في الأدب عربي من جامعة بيروت العربية عام ١٩٩٤.

أنهى دبلوم الدراسات العليا ويحضر رسالة ماجستير في الدراسات الإسلامية.

كاتب صحفي وشاعر فلسطيني من اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

عضو الهيئة الإدارية في الاتحاد العام للكتاب والصحفيين الفلسطينيين - فرع لبنان.

صحفي متخصص في المجال الثقافي والإعلامي، وقضايا اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

رئيس تحرير مجلة «البراق» الشهرية التي تصدر في لبنان وتعنى بشؤون اللاجئين الفلسطينيين في لبنان.

أشرف على الصفحة الثقافية في مجلة الأمان اللبنانية الأسبوعية (١٩٩٧-٢٠٠٢).

يكتب منذ سنة ٢٠٠١ في مجلة فلسطين المسلمة وعدد من المجلات والصحف اللبنانية.

شارك في عدد من الندوات الأدبية والأمسيات الشعرية والبرامج الإذاعية والتلفزيونية في لبنان والعالم العربي.